دراسة علمية تكشف السر

لماذا لم تُسجل قصص الأنبياء فى مصر القديمة؟

حرف

الدستور الثقافى

إصدار إلكترونى يصدر عن مؤسسة «الدستور» للطباعة والنشر

العدد 18

المحرر العام: محمد الباز

الأربعاء 8 مايو 2024
29 شوال 1445
30 برمودة 1740

اليوم ده يومك يا طه

العميد ينتصر على «المازحين» من قبره

مجدى أحمد على يكتب:

هذا «الخالد» فى وزارة الثقافة

«أخبار الأدب».. حلم أتلفه الهوى

كيف تتحدث عن كتاب لم تقرأه؟

فراس السواح.. ذلك المعلوم المجهول

مصطفى عبيد

يتحدث عن المشروع الفكرى لتفكيك ما يسمى بـ«المسلّمات» أو «الثوابت»، وتفاصيل كل كتاب فى إطاره، حيث يؤكد أن كل شىء قابل للبحث والتفكيك والمراجعة.

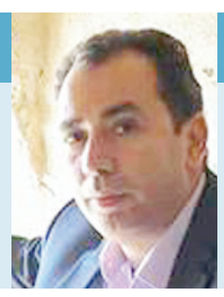

هانى القط

احتفل مؤخرًا بإصدار روايته الجديدة «تاج شمس»، ويتحدث هنا عن الرواية، عن طريقة بنائها وعن آبائه الروائيين ونظرته للنقد والفن والأدب بشكل عام.

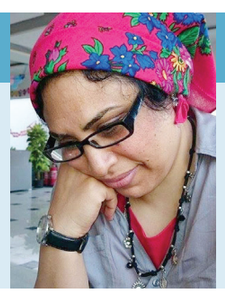

منى الشيمى

تحكى تجربتها مع الأمير يوسف كمال، التى ظلت تتبع سيرته لمدة خمس سنوات، حتى خرجت برواية عن الرجل الذى يُعد أحد أبرز أمراء أسرة محمد على باشا.

جُل الجدال الذى يثار بين الحين والآخر تحت مسمى «الترند» لا يعدو كونه ضجيجًا فارغًا، يُحدث جلبة مؤقتة وسرعان ما يخمد دون أثر يُحمد، لكن بعضًا آخر منه يمكن أن يترك آثارًا محمودة، هكذا فى عصر «السوشيال ميديا»، بات بعض المفكرين والمعنيين بالشأن العام يدركون جيدًا قواعد اللعبة، فيجيدون استعمالها فى تسليط الأضواء عليهم أو على أفكارهم أحيانًا، ولو مؤقتًا. من هذا المنظور، يمكن النظر بإيجابية لـ«الترند»، الذى أطلقه الباحث والروائى يوسف زيدان، عن عمد على الأرجح، مثيرًا الكثير من الجلبة، التى يمكن ألا تصير فارغة تمامًا.

من الجوانب الإيجابية للجلبة المذكورة يمكن الحديث عن إعادة التذكير بالجهد الفكرى لعميد الأدب العربى طه حسين ودوره المحورى فى الفكر العربى الذى رغم مرور أكثر من نصف قرن على وفاته لا يزال يحظى بوفاء أحفاده وإيمانهم بجهده المكرس للنهضة العربية، وعن الأسئلة الفكرية التى أثيرت على هامش الجدال، وكذلك، وهذا ما يهمنا الآن، إعادة النظر فى الجهود الفكرية التى قدمها واحد من القطبين المثيرين للنزاع؛ وهو فراس السواح.

فبينما لم يعد الحديث عن أزمة القراءة وعزلة المثقف سوى حديث يتكرر بكل مناسبة، يمكننا القول إن كلًا من قطبى النزاع؛ زيدان والسواح، لا تنطبق عليهما القاعدة المذكورة، فبينما يحتفظ زيدان باتصال نوعى مع جمهوره، سواء من خلال الندوات واللقاءات أو حتى التواصل عبر منصة التواصل الاجتماعى «فيسبوك»، فإن فراس السواح اسم متداول بين مختلف الفئات العمرية، ويدلل ناشرو أعماله على شعبيتها بالحديث عن النفاد السريع لها. وعلى الأرجح لن يختلف اثنان فى ترشيح أعمال السواح لأى باحث فى «الميثولوجيا» وتاريخ الأديان.

حنان عقيل

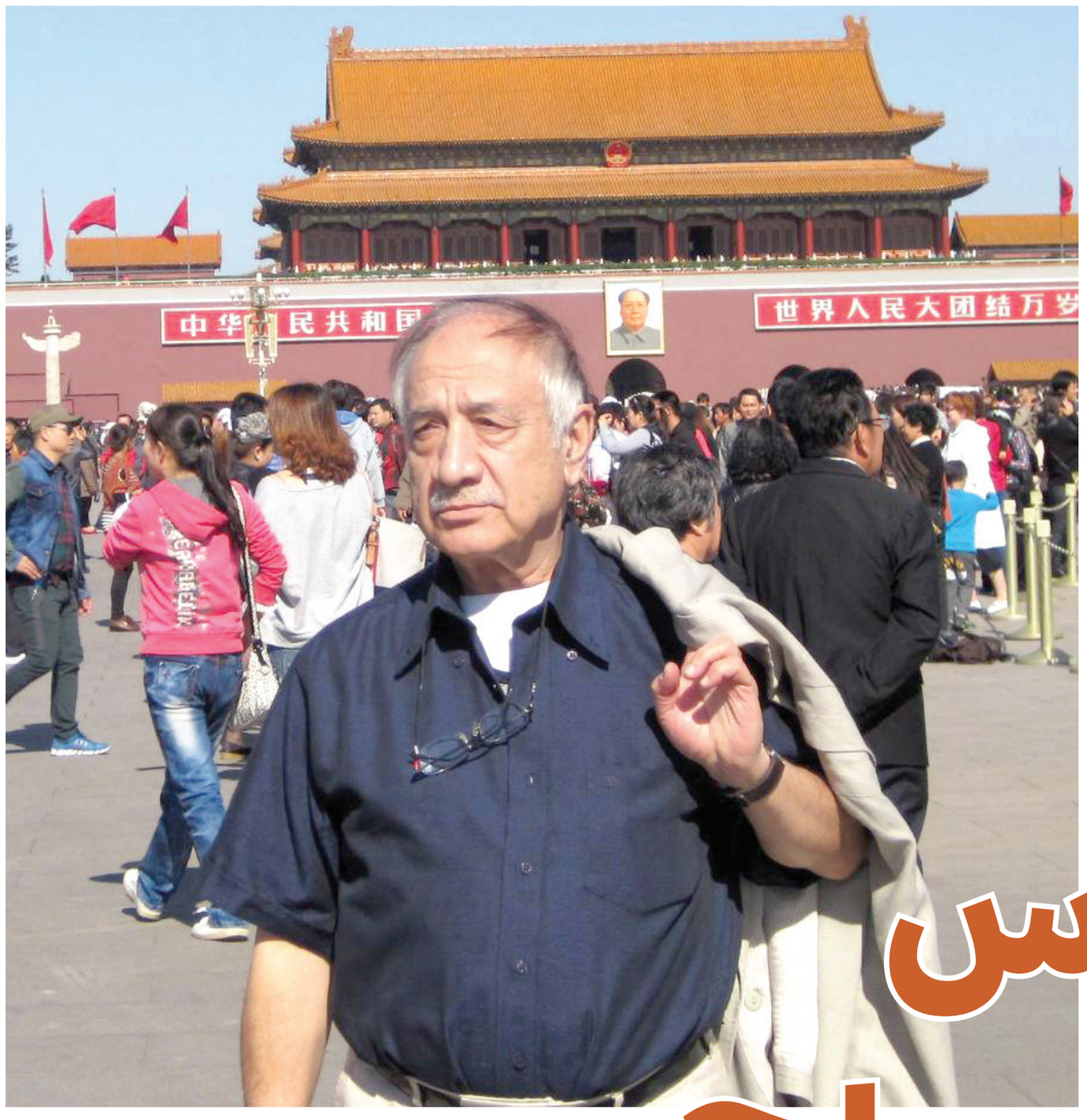

فراس السواح
ذلك المعلوم المجهول

1 مغامرة العقل الأولى

ولد المفكر السورى فراس السواح فى حمص بسوريا عام ١٩٤١ لعائلة أزهرية، وعلى الرغم من أن مجال دراسته الجامعية كان الاقتصاد، فقد جذبته الميثولوجيا وتاريخ الأديان مبكرًا ليصدر كتابه الأول «١٩٧٦»، الذى حقق نجاحًا واسعًا لا يزال قائمًا حتى اليوم وهو «مغامرة العقل الأولى»، والذى لا يزال من المراجع الرئيسية فى ميثولوجيا المشرق القديم. هذا الانتقال المفاجئ والسريع إلى مجال مستجد بالنسبة لشاب فى مقتبل العمر لطالما كان سؤالًا محيرًا لمن أراد معرفة من هو فراس السواح، وهو ما دفعه لتفصيل الإجابة عنه فى كتابه «الله والكون والإنسان»، فقال: أعتقد بأن البداية انطلقت عندى من التساؤل؛ فالإنسان يُولد ومعه دافع طبيعى إلى التساؤل، وما إن يتفتَّح وعى الطفل حتى يأخذ بطرح الأسئلة حول أصل العالم، ووجود الله، والروح والحياة الثانية، والغاية من الوجود وحياة الإنسان، وما إلى ذلك. وفى الواقع فإن أسئلة الطفولة على بساطة طرحها، هى التى شغلت البشرية عَبْر تاريخها، وتصدَّت للإجابة عنها كلُّ أشكال الحكمة والفلسفة والدين، وكذلك العلم فى العصر الحديث. ولكن الدافع إلى التساؤل يخفتُ تدريجيًا لدى معظم الأفراد، وذلك بمرور الوقت وضغط الشروط المادية للحياة اليومية، فيلجأون عندها إلى دين آبائهم ليجدوا فيه عقيدةً ناجزة وأجوبةً جاهزة، تُعفيهم من حَيرة السؤال وتضعهم فى طمأنينة الأيديولوجيا، ولكن هناك قلَّة من الناس تبقى أمينةً للسؤال ولأرَق الحَيرة الذى يهبُنا الإحساس بالحرية وبحرارة الحياة، ويبدو أننى كنتُ من هذه القلة التى لم تقنع بالجاهز والموروث، وأعطت لنفسها حرية البحث والتفكير.

كانت الطفولة القلقة ثم المراهقة المحملة بالأسئلة إذن هى البذور الأولى التى قادت السواح إلى طريقه البحثى فى الأديان انطلاقًا من المنهج الظاهراتى، الذى استكمله لاحقًا بكتابه الثانى «لغز عشتار: الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة» «١٩٨٥»، وهو الكتاب الذى خاض فيه فى جذور الأساطير القديمة ليكشف عن الطبيعة الجندرية للإله التى تنقلت من الذكورة إلى الأنوثة وفقًا للأطر الاجتماعية الموجودة، وتأثير تلك الطبيعة الجندرية الإلهية وأصول الآلهة القديمة على الأفكار الجنسانية السائدة به.

بعد نشر كتابه الثانى بثلاثة أعوام، تفرّغ السواح لدراسة التاريخ والأركيولوجيا والميثولوجيا وتاريخ الأديان، وأصدر الكثير من الكتب المهمة ومنها: «كنوز الأعماق: قراءة فى مَلْحمة جلجامش»، و«تاريخ أورشليم»، و«مدخل إلى نصوص الشرق القديم»، و«موسوعة تاريخ الأديان»، و«الوجه الآخَر للمسيح»، و«الإنجيل برواية القرآن»، و«القصص القرآنى ومتوازياته التوراتية».

وقبل أن نتطرق إلى التصريحات والأحاديث المثيرة للجدل، سواء عبر حسابه على «فيسبوك» أو فى أحاديثه التليفزيونية، والتى اعتاد السواح على إطلاقها واعتاد متابعوه وقراؤه على استقبالها، من الأجدى أن نتطرق إلى أبرز المحاور التى تضمنتها أعمال السواح التى تظل، اتفقنا أو اختلفنا على مضمونها، جهدًا بحثيًا وفكريًا جديرًا بالاطلاع والاهتمام.

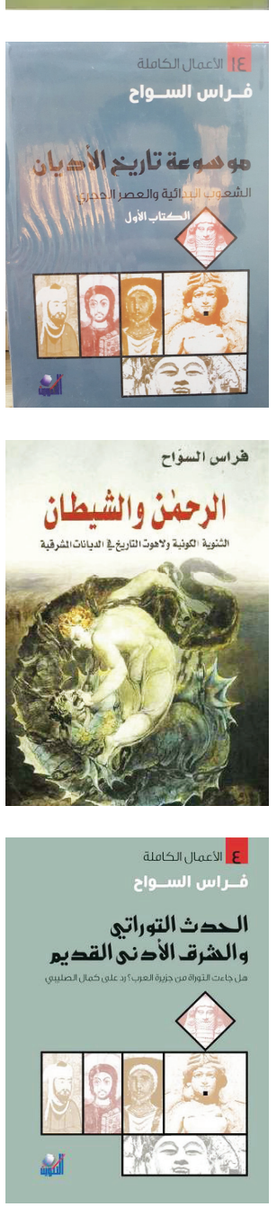

2 رؤى إشكالية فى مسائل دينية

أتاحت دراسة السواح الظاهراتية لمختلف الأديان على مر العصور إلى التوصل لمفهوم خاص حول ما يعنيه مصطلح «الأديان التوحيدية»، التى يرى أنها لا تقتصر على اليهودية والمسيحية والإسلام، وإنما تضم الزرادشتية والمانوية، ومن بقايا ديانات الشرق القديم: المندائية والإيزيدية.

يوضح السواح ذلك فى كتاب «الله والكون والإنسان» بقوله: لقد خضعَت الأديان التوحيدية للتطوُّر والتبدُّل مثل غيرها من الأديان، على الرغم من تثبيت عقائدها فى كتب مقدَّسة حُفظَت نصوصها من التغيير والتبديل؛ فمسيحية الأناجيل وبقية أسفار العهد الجديد لا تُشبه مسيحية بولس الرسول الذى يحمل لقب مؤسِّس المسيحية، ومسيحية بولس لا تشبه كثيرًا مسيحية قانون الإيمان الذى صاغه مجمع نيقية الذى انعقد فى العام ٣٢٥م، وبعد مجمع نيقية تابعَت المسيحية تطوُّرها، وترسَّخ مفهوم الثالوث الذى لم يقُل به أصحاب الأناجيل ولا بولس الرسول ولا حتى مجمع نيقية، كما ترسَّخَت عبادة السيدة مريم. وفى الإسلام حصل التطوُّر على ثلاثة محاور وهى: الحديث؛ أى ما وصل المسلمين من أقوال الرسول أو أفعاله. علم التفسير؛ أى تفسير ألفاظ ومعانى القرآن الكريم. علم الكلام، وهو علم العقائد الإسلامية الذى يُقابل اللاهوت فى الديانة المسيحية. ومن خلال هذه العلوم أحدَث العقل الإسلامى ما يشاء على الإسلام من تطوير وتغيير، وتعدَّدَت الطوائف الإسلامية، وكل طائفة تدّعى أنها الصيغة الحقيقية للإسلام فى مقابل بقية الطوائف، وكلها تدّعى أيضًا بأنها تستند إلى القرآن وإلى الحديث الشريف.

من هذا المنطلق، يذهب السواح إلى أن سلطة النص الدينى المقدس خرافة، لا سيما وأن النص المقدس إشكالى يستدعى تدخل المفسرين للبحث عن معانيه، ومن ثم فالأولى أن تكون السلطة الحقيقية للعقل الإنسانى وكيفية فهمه للنص.

ويرى السواح أن ثمة عناصر مشتركة وثابتة بين كل الأديان، فالمعتقد الدينى يقوم على الإحساس بانقسام الوجود إلى مجالين؛ عالم الظواهر المحسوسة الذى يتحرك ضمنه الإنسان؛ وعالم الغيب الذى صدرت عنه هذه الظواهر المحسوسة بما فيها الإنسان وأشكال الحياة الأخرى. وبناء على ذلك، يصل السواح فى كتابه «دين الإنسان» إلى أن الدين ليس وهمًا، والمؤمن ليس واهمًا فى إحساسه بوجود قوة أعظم منه تضم الوجود إلى وحدة متكاملة، وبالتالى، فإن الأديان كلها تقف على قدم المساواة، ولا وجود لأديان حقيقية وأخرى زائفة، لأن جميع الأديان نتاج لذلك الشرط المعطى للوجود الإنسانى.

ومن الكتابات المهمة فى مضمار الفكر الدينى، يمكن الحديث أيضًا عن كتابه «القصص القرآنى ومتوازياته التوراتية»، ففيه ارتكز على القرآن والتوراة، ليقدم دراسة مقارنة لنصوص القَصص القرآنى ونظائرها فى التوراة، راصدًا التشابه بين النصين وما ورد فيهما من قصص حول الخلق والقيامة والطوفان وإبليس والحياة بعد الموت، مستعيدًا الأصول الميثولوجية لبعض القصص.

يصل السواح من دراسته للميثولوجيا إلى أن ليس ثمة دين بدون أساطير، ويبين ذلك فى كتابه «الله والكون والإنسان: نظرات فى تاريخ الأفكار الدينية» قائلًا: فى الديانات التوحيدية لدينا أساطير رئيسية وأخرى ثانوية؛ فمن الأساطير الرئيسية هنالك أسطورة الخلق والتكوين، وجنة عدن، وعصيان الإنسان الأول وسقوطه، وتمرُّد الملاك إبليس وتحوُّله إلى شيطان، ويمكن اعتبار مشاهد اليوم الأخير والجنة والنار بمثابة أساطير تعليميةٍ تهدف إلى تزويد المعتقد بصورةٍ حيةٍ نابضة. ومن الأساطير الثانوية التى تُروى عن مسيرة التاريخ البشرى لدينا أسطورة الطوفان الكبير، وقصص الأنبياء، وما جرى لهم مع أقوامهم، وتدمير المدن العاصية التى لم تستجب لرسالة الأنبياء.

3 تصريحات نارية لا تعرف المهادنة

إضافة إلى العمل البحثى الدءوب والجاد الذى اضطلع به السواح فى أعماله المتتالية، والتى يمكن اعتبارها جميعًا مغامرات فى النظر العقلى الذى يجابه بمناهج علمية أفكارًا مكرسة وراسخة، فإن منشورات السواح عبر «فيسبوك»، ولقاءاته الإعلامية ربما أكثر مباشرة وبطبيعة الحال صدامية بدرجة أكبر.

يظل رأى السواح فى «الحجاب» من أكثر الآراء التى أثارت جدلًا واسعًا فى حينها، ففى منشور صادم أعلن السواح ذات يوم عن أنه يرفض قبول صداقة امرأة محجبة، وهو ما جُوبه بنيران من الجدال لم يسع السواح إلى إطفائها بل تمسك بما قاله وبرّره فى لقاءات إعلامية تالية أشار فيها إلى أن الحجاب غير منصوص عليه بالقرآن وأنه ليس فرضًا. وفى منشور آخر له، عبر حسابه، استكمل الحديث فى المسألة بقوله: الحجاب مرة أخرى: فى القرآن الكريم نصوص توقف العمل بها بعد عصر الرسول الكريم ومنها «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم . . . » التوبة ٦٠ . والمؤلفة قلوبهم جماعة جعل لهم الرسول نصيبًا من الزكاة ليستميلهم إلى الإسلام أو ليكف أذاهم عن المسلمين. ولكن الخليفة عمر توقف عن الدفع إلى هؤلاء بعد أن اشتد عود الإسلام ولم يعد بحاجة لاستمالة أحد. أى أن عمر قد أوقف العمل بنص آية قرآنية لأن الزمن قد تغير. فما بالكم بمسألة ليس فيها نص ولكنها تعتبر اليوم من أولويات الدين وهى الحجاب؟ إن للتطور قوانينه، والأمة التى لا تعى هذه القوانين معرضة للاندثار، لأنها ترى مستقبلها فى ماضيها.

ومما تحدث فيه بكتبه ثم بمنشورات مباشرة عبر حسابه كان ما يعنيه «الإسلام» كما ورد فى القرآن، فالإسلام برأيه يعنى الأديان التوحيدية جميعًا. ويفصل ذلك قائلًا: «إن الدين عند الله الإسلام» - آل عمران ١٩. «ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يُقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين». لقد لعب تفسير هاتين الآيتين دورًا فى تكوين الأيديولوجيا التكفيرية وفى الأعمال العدائية التى قام بها التكفيريون ضد أهل الديانات الأخرى ومقدساتهم. فقد فهم المفسرون كلمة الإسلام هنا على أنها دين محمد بن عبدالله، ولكننا إذا بحثنا فى المواضع التى وردت فيها هذه الكلمة لوجدنا أنها فى ٩٠٪ من الحالات تعنى دين التوحيد بشكل عام، فإبراهيم الخليل كان أول المسلمين «البقرة ١٣١ و١٣٥ وآل عمران ٦٧»، ويوسف الصديق كان مسلمًا «يوسف ١٠١». وكذلك إسحاق ويعقوب وإسماعيل «البقرة ١٣٢ و١٣٦» وكل الأنبياء والمرسلين. لذلك كان الخطاب القرآنى إيجابيًا تجاه بقية الأديان التى يصنفها سماوية: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلهم أجرهم عند ربهم ولا هم يحزنون».

يبقى فراس السواح بدراساته فى الميثولوجيا واحدًا من هؤلاء المفكرين الذين حثوا على تحريك المياه الراكدة وعدم الارتكان إلى معتقدات وتفسيرات تخالف العقل والمنطق الإنسانى وتقود إلى تحويل الحياة البشرية إلى جحيم مطلق، فربما ليس هناك خلاف على أن ثمة منجزًا للسواح يستحق معه التقدير والنظر، رغم أى حديث مبتذل؛ جدًا كان أم مزاحًا.

> يبقى فراس السواح بدراساته فى الميثولوجيا واحدًا من هؤلاء المفكرين الذين حثوا على تحريك المياه الراكدة

> أعلن السواح ذات يوم عن أنه يرفض قبول صداقة امرأة محجبة وهو ما جُوبه بنيران من الجدال

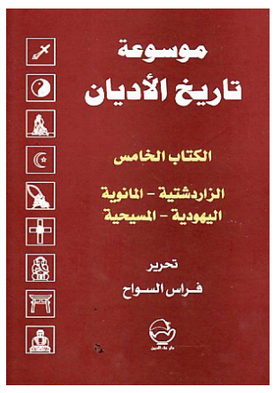

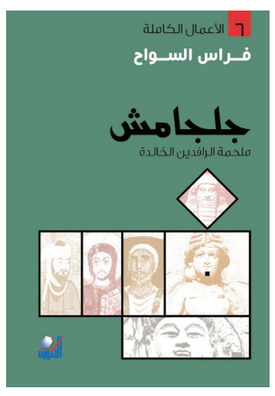

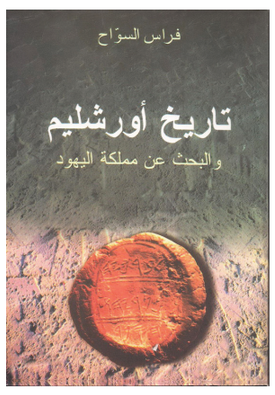

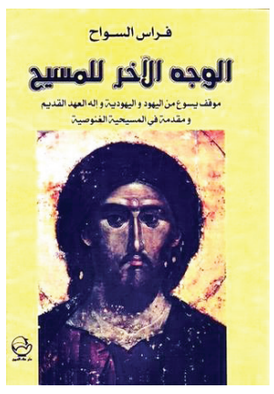

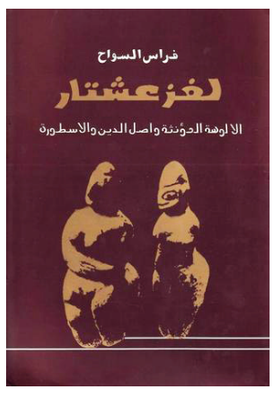

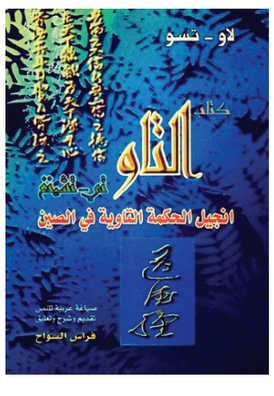

حرف

الدستور الثقافى

إصدار إلكترونى يصدر عن مؤسسة «الدستور» للطباعة والنشر

03

الأربعاء
8 مايو 2024
29 شوال 1445
30 برمودة 1740

المستشار الفنى: عيد رحيل

مدير التحرير: محمود الشهاوى
الإخراج الفنى: محمد جلال فراج
سكرتير التحرير: بيجاد سلامة
الديسك: كرم منصور
التصحيح: وائل فصيح
مدير الإنتاج: رائف درويش

على هامش ضجيج بلا طحن ورماد بلا نار

محمد الباز

طه حسين يهزم يوسف زيدان وفراس السواح من قبره

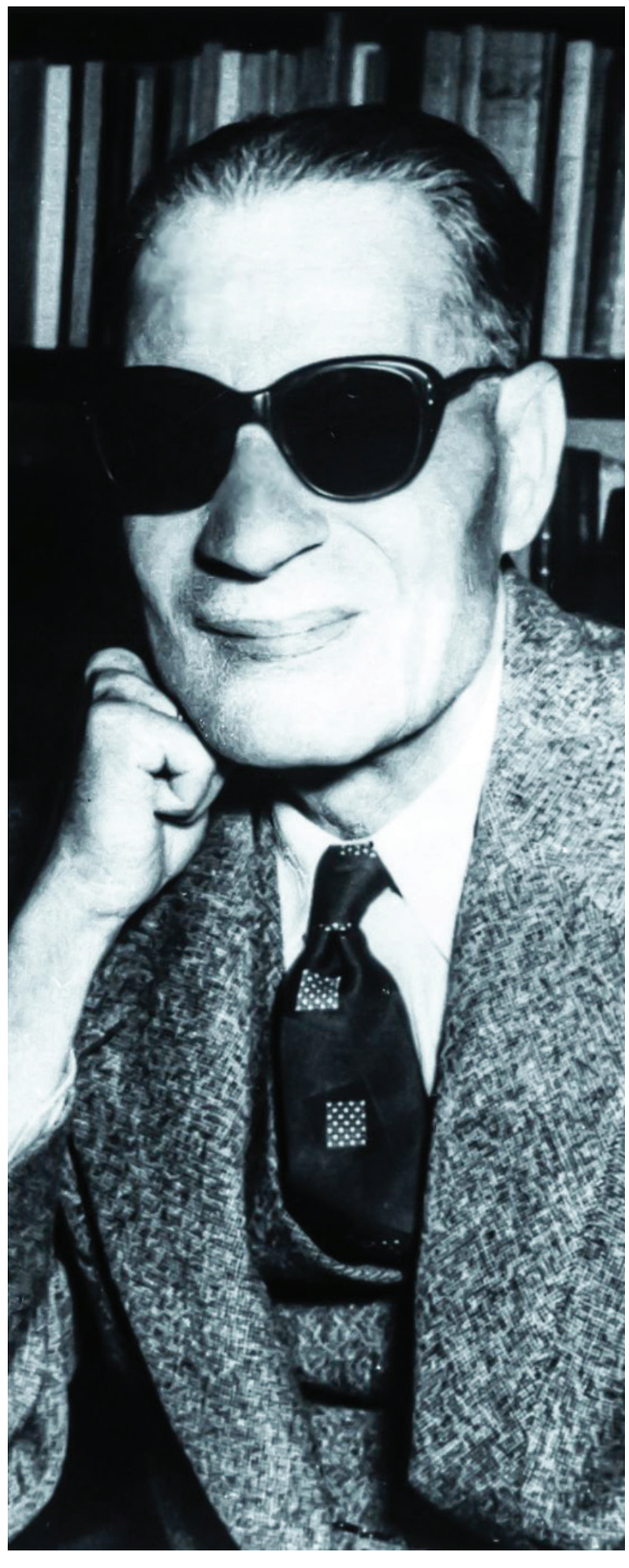

بعد ساعات قليلة من الضجة التى أثارها الحوار الثنائى بين الدكتور يوسف زيدان وفراس السواح حول طه حسين على منصة تدشين مؤسسة «تكوين» من المتحف المصرى الكبير، تواصلت مع الدكتور زيدان.

تصادف أنه كان يجلس إلى جوار فراس فى جلسة ودية بعد أن أشعلا النار فى الساحات الثقافية.

سألت يوسف عما جرى، فقال بحسم: كان مزاحًا.. لم يكن أكثر من مزاح.

وبدأ يشرح لى ما جرى، قال: كنا نتحدث عن السياق الذى عمل فيه طه حسين، وعن الأدوات والوسائل التى كانت تساعده فى نشر أفكاره وكتاباته، وقلت إن توزيع كتبه لم يكن على نطاق واسع، بينما عندما كنت أبحث عن كتاب لفراس السواح- الذى كان يجلس بجوارى على المنصة - وجدت أنه نفد، وسألت فراس: هل أنت أهم أم طه حسين؟ وكنت بالطبع أمزح معه، فبادلنى هو الآخر بمزاح قال: أنا وأنت أهم من طه حسين.

زادنى يوسف زيدان: لم يكن قصدى حتمًا مقارنة مع طه حسين، كما فهم الناس، ولكن كنت أتحدث عن سياق محدد، وأعتقد أن فراس التقط ما قصدت، فرد علىّ بعفويته.

يمكننى أن أقدر ما قاله لى يوسف زيدان وينتهى الأمر عند هذا الحد.

لكن يظل السؤال معلقًا فى رقبتى زيدان والسواح، وهو:

كيف تحول المزاح إلى جد؟

كيف أصبح الهزل محلًا لجدل عنيف؟

كيف تحولت الدعابة إلى غضب وعنف ورفض؟

ظاهر الأمور يقول إن الدكتور يوسف زيدان كان هو السبب المباشر فيما حدث، عندما نشر على صفحته الفيديو الذى لا يستغرق أكثر من دقيقة وثلاثين ثانية لما دار بينه وبين فراس.

التقطت بعض المواقع وصفحات السوشيال ميديا الفيديو من على صفحة يوسف، وترجمت ما دار بينه وبين فراس إلى عناوين زاعقة كانت سببًا فى استهداف من يقولون على نفسيهما إنهما أهم من طه حسين.

هنا الدكتور يوسف زيدان هو من نزع ما قاله من سياقه العام، أخذ من حواره الطويل عبارات وجعل منها السياق، ولذلك فاللوم يقع عليه وحده، فلو أن أحدهم هو من أخذ هذه الفقرة وحدها وأذاعها لاتهمته بأنه يريد تشويه الحوار مع سبق الإصرار والترصد وبسوء نية.

عن نفسى أُصدق الدكتور يوسف فيما قاله، وأتفهم أيضًا ما جرى منه.

فالدكتور زيدان بعيدًا عن علمه وإنتاجه الفكرى والروائى رجل ظريف خفيف الظل لا تمل من الحديث إليه، يمتلك حس الدعابة، كما المصريون أولاد البلد، لكن يبدو أن اهتمامه بتصدر الصورة جعله يقتطع هذا الجزء من الحوار تحديدًا، لأنه يعرف بخبرته فى عالم السوشيال ميديا أنه سيكون حديث الجميع، ولأنه لا يخاف من النقد أو الهجوم فقد أقدم على النشر الذى كان يعرف جيدًا أنه سيجعله هدفًا مباحًا ومستباحًا للجميع دون أن تهتز منه شعرة.

فكم من الأزمات التى أحاطت به وخرج منها سالمًا.

وكم من حملات هجوم استهدفته، ولم يزده الأمر إلا بريقًا ولمعانًا وقراءً وزيادة فى المبيعات والانتشار.

هذا هو اختياره الذى يصر عليه والذى أعتقد أنه يراه الأصلح له، ولا يمكننى أن ألومه عليه، لكن أيضًا لا يجب هو أن يلوم الآخرين الذين يفهمون كلامه ويفسرونه بطريقتهم، فالعملية الاتصالية فى النهاية إرسال واستقبال.

كان رد الفعل عنيفًا وهو الأمر المنطقى والطبيعى.

فإذا لم يغضب الناس لطه حسين فلمن يغضبون.

وإن لم يستنفروا طاقاتهم للذود عنه فلمن يهبون.

إنه طه حسين صاحب المشروع الوحيد المكتمل فى فكرنا المعاصر، والذى لم يستطع مشروع آخر أن يتجاوزه، ولو أردتم الانصاف فإن كل أصحاب المشروعات الفكرية من بعده «عيال» عليه.

ولأن هدف مؤسسة «تكوين» التفكير وإثارة الجدل الصحى فى المجتمعات العربية، كما أعلنوا هم أنفسهم، وليس إثارة الصخب الفارغ، كان لا بد من تصحيح لما جرى.

فى اليوم الثانى من أيام منتدى «تكوين» والذى عقد بالمناسبة لإحياء ذكرى طه حسين الخمسين، وقف الزميل العزيز الإعلامى اللامع عمرو عبدالحميد بين يوسف زيدان وفراس السواح، ليدور بينهم حديث ثلاثى، من المهم أن أضعه أمامكم.

عمرو: هل أنت أهم أم طه حسين؟... هذا هو السؤال الذى طرحه المفكر الدكتور يوسف زيدان على المفكر الدكتور فراس السواح فى الجلسة الافتتاحية لإطلاق منتدى تكوين الذى أطلقته مؤسسة تكوين، الإجابة التى قالها الدكتور فراس كانت ربما صادمة للكثيرين وتابعنا الضجة التى أثيرت حول هذه الإجابة فى مواقع التواصل الاجتماعى وفى المواقع الإخبارية، دكتور فراس قلت لدكتور يوسف أنت أهم من طه حسين وأنا أهم من طه حسين هل قصدت ذلك؟

فراس: أنا رجل عاقل وكاتب عاقل على ما أعتقد ولا أعتقد أن كاتبًا عاقلًا يمكن أن يقول وهو جاد إنه أفضل من طه حسين من حيث المبدأ، لكن من أوقعنا بهذه الورطة صديقى يوسف زيدان، أراد أن يقدمنى فى الجلسة فسألنى سؤالًا غريبًا قال: هل أنت أهم أم طه حسين؟ ظننته يمزح فأجبته بدعابة فقلت له: أنت وأنا أفضل من طه حسين، كانت دعابة.

عمرو: كيف تلقيت دكتور يوسف هذه الدعابة؟

يوسف: والله طبعًا أنا دُهشت مما جرى، وتذكرت دكتور جابر عصفور لما صدرت رواية عزازيل واحتفى بها العالم كله، كتب عنها أربع مقالات فى جريدة الحياة كان عنوانها إيه؟ «ثقافة مريضة»، وقال: يا جماعة رواية زى دى تطلع فى الأدب العرب وإحنا نقعد نهاجم فيها، كده إحنا لازم نتعالج من الأمراض الثقافية، ومنها هذا المرض، يا أخى أنت الذى تهاجم لا شفت الجلسة ولا عارف السياق بتاع الكلام كان ماشى إزاى، إحنا امبارح وإحنا بنأسس لإطلاق المؤسسة بعد سنة ونص تجهيز الكلام جاد جدًا، وكل المتابعين عارفين إن أنا من أشد الناس احتفاءً بطه حسين ودايمًا أعمل ندواتى يوم الأربع عشان حديث الأربعاء ولى كتابات كتير عنه، إنما أعداء الثقافة والفكر والتطوير بيترصدوا فيلتقطوا إشارة كده شاردة، الأستاذ فراس السواح جاد جدًا على طول، وعلى سبيل كسر الجدية قلت له: أنت مقروء جيدًا فى القاهرة فأنت أهم أم طه حسين؟ فرد علىّ بما قاله، فإذا بالحرائق تشتعل، وحدث ضجيج بلا طحن ورماد دون نار... يا جماعة فيه إيه؟

عمرو: ربما فات هؤلاء أن منتدى تكوين الأول كان بعنوان نصف قرن على رحيل طه حسين ومسألة التجديد..

يوسف: نعم وأصرينا على هذا فى مجلس الأمناء يعنى كلانا عضو فى مجلس أمناء المؤسسة، واستقر رأينا على أن يكون اليوم الأول بالكامل عن طه حسين كأننا نشير إلى التواصل، فإذا بالأمر يشتهر إعلاميًا كأنه تقاطع.

عمرو: اتهموك بالغرور.. فهل أنت مغرور يا دكتور فراس؟

فراس: قلت أنا رجل عاقل، وكاتب عاقل، وأكرر لا يمكن لكاتب عاقل أن يقارن نفسه بطه حسين.

عمرو: سؤالى نفسه يا دكتور يوسف؟

يوسف: سيبك إن أنا مغرور ولا متواضع، الأخ اللى هو اتهمنى بكده يمكن ملوش صلة شخصية، بس يمكن أنا عارف إن هو كاتب كويس يعنى يمكن نلتقى، أخوه كان صديقى أوى إنما يمكن نلتقى وهيعرف إن مفيش كاتب مغرور، وإن موضوع طه حسين ده أكبر من الأحكام الشخصية يعنى هو أنا مغرور ولا متواضع إيه دخل ده فى مكانة طه حسين؟ أنا أرجو الناس أن يهدأوا قليلًا، ولما تشوف مانشيت يعنى تتبع موضوع الجلسة، يمكن تلاقوا كلام مفيد أكثر من الهرج اللى تم نشره، فياريت تشوفوا فيديو الجلسة كاملة عشان تعرفوا، مش عايز أقول كم الجهد بس يعنى كم العمل اللى بذل خلال السنة ونص الماضية لإطلاق هذه المؤسسة التى تسعى لهدف أساسى هو تحريك الرواكد الثقافية العربية، ولا يعقل أن نبدأ هذا بالهجوم أو بالتعالى على طه حسين العلامة الكبرى للثقافة العربية فى القرن العشرين.

فراس: أنا جيت إلى القاهرة لأحضر وأشارك باحتفالية طه حسين فهل جئتُ إلى هنا لكى أقول إننى أفضل من طه حسين؟

عمرو: هذا سؤال منطقى طبعًا.

فراس: أنا جئتُ هنا للاحتفاء بطه حسين.

لم يكن هذا الحوار الثلاثى إلا محاولة لتفادى الضجة التى أثيرت، وأختلف تمامًا مع الصديق العزيز يوسف زيدان فى تفسيره لها، فهو من أشعل النار، وكان يكفيه اعتذارًا عما جرى، لا أن يهاجم من تلقى ما نشره هو بنفسه على صفحته.

يمكننا أن ننسى ما حدث، فالمقامات محفوظة.

يمكننا أن نكتفى بما قاله فراس السواح فلا يوجد عاقل يمكنه مهاجمة طه حسين أو التقليل من شأنه، ويمكننا أن نعتمد توضيح الدكتور يوسف زيدان بأن ما جرى كان دعابة، مجرد مزاح، لكننى أهمس فى أذنه أن المزاح كان ثقيلًا وسمجًا ولا يتوافق مع خفة ظله.

تعالوا نعتبر ما جرى وكأنه لم يكن من الأساس، تعالوا نطوى هذه الصفحة تمامًا، ونترك الفرصة لهذه المؤسسة «تكوين» لتقديم نفسها من جديد.

لكننا وقبل أن نطوى هذه الصفحة لا بد أن نتوقف قليلًا عند دلالات ما جرى.

فلدينا قيمة فكرية وثقافية كبيرة فى حياتنا اسمها طه حسين، وأنا أعتبر ما جرى له إعادة اعتبار كاملة، فبعد عقود طويلة من الهجوم عليه وتشويه صورته والإساءة إلى منجزه الفكرى، نجد أنفسنا أمام غضبة غير منظمة وغير متفق عليها خرجت من أجيال مختلفة ومن فئات متفرقة ومن مراحل عمرية متباينة، كلها ترفض الإساءة إلى العميد، فهو عند الجميع لا يمكن أن يقارن بأحد، ولا يمكن لأحد أن يضع نفسه فى مقارنة معه.

قد تكون هذه فرصة لأن نستعيد طه حسين من جديد، وأن نستعين بمنهجه فى التفكير، وأن نسلط الأضواء على طرحه الثقافى وقدرته الفائقة على التجديد، وأعتقد أنه على مؤسسة «تكوين» القيام بالجزء الأكبر فى هذا الجهد.

لا أخفيكم سرًا أننى كنت أتابع حالة الجدل التى أثارها طه حسين وهو راقد فى قبره منذ خمسين عامًا بفرحة غامرة.

لقد استطاع الرجل وهو لا يملك من متاع الدنيا شيئًا أن يهزم حتى المازحين على هامش سيرته، وتخيلوا أن ميتًا منذ نصف قرن لا يزال حاضرًا بيننا، بينما يغيب كثيرون لا يزالون يعيشون ويصدعوننا بطرحهم الغث الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع.

لقد كتبت أن طه حسين هزم يوسف زيدان وفراس السواح وهو فى قبره، فاستنكر الدكتور يوسف ما كتب فعلق عليه بقوله: لم نتصارع لينتصر أحد أو ينهزم.

صحيح لم يكن هناك صراع، لكن كانت لدينا محاولة لمعركة وأدها طه فى مهدها، وهو ما يحسب لقوة مشروعه وتمكنه فى مجالنا العام.

على الهامش.

لا بد أن أقول إن إعجابى بيوسف زيدان يزداد يومًا بعد يوم، فهو رجل لا يهتز فى مواجهة العواصف، لا ينافق الجماهير، وبعيدًا عن هذه المعركة فأنا على ثقة أنه لا يرى نفسه أهم من طه حسين، لكنه يعتقد أنه كفؤ له، وهو حر فى ذلك.

لكننى توقفت أمام حالة الاهتزاز الشديدة التى بدا عليها فراس السواح، الرجل الذى هرب من المواجهة، وتنصل من الحكاية كلها، معتبرًا أن زيدان هو من ورطه فى الموقف كله، وأعتقد أننا عندما نعرف من هو فراس السواح وما أنتجه، فلن نتعجب من موقفه أبدًا... لكن هذا على كل حال له حديث آخر.

> تخيلوا أن ميتًا منذ نصف قرن لا يزال حاضرًا بيننا بينما يغيب كثيرون لا يزالون يعيشون ويصدعوننا بطرحهم الغث الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع

الشاعر الكبير مسعود شومان

السما.. مش لون فى قعر الباليتة

عارف يا رب
الليل بيعمل نفسه ميت
وبينام فى حضنى
وبيسمينى كفن الضلمة
وأنا مش قد شيل النعوش
كام قمر ودعته
وكام قمر ودعنى
وحيد كأنى جناح رمادى
لطير فاتوه بينقى حبة غلة
مش قد صوت الريح
وهى بتونس بواقى الحجارة
ليل مالوش آخر يا رب
ودوامات بتعدى م الأخاديد
وتسيب كلامها يعلم الغزلان
النمل تحت الحصى
والدود بلاد ماشية
بيسلم الحدوتة للحدوتة
والروح تشيب ع الورق
والسر يفضل سر
والسما
مش لون قديم فى قعر الباليتة
حتة نتاية بتجرب تزوم ع البحر
تدى له لونها
وتنعس فى القميص اللبنى
رايح لفين يا دعا العشاق

أول لقانا فراق
والضلمة ما بتنتهيش
ومفيش يودى لمفيش
إيه اللى فايته يا ليل
قمر وحيد على عكازين
وشمس بتقاوح ضلام الشيش
ع البعد كان صوت الكناريا حزين
والليل بيعمل نفسه
غابات من الضلمة
وطابور طويل ما بين سنان هاتمة
وعيون مكسورة
الضلمة ألمع بقعة فى الصورة
احفرى يا دموع أخاديدك
وودعى وجع الوشوش
أنا قلبى طير غريب بيجرب الرفرفة
طاير كأنه فى ليل طويل أبدى
بيونس الحبايب فى النعوش.

امسحوا جسمى بأستيكة
عارف يا رب
كل أما يكبر حبة
يتسرق من جسمه عَضمة

عشر سنين عمره
احسبها معايا كدا
كان عنده عصفورتين
وحسبها بالريش اللى بيطير منهم
عضمة الكتف
عضمة الرجلين
بيقيسها بالجناحات وبالرفرفة
قلبه تحت دراعه
دايبه الحدود اللى بين غنوته والهديل
دقته يسمعها الهوا لو سِكت
وعينيه يتيمة زى صبار الترب
عضم الصوابع فاهم الحنية
سلِّم وقال بهدوء
امسحوا جسمى بأستيكة
هنا الوجع
والعصفورين ما زقزقوش
يا ريت يجربوا صوتهم ويخدعوه
امسحوا هنا
كمان هنا
قدروا لمعة عينيه
أهى عضمة القلب دابت
وابتدا يبقى روح
صدقنى لو قلت لك

إن النتيجة بتكدب
وإن سرب طيور بيرف فوق النعش
عارف يا رب
لما يفضى القفص
والرفرفة تبقى سر
حبة كلام نسيهم لسانه
مش باقى منهم غير
«امسحوا جسمى بأستيكة»
سيبونى أروّح لحالى
ما شوفتش حاجة منها
غير عضم بيتسرق
وبيت بتبنيه الدموع
أنا هنا فى الفسحة
بألعب مع أصحابى
سلم يا عضمى علىّ
أكتر من كدا ما تحسبوش
سلام

خلونى طيف خفيف
مع الريش اللى طاير
يمكن فى يوم يلاقى عصافيره
سلام
العضم واقف صف
مستنى أسوقه للترب.

فيه فيونكة حمرا بتسيب الضفيرة
عارف يا رب
صوتها تحت الردم بقى حبة رماد
فيه نافورة دم بتفادى الحجارة
فيه ورق محروق عليه حبة بلاد
فيه فيونكة حمرا بتسيب الضفيرة
فيه كتاب مكتوب عليه بانت سعاد
قالت الغنوة الصبايا
شوفت دمعتها اللى نزلت
لما دارت جرحها جوه المراية
التجاعيد ابتدت تحكى الحكاية
جرح واحد ع الحصان والاسم ماشى
العبيد جنب الطواشى
جوع كأنه سرب طير هايم فى صحرا
والحرس رافعين سيوفهم للشواشى
هات إيديك واسند معايا
المقام شرّخ وفيه فى الطاقة شمعة
أيوه ببكى واللى نازل ع الستان فى
الضلمة دمعه
ملحها قدام عينيك فى الذكر هايم
قطة نايمة ع السلالم
صوتها تحت الردم بقى حبة رماد
عارف يا رب.

عدسة: شروق السيد

أهلى وجيرانى

سعيد وهبة

مؤمن المحمدى

كنت شاب أهوج أرعن عيل صغير مش فاهم حاجة، وكتبت مقال فيه قدر كبير من الاندفاع، وتقدر تقول الحماقة، ومش بحب خالص أفتكره، إنما المقال دا سبب لى سعادة كبيرة لـ إنه منحنى فرصة التعرف على سعيد وهبة، الأستاذ سعيد وهبة.

سعيد كاتب، بـ يتكلم فى «وعن» كرة القدم، والواقع إنه المساحة دى عندنا بـ عافية شويتين تلاتة أربعة، الكورة بـ طبيعتها نشاط شعبوى يتغذى على المكايدة والتعصب والمناكفة بين ذوى الانتماءات المختلفة، لـ ذلك صعب جدًا تلاقى حد مهتم بيها وعنده مساحة من العقل فضلًا عن الثقافة والفكر.

وإحنا صغيرين كان المثقفين المهتمين بـ الكورة يتكسفوا أساسًا إنهم يقولوا كدا، أو يظهروا هذا الاهتمام أو حتى يتعرف عنهم إنهم أهلاوية أو زملكاوية، وكان كاتب زى نجيب المستكاوى يعتبر فدائى، لـ إنه كان بـ يحاول يوفق دا مع دا، ويطرح نفسه كـ كاتب ومفكر وناقد مهتم بـ نشاط به جوانب إبداعية زى كرة القدم.

مش مهم دلوقتى قد إيه المستكاوى نجح فى دا، مش غرضى دلوقتى الكلام عن المستكاوى ولا تقييم تجربته، إنما الواقع إنه ما وفقش هذا مع ذاك، بل بـ العكس عزز الانفصال بينهم «دون قصد» لـ إنه قدم نفسه، أو خلينا نقول اتقدم، بـ اعتباره استثناء يؤكد القاعدة مش نموذج قابل لـ الاستلهام منه، فـ فضل هو على جنب، يحفظ ولا يقاس عليه، وما حصلش إنه نشأ بعده كُتاب فى الحتة دى، إلا نوادر النوادر، وعلى رأسهم الأستاذ سعيد.

ميزة سعيد وهبة الكبرى إنه حافظ طول الوقت على طبيعته، هو كاتب. شغلته ودوره إنه يتعرض لـ القضايا نقدًا وتحليلًا، كان عنده فرص كبيرة ولا نهائية إنه يبقى فى البرواز، ويدخل مجال الإعلام الرياضى، والأستاذ سعيد راح الأستاذ سعيد جه، الأستاذ سعيد قال، خصوصا إن وزنه فى الوسط مش قليل، وكان صديق مقرب من قيادات الأهلى، خصوصًا الراحل صالح سليم، لكنه فضل بـ إصرار إنه ما يلعبش اللعبة دى.

الراجل قرر يكون «موضوعى» لـ أبعد حد ممكن، وحافظ على إنه ما يقدمه يظل يحمل قيمة ما، وما يكونش بـ يقدم ذاته من خلال كتابته، إنما البطل هو ما يكتب عنه، بـ حيث إنه لا ينتهز الفرص لـ استعراض ذاته وآرائه وعلاقاته وتاريخه ومسيرته، إنما يناقش ما هو بـ صدده، سواء اتفقت مع ما يطرحه أو اختلفت إنما هو بـ يتكلم فى «الموضوع».

لما سعدنى زمانى وقابلته عدة مرات، كنت بـ أتفاجأ من حجم معرفته وتجربته، وأقول لـ نفسى إنه فيه ناس ما عندهاش ربع دا، لكنها ناجحة فى إنها تتقدم كـ أيقونات، وأنا لا ألومهم ولا أقلل من شأنهم، إنما بـ الفعل يبهرنى دايمًا البشر القادرين على عدم الاهتمام، عدم الاهتمام نعمة كبيرة وقيمة أكبر.

ومن الحاجات اللى بـ تخلينى أحمل تقدير كبير لـ سعيد وهبة، إنه مش بـ يضخم الأمور علشان تبان مهمة، ودى لـ الأسف عادة مصرية صميمة، الكلام عن أى حاجة من أى نوع بـ اعتبارها حاسمة ونهائية، ومن الآخر، وهى الفاصلة والفارقة مع إنه التفاصيل فى حد ذاتها، أى تفاصيل، مهمة وفارقة، وطالما إنه فيه حاجة شغلتنى فـ قررت أتصدى لـ عرضها، فـ أنا مش محتاج أعرضها لك بـ حيث يتوقف عليها مصير الأمة، أو يترتب عليها رحيل الاستعمار أو نهضة البلاد والعباد، لأ، الموضوع كذا كذا، وحدوده كذا كذا، وتقديرى له كذا وكذا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

> سعيد وهبة مش بـ يضخم الأمور علشان تبان مهمة ودى لـ الأسف عادة مصرية صميمة

سلامات يا سيما

من أجمل الشخصيات الدرامية التى جسدها العملاق الراحل جميل راتب شخصية «لطفى بيه» رجل الأعمال غريب الأطوار فى مسلسل «رحلة المليون» (1984)، الذى قام ببطولته الفنان محمد صبحى، وفيه اشتهر الإفيه الذى كان يردده جميل راتب وهو يبلغ سكرتيره بقراره: بيع يا صبرى!

لم يعد «بيع يا صبرى» مجرد إفيه كوميدى فى مسلسل درامى، بل نزل من الشاشة إلى الواقع، وتحول إلى شعار وسياسة تتبعها الشركة القابضة للاستثمار فى المجالات الثقافية والسينمائية، إذ كل شىء يخص السينما مطروح للبيع ومعرض للهدم، وهو ما يجعلنا نطالب بتعديل اسمها إلى الشركة القابضة لروح السينما!

أيمن الحكيم

الشركة القابضة لروح السينما

القائمة الكاملة لـ«الأصول» التى ستضيع قريبًا

قبضت الشركة على أصول السينما المصرية التى آلت إليها من شركة مصر للصوت والضوء التابعة لقطاع الأعمال العام، وبالتالى أصبحت الشركة القابضة بحكم ما صدر من قوانين ولوائح هى المالكة والمسئولة عن إدارة تلك الأصول، ويمكنك إذا شئت أن تسميها كنوز السينما، وتشمل:

أولًا: أهم وأكبر وأعرق استديوهات السينما:

❖ بداية من «ستوديو مصر» الذى أسسه طلعت باشا حرب، عملاق الاقتصاد الوطنى، وافتتحه فى ١٢ أكتوبر ١٩٣٥ على مساحة ١٧ فدانًا، وبأحدث التجهيزات العلمية والفنية، وفى بلاتوهاته صُورت باكورة أفلام السينما المصرية ومنه بدأت مسيرتها.

❖ «ستوديو الأهرام» الذى تأسس عام ١٩٤٤ على مساحة ٧ أفدنة.

❖ «ستوديو جلال» الذى أنشئ فى العام نفسه «١٩٤٤» على مساحة ٥ أفدنة.

❖ «ستوديو نحاس» الذى أنشأه الأخوان نحاس اللبنانيان بمشاركة من يوسف بك وهبى، على مساحة ١٢ ألف متر عام ١٩٤٨، وأصبح جزءًا من مدينة السينما التى تأسست عام ١٩٦٤ بتمويل من دولة ألمانيا الاتحادية على مساحة ٣٠ فدانًا.

وهى الاستديوهات التاريخية التى آلت ملكيتها إلى الدولة، وتتابع على ملكيتها وإدارتها مؤسسة السينما وصولًا إلى الشركة القابضة ومرورًا بشركة مصر للصوت والضوء.

ثانيًا: أهم وأفخم دور العرض السينمائية «التاريخية» بمعمارها الفاخر ومساحاتها الواسعة وأماكنها المميزة.. خاصة تلك التى تقع فى قلب القاهرة الخديوية «مترو، ريفولى، ديانا» مثلًا، وتمتد إلى أهم المناطق فى محافظات مصر، وكان عددها يزيد على الأربعين، والمتبقى منها حوالى ٢٤ دار عرض تبلغ مساحة بعضها ٤٥٠٠ متر، مثل سينما رادوبيس الصيفية بالهرم.

ثالثًا: الأصول الفيلمية: وأهمها الأفلام التى أنتجتها مؤسسة السينما خلال فترة تداخل الدولة فى الإنتاج السينمائى «منذ إنشاء المؤسسة العامة للسينما بالقرار الجمهورى رقم ٤٨ لسنة ١٩٦٣ وحتى نهاية التجربة عام ١٩٧١»، وتبلغ نحو ١٥٧ فيلمًا، يضاف إليها ما تبقى من أفلام «ستوديو مصر»، وهى فى المجمل تعتبر من كلاسيكيات السينما المصرية وفخر إنتاجها «بعض المصادر تشير إلى أنها حوالى ٣٦٥ فيلمًا».

يضاف إلى ذلك معامل وورش واستديوهات للمونتاج والطبع والتحميض، أى أننا أمام أصول مهمة يمكن أن تقوم عليها صناعة سينمائية عظيمة إذا ما وضعنا فى الحسبان ما نمتلكه من أساتذة وأسطوات ونجوم وخبرات متراكمة وتاريخ مجيد يزيد على المائة عام فى تلك الصناعة التى بدأناها وأسسناها فى الشرق كله.

لكن يبدو أنه لا «التاريخ» ولا «الصناعة» يهمان القائمين على أمرها، بل التوجه- للأسف- هو التخلص من تلك التركة «الثقيلة»!

من جديد أعيد التأكيد على أننى لا أميل كثيرًا إلى فكرة المؤامرة، ولكنى لا أستطيع أن أمنع شبحها وأمامى تلك الحقائق المروعة:

- كل استديوهات السينما المصرية «التاريخية» تعرضت للحريق، وآخرها ذلك الحريق الذى وقع فى ١٦ مارس الماضى ودمر «ستوديو الأهرام»، وأكلت النيران تاريخًا لا يقدر بثمن..

هل حرائق الاستديوهات وتخريب دور العرض «التاريخية» هو تمهيد لبيعها وتحويلها إلى مولات؟

ومثله ضاع تحت الركام فى استديوهات «نحاس وجلال ومصر»، فهل هذه مصادفة؟

- كل دور العرض «التاريخية» تتعرض لإهمال يبدو مقصودًا ومتعمدًا، فلا يمكن لمن يحمل ذرة من ضمير أن يرى ما يحدث من تخريب لتلك الدور العريقة ولا ينفطر قلبه ويحس بالأسى على سينمات فى أهم أماكن القاهرة الحيوية وقد تحولت إلى خرائب ينعق فيها البوم.

ويمكنك أن تعود إلى ما كتبه صديقنا المخرج السينمائى المعروف سعد هنداوى، على صفحته، ينعى فيه اثنتين من تلك الدور تحت صور حديثة التقطها لهما بكاميرته:

«بمناسبة فتح ملف دور العرض، ده نموذج لإتنين من أهم وأعرق سينمات وسط البلد (ميامى ومترو) صورتهم فى ديسمبر ٢٠٢٣.. اللى يقرب من الصور هايكتشف الحالة المزرية اللى واصلة له السينمات.. فما بالك من الداخل!».

وصور واجهتى «ميامى» و«مترو» لا تنطقان فقط.. بل تكاد تسمع أنينهما من البكاء المر عما آل إليه حالهما.

الحرائق المتتالية للاستديوهات والإهمال المزرى لدور العرض لا يمكن أن يكونا مصادفة إذا ما عرفنا أنها معروضة للبيع ومعرضة للهدم والإزالة، ومُلاكها الجدد سيقيمون على أنقاضها محلات ومولات!

سينما «ديانا» مثلًا معروضة للبيع مقابل ١١ مليون جنيه، وعرّاب الصفقة واحد من المخرجين السينمائيين المرموقين، وسعر البيع يثير الريبة، فمساحة الدور تزيد على ١٠٠٠ متر مربع، وسعر متر الأرض فى هذا المكان بعيدًا عن التاريخ والقيمة يمكن أن يرفع المبلغ إلى ٧٠ مليونًا على الأقل!

وتمتد الريبة إلى سبب إغلاق تلك الدور العريقة، سينما «الشرق» مثلًا، التى تقع فى قلب ميدان السيدة زينب بكل حيوية المنطقة مغلقة وتنعق فيها الغربان.

وحتى سنوات قليلة مضت كان أغلب تلك السينمات يحقق مكسبًا ماديًا رغم الإهمال المتعمد، فسينما «ديانا» المعروضة للبيع تحقق مكسبًا- رغم التخريب- يصل إلى ٤٠٠ ألف جنيه، وأكد آخر تقرير للمتابعة نصًا: السينما تعتبر مبنى أثريًا نظرًا لتاريخها العريق، فهى عبارة عن صرح معمارى مميز بوسط البلد، حيث إنه بعد التعديلات وطبقًا للمعايير الجديدة يكون إيراد السينما فى العام ٥ ملايين جنيه.

سينما «ميامى» مثلًا كانت حتى عام ٢٠٢٢ تحقق مكسبًا يصل إلى مليون جنيه سنويًا، ويمكن مع خطة للتطوير تقفز إلى ٢٥ مليونًا، والدراسات التى أجريت على تلك الدور كلها تؤكد أنها قابلة للنجاح والرواج ومضاعفة إيراداتها أضعافًا مضاعفة مع بعض التطوير والصيانة، لكنها نصائح ضُرب بها عرض الحوائط.

لا تطوير ولا إصلاح، بل البيع والهدم، وهو ليس مصير دور العرض التاريخية فقط، بل الدور على الاستديوهات التى يزيد عمرها على أعمار أغلب دول المنطقة!

المؤشرات والقرائن تؤكد وتثبت أنها فى طريقها إلى الزوال والبيع..

لما حدث الحريق الأول باستديوهات مدينة السينما «٢٠١٦» تبرع المنتج الراحل محمد حسن رمزى بتكاليف الإصلاح والترميم بطلب من وزيرة الثقافة وقتها، إيناس عبدالدايم، وكان من المفترض أن تشدد الإدارة على إجراءات الصيانة والحماية المدنية، لكن تحقيقات النيابة فى حريق «ستوديو الأهرام» الأخير أثبتت أن آخر صيانة لكهرباء الاستديو كانت عام ٢٠١٨، وأن أقساط شركة التأمين لا تُسدد منذ سنوات، وبالتالى ليس من حق الاستديو مطالبة الشركة بمبالغ التأمين المستحقة.

إهمال فادح وفاضح، ولا تستطيع أن تمنع نفسك من استعادة فكرة المؤامرة، وأن ما يجرى هو خطة ممنهجة لبيع أصول السينما المصرية والتخلص منها.

وهو أمر يستوجب تدخلًا عاجلًا يسحب صلاحية بيع تلك الأصول التى هى ملك للدولة والشعب من الشركة القابضة لروح السينما!

وفى الوقت نفسه فإن هذا الاهتمام المتزايد بملف «اغتيال السينما المصرية» منذ أن فتحناه على صفحات «حرف» يجعلنا نتوجه بدعوة إلى صديقنا الصحفى والكاتب الكبير د. محمد الباز بأن يتبنى دعوة لمؤتمر موسّع للسينمائيين، يطرحون فيه كل مشاكل السينما وأزماتها على مائدة الحوار، يتناقشون بصراحة وشفافية، عسى أن نصل إلى حلول حقيقية للإنقاذ.. بدلًا من سياسة «بيع يا صبرى»!

سينما «ديانا» مطروحة للبيع بـ11 مليونًا مع أن سعر الأرض وحده يزيد على 70 مليونًا!

نطالب «حرف» بتبنى مؤتمر لإيجاد حلول حقيقية لإنقاذ السينما بدلًا من سياسة «بيع يا صبرى»

سينما ديانا
****

العنوان : شارع الأهلى الأربعة 1000 م

	الوصف	العملية التقديرى
المبنى المعمارى	يحتوى المبنى على دار عرض لشتوى والمبنى بحالة جيدة	
أجهزة الصوت	جيدة	
أجهزة الصورة	غير واضحة لضعف ماكينات العرض الماكينة (ACP) مملوكة لشركة سمارت وليست مملوكة للشركة وماكينة العرض معطلة وفقا لتقدير شركة سمارت	من 30000 الى 35000 جنيه .
الشاشة	بحالة جيدة	
المقاعد 1420	صالة 900 مقعد بالكون 470 مقعد بلوار 50 مقعد – 10 بلوار × 5 كراسي	
العلة العامة للمبنى + الحمامات	دورات المياه تحتاج إلى صيانة تشاملة وتغير قواعد وتغير الحمامات	30000 جنيه
التكييف	يعمل بنسبة 30% ويحتاج إلى إصلاح وصيانة جميع الوحدات	1500000 جنيه
الدفاع المدنى	تحتاج إلى شركة متخصصة فى هذا المجال لعمل الصيانة لتسيتم الأطفاء ومراجعة جميع خطوط الحريق الموجودة بالسينما	50000 جنيه

وصف تفصيلى لعدد النموذجى والعدد الفعلى وما يجب اضافته على العاملين بسينما ديانا من اداريين وموظفين بمختلف التخصص والوصف والمدير المسئول .

الوظيفة	العدد النموذجى	العدد الفعلى	العدد الذى يجب اضافته
مدير	1	1	–
وكيل	2	–	2
صرافة	3	–	3
مرشد رواد	4	2	2
فنى تكييف	2	2	–
فنى مشغل عرض	2	1	1
عامل نظافة	3	3	–
كراسى	1	–	1
سباك	1	–	1
المجموع	**19**	**9**	**10**

الإيرادات

السنة	المبلغ
2019	741382 جنيه
2021	49364 جنيه
2022	367942 جنيه

- فى حالة عرض افلام قوية ومتميزة وعمل الصيانات اللازمة لدور العرض وتوفير العملة المطلوبة من المتوقع زيادة الإيرادات كما يلى:-
1- زيادة عدد الرواد بحوالى 150% من النسبة الحالية .
2- كما يتم زيادة سعر التذكرة بحوالى 50% على سعر التذكرة الحالى اى ان سعر التذكرة يكون 60 جنيها .

مع العلم :-
- ان السينما تعتبر مبنى اثرى نظرا لتاريخها العريق فهى عبارة عن صرح معمارى قديم و يعتبر فى موقع مميز بوسط البلد .
- و سعر التذكرة 35 جنيه حاليا .
- حيث ان بعد التعديلات و طبقا للمعايير الجديدة يكون ايراد السينما الى العام حوالى 900000 جنيها .
- السينما ملك الشركة .

سينما ميامى
****

العنوان : 18 شارع طلعت حرب وسط البلد 2190 م

	الوصف	العملية التقديرى
المبنى المعمارى	يحتاج توصف عام إلى ترميمات مع طلاء جديد ويتطلب إحضار شركة متخصصة على وقوف حالة المبنى المعمارى	
أجهزة الصوت	جيدة	
أجهزة الصورة	غير واضحة لضعف ماكينات العرض الماكينة (ACP) مملوكة لشركة سمارت وليست مملوكة للشركة	
الشاشة	تحتاج إلى تغير كامل وبالإستعانة الشورى مع بعض المختصين فى هذا المجال لم افدنا بأن المبلغ المطلوب للتغير الكامل تحت المغير والزيادة مركبة مع بعد لابت	40000 جنيه تقريباً
المقاعد 1260	800 مقعد صالة 400 مقعد بالكون 60 مقعد بلوار – 12 بلوار × 5 كراسى كراسى الشاورز تحتاج إلى تبعيد وعدد 200 كرسى صالة وبالكون تحتاج إلى تثبيت وأحذاء	10000 ج
العلة العامة للمبنى + الحمامات	تغيير الأدوات الصحية بالحمامات وتغير العلاقات وكذلك تغير بلاط الأرضيات	20000 ج
التكييف	تالف تماما طبقا لتقرير مدير عام الصيانة بالشركة ويحتاج إلى تغير كامل	3500000 ج
الدفاع المدنى	تحتاج إلى شركة متخصصة فى هذا المجال لعمل الصيانة لتسيتم الأطفاء ومراجعة جميع خطوط الحريق الموجودة بالسينما	650000 ج

وصف تفصيلى لعدد النموذجى والعدد الفعلى وما يجب اضافته على العاملين بسينما ميامى من اداريين وموظفين بمختلف التخصص والوصف والمدير المسئول .

الوظيفة	العدد النموذجى	العدد الفعلى	العدد الذى يجب اضافته
مدير	2	2	–
وكيل	2	1	1
صرافة	4	1	3
مرشد رواد	8	4	4
فنى تكييف	3	2	1
فنى مشغل عرض	3	2	1
عامل نظافة	2	–	–
فنى نجار	1	1	–
سباك	1	1	–
المجموع	**26**	**16**	**10**

الإيرادات

السنة	المبلغ
2019	3193285 ج
2021	908435 ج
2022	811572 ج

- فى حالة عرض افلام قوية ومتميزة وعمل الصيانات اللازمة لدور العرض وتوفير العملة المطلوبة من المتوقع زيادة الإيرادات كما يلى:-
1- زيادة عدد الرواد بحوالى 150% من النسبة الحالية .
2- كما يتم زيادة سعر التذكرة بحوالى 50% على سعر التذكرة الحالى اى ان سعر التذكرة يكون 70 جنيها .

مع العلم :-
- انه تقرر الوجود السينما فى موقع متميز بشارع طلعت حرب ممكن الاستفادة منها بعملية تقسيمها لعدد من القاعات و ذلك تمشيا مع ظروف السوق .
- و سعر التذكرة 40 جنيه حاليا .
- حيث ان بعد التعديلات و طبقا للمعايير الجديدة يكون ايراد السينما الى العام حوالى 2500000 جنيها .
- السينما ملك الشركة .

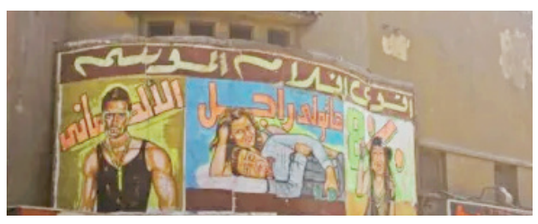

سلامات يا سيما

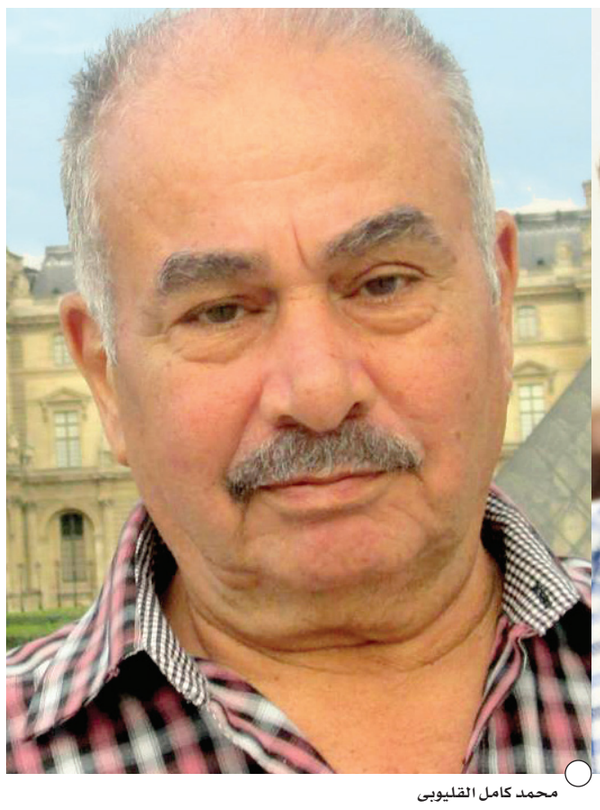
محمد كامل القليوبى

فاروق حسنى

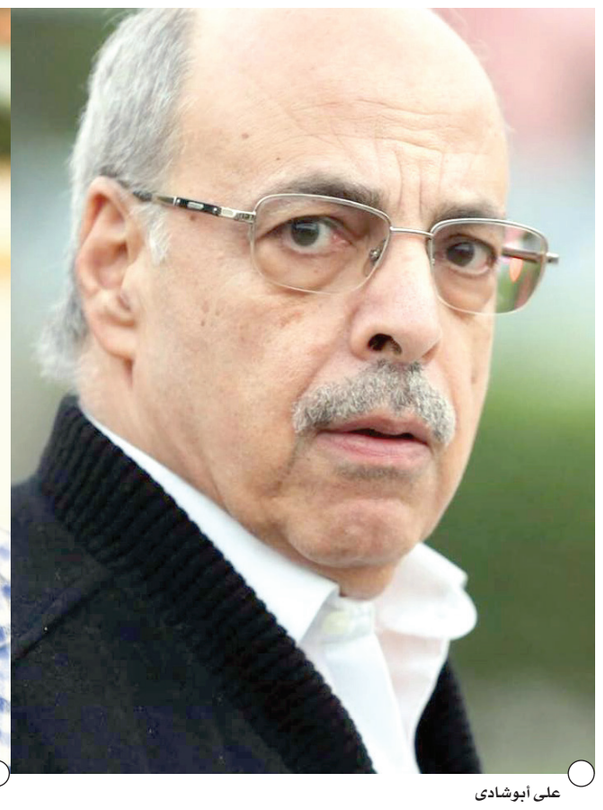
على أبوشادى

د. ثناء هاشم تكتب:

أسئلة مشروعة فى أزمة السينما العبثية

بعد مداخلة مهمة السبت الفائت، ٤ مايو، للكاتب المحترم أيمن الحكيم مع المذيع والصحفى اللامع خيرى رمضان فى برنامجه اليومى الجاد «مع خيرى» ناقش فيها ما كتبه الزميل أيمن فى مقاله الذى نشر فى جريدة «حرف» التى فتحت ملف السينما على اتساعه بلا حسابات أو وجل أعلن الأستاذ خيرى عن اتصال الدكتور خالد عبدالجليل به بعد يوم كامل من محاولات الوصول له، وأنه سيكون ضيفه السبت القادم، وأنه يقر بأن الأفلام وعددها ما يقرب من ثلاثة آلاف فيلم بيعت خلال الحكومات السابقة، وأنه لا دخل لها فيما مضى، وأن ما تبقى لدينا ٢١٨ فيلمًا ليست ذات قيمة.

ما معنى هذا الكلام، جميعنا يعلم معركة النيجاتيف الشرسة التى خاضها الدكتور القليوبى والتى أدت لإقالته من منصبه كرئيس للمركز القومى للسينما بشكل انتقامى فى عهد وزير الثقافة الأسبق فاروق حسنى، وأعلن القليوبى عن أنه سيقاتل لعمل أرشيف سينمائى قومى لآخر رمق، ولعل خطورة الأرشيف بجانب أهميته التوثيقية تكمن فى أنه سيكشف حجم المصيبة وعدد الأفلام الهائل الذى تم بيعه وسرقته، ومنها أفلام نادرة لم نشاهدها قط، ولا تقدر بثمن، وسيفتح أبواب الجحيم على كل من تواطأ فى هذه الجريمة، أو تلك الخيانة العظمى، سواء من نعرفهم بالاسم أو من لا نعرفهم من الأيدى السوداء المستترة، ليعود الناقد على أبوشادى لموقعه كرئيس للمركز فى جولة جديدة لرئاسته بعد إقالة القليوبى، محاولًا لملمة الفضيحة الكبرى، ويجهز ساعده الأيمن خالد عبدالجليل ليحل محله، الذى توسم فيه أشياء تجاوزها هذا الساعد بمسافات ضوئية وفاق كل خيال، ومنذ تولى السيد خالد عبدالجليل رئاسة المركز عام ٢٠٠٩ ظلت ملفات الأرشيف والسينماتيك المصرى ومشروع سجل التراث السينمائى، هى الملفات المعلقة التى بقى وجوده مرهونًا بإتمامها منذ جلوسه على كرسى رئاسة المركز، وقبل تمدده الذى اتخذ مع الوقت صفة المسئول الخالد الذى يضع ملفات السينما فى جيب الساعة، لا أحد يعلم مساراتها، لا أحد يدرك أولها من أوسطها من آخرها، ويأتى وزير للثقافة ويمضى آخر، ولا شىء يحدث على الإطلاق، أو هكذا ظننا، بيد أن الحقيقة أن هناك الكثير والكثير قد حدث، إذ إننا اكتشفنا فى غفلة ثقيلة من الزمن أن هناك نخرًا فى كل أساس بقطاع السينما، جدرانها تتصدع أمام أعيننا ويضيع صراخنا وكتاباتنا بلا جدوى تحت وطأة الاستهداف والتشويه الشخصى لكل من تسول له نفسه أن يكتب كلمة عن حال السينما والمسئول عن كل هذا، أو طى البعض تحت أجنحة المصالح، أو توريط البعض بقصد أو بدون قصد فى هذه المخططات فيجبر على الصمت، حتى وصلنا لمرحلة فساد وإفساد كل شىء.

وللحق فإن مقالًا واحدًا لن يكفى لحصر ما جرى وما كان وما زال يجرى، ولكننى سأطرح بعض العناوين التى يتحتم الإجابة عنها الآن قبل الغد:

– لماذا لم يتم عبر كل هذه السنوات التى قضاها هذا المسئول التواصل الحثيث مع من اشتروا أفلامنا «لو سلمنا بالأمر» لإيداع نسخ من هذه الأفلام لدينا والعمل بشكل متواز على إنشاء السينماتيك المصرى؟

– ماذا عن الجرد الذى حدث عام ١٩٩٧ للأفلام والنيجاتيفات التى تبقت فى حوزتنا والذى كشف عن كارثة كبرى، وهو ما حاول القليوبى تداركه واستصدار قانون للحفاظ على الأفلام وبناء أرشيف سينمائى، وهو ما لم يحدث، ثم آخر جرد حدث ٢٠١٩ إبان وجود الدكتورة إيناس عبدالدايم وزيرة للثقافة والذى يدعى مستشارها السينمائى أنه أسفر عن وجود ٢٠٧ أفلام، وفى رواية أخرى له ٢١٨ فيلمًا ليس لها قيمة كبيرة؟

–كيف خرجت وبأى قانون مقتنيات المخرج محمد كريم لحوزة شركة السينما التى يشرف عليها خالد عبدالجليل، والتى اشتراها المركز القومى وقت رئاسة الدكتور القليوبى والعهد المتحفية للمركز والأفلام التى أنتجها المركز التسجيلية والروائية القصيرة لكبار مخرجى مصر؟

– أين فيلم المومياء الذى رممته مؤسسة اسكورسيزى هدية لمصر وتحية واعترافًا بقيمة الفيلم ومخرجه الكبير عالميًا، المعلومات تقول إنه خارج مصر، لماذا وكيف ومن الذى أخرجه؟

– أين مشروع متحف السينما الذى مثّل حجة لكى يتم جمع مقتنيات كبار سينمائيى مصر، وهو ما تم بالفعل مع أسماء كبيرة كورثة الفنانة والمنتجة ماجدة الصباحى ومريم فخر الدين وعائلة ذوالفقار «عز الدين ومحمود وصلاح ذوالفقار» وأشرف وجيه رياض وبزيل بهنا مع حفظ الألقاب بالطبع، وهى مقتنيات تشمل أفلامًا ووثائق وأفيشات ومذكرات وكاميرات ومعدات.. إلخ، جميعها تمثل تاريخًا وتراثًا لا يقدر بثمن؟

– ما هى حقيقة الاتفاق الذى حدث مع بزيل بهنا، والمفاوضات التى تمت فى وجود هذا المسئول للاستحواذ على مقتنيات «بهنا فيلم»، وتوريط وزارة الثقافة فى فتح شقتين كانتا فى حوزة بنك ناصر، وإرجاعهما للوريث الوحيد بزيل، وعمل اتفاق ضمنى معه بعيدًا عن إشراف وزارة الثقافة أو أعين الدولة، ولا أحد يعلم مصير هذه المقتنيات النادرة التى خرجت من مصر بالفعل، وبالمناسبة بزيل بهنا توفى من ساعات قبل كتابة هذا المقال؟

– ما مصير مشروع سجل التراث السينمائى وارتباطه بملف قاعة ثروت عكاشة التى أغلقت بعد ترميمها من أجل هذا المشروع، وإنفاق مبالغ طائلة على مدى عدة سنوات من ميزانية المركز القومى للسينما ووزارة الثقافة، وتكليف السيد سامى رافع بهذا المشروع الذى بدوره لم يتم فيه شىء، ومنذ عامين تقريبًا مجموعة من شباب السينمائيين الواعد قرروا بمبادرة شخصية منهم جمع أرشيف «الأفلام القصيرة» ووجهتهم للمركز القومى للسينما والذى أغلق الباب فى وجوههم ولم يمدهم بأى عون ولا تقبل تطوعهم بأى شكل؟

السيد المسئول تارة يعلن عن أننا نملك أفلامنا ولدينا عدد ضخم منها، وتارة يعلن عن أننا لا نملك سوى مائتين وبضعة أفلام لا قيمة لها، حسب المزاج والظرف، وما معنى أفلام ليست بالقيمة، وعلى أى أساس وصفها بأنها غير ذى قيمة، وما معنى هذا الوصف وما يستتبعه من كوارث، وتارة يحكى قصة محاولة الحصول على قصر الأمير طوسون من قبل وزارة الثقافة ليكون مقرًا للأرشيف السينمائى المصرى، ثم بعد ٢٠١١ وانفصال وزارة الآثار عن الثقافة، رد وزير الآثار وقتها «روح خذ القصر من الأمير طوسون»؟

– ما معنى هذا العبث، وهل توثيق تراثنا السينمائى يتحمل هذا التهريج من قبل مسئول يتقلد كل المناصب ذات الصلة بصناعة ضخمة كالسينما؟

وإذا كنا لا نملك سوى هذا العدد الهزيل الذى بلا قيمة من الأفلام، هل ظل طوال كل هذه السنوات رئيسًا للمركز القومى للسينما، ثم مهيمنًا كمشرف عليه فى فترات لاحقة ترأس فيها عدد من المسئولين رئاسة المركز، ولم يتمكنوا من تحريك حجر نحو مشروع الأرشيف والسينماتيك وسجل التراث السينمائى والمتحف السينمائى، بجانب منصبه الغامض كمستشار وزراء الثقافة الذين تجاوز عددهم أصابع اليدين العشر، فضلًا عن رئاسته جهاز الرقابة على المصنفات الفنية ورئيسًا للجنة العليا للمهرجانات «والذى سيكون لهم حديث مفصل آخر أيضًا» هل كل هذه المواقع البالغة الخطورة والخالد الوجود فيها، والمرتبات التى يتقاضاها من الدولة، من أجل الـ ٢١٨ فيلمًا، ومن أجل أن يفسر الماء بعد الجهد بالماء، بأن أفلامنا بيعت لقنوات خليجية؟

وما الذى حدث لمشروع دعم الأفلام الذى انطلق فى عام ٢٠١٤ عندما انعقدت لجنة برئاسة السفيرة فايزة أبوالنجا، مستشار رئيس الجمهورية آنذاك لدعم السينما الفنية من قبل الدولة وتم تخصيص عشرين مليونًا كلبنة للمساهمة فى دعم الأفلام غير التجارية، وأعطت الأولية للشباب، أسوة ببلدان كثيرة أوروبية وعربية، وأوكل للمركز القومى للسينما وقتها هذا الملف باعتباره الجهة القومية الوحيدة التى تنتج أفلامًا، والذى كان يرأسه حينها المخرج أحمد عواض بعد إزاحة خالد عبدالجليل لفترة وترضيته بمنصب رئيس قطاع الإنتاج الثقافى، والذى استطاع بحكم وجوده كرئيس للقطاع أن يطيح بالمشروع، بل وبرئيس المركز شخصيًا الدكتور عواض، لينطفئ هذا الضوء للأبد؟

نافلة القول، الجميع يعلم أنه لا أفق ولا إصلاح للسينما فى وجود هذا المسئول وبطانة المؤتلفة مصالحهم التى تحيط به، والأمر لم يعد يحتمل مجرد السجال على شاشات التليفزيون، ولا الاكتفاء بالكتابة عبر صفحات الجرائد، الأمر بات أمنًا قوميًا، بات رغبة محمومة فى الكشف عن تفريط لئيم فى تاريخ سينما عظيمة بدأت مع العالم ومن أقدم السينمات القومية فى الدنيا، ولعل ملف أصول السينما المادية، ودور العرض وعموم الاستديوهات التى تدم تدميرها وبيعها ولا أحد يعلم مصيرها الغامض وآخرها واقعة حريق استديو الأهرام نكأت الجراح الملتهبة أصلًا، والتى ألهبها تعليق وزيرة الثقافة البارد الذى زاد الطين بلة، وهو أننا كنا ننوى نقل الاستديو أصلًا لوجوده داخل منطقة سكنية، فضلًا عن أننا لم تصلنا معلومة واضحة عن ملابسات الحادث الذى أودى بحارة لها تاريخ وأثر فى وجدان كل مصرى.

وأخيرا وليس آخرًا، نحن لا نسعى سوى للصالح العام وصالح سينمانا المصرية العريقة، وصالح أجيال قادمة تحلم بأن تجد مكانًا آمنًا لها داخل مصنع الأحلام، ولن تغفر ولن تسامح تفريطنا أو هواننا على أنفسنا، ومن حقها أن تفخر بسينما عظيمة تنتمى إليها.

ومن ثم أطالب بأن توجه وزيرة الثقافة بفتح أبواب تلك الكيانات أمام الصحافة والإعلام، ويرينا السيد المسئول عن شركة السينما وما يتبعها على أرض الواقع ما نسأل عنه جميعًا، الأرشيف، المتحف، سجل التراث وتجهيزاته، أرشيف المركز القومى للسينما، ثلاجات الأفلام، وما بداخل العلب، السينماتيك المصرى.. إلخ.

وأضع أيضًا بين يدى الدولة المصرية ما يدافع به عبدالجليل دومًا عن وجوده السرمدى حتى بعد بلوغه سن التقاعد وتمسكه الغريب بمكانه كأنه ضد الزمن والمنطق، وما أوصلنا إليه على مدى ما يقرب من عشرين عامًا، بأنه يعمل ويعمل على طريقة الفنان الكبير عبدالمنعم مدبولى «وبينما كان يفكر ظل يفكر ويفكر»، فيما المسئول عن كل هذا الدمار والانهيار هو تقاعس مؤسسات الدولة المعنية، فى الوقت الذى تؤكد خطط النهوض التى يطلقها رئيس الجمهورية ويدعمها بنفسه ويدعم الكيانات المؤسسية التى توكل بها بشكل نفيًا قاطعًا لكل مزاعمه، وتؤكد على أنه أصل الأزمة طالما ظل يمسك عنق صناعة السينما بكلتا يديه.

> اكتشفنا فى غفلة ثقيلة من الزمن أن هناك نخرًا فى كل أساس بقطاع السينما جدرانها تتصدع أمام أعيننا

المخرج محمد كريم

عز الدين ذو الفقار

صلاح الدين ذو الفقار

فيلم «المومياء»

> الجميع يعلم أنه لا أفق ولا إصلاح للسينما فى وجود هذا المسئول وبطانة المؤتلفة مصالحهم التى تحيط به

> السيد المسئول تارة يعلن عن أننا نملك أفلامنا ولدينا عدد ضخم منها وتارة يعلن عن أننا لا نملك سوى مائتين وبضعة أفلام لا قيمة لها

سلامات يا سيما

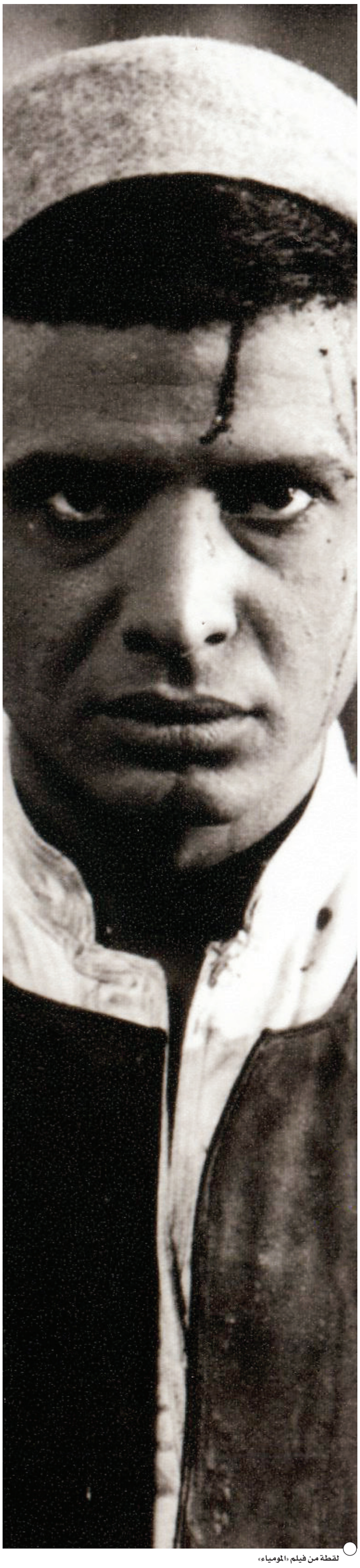

لقطة من فيلم «المومياء»

مجدى أحمد على

يكتب:

هذا «الخالد» فى وزارة الثقافة

سينما فاتن حمامة قبل أن تتحول إلى «بُرج»

البرج السكنى

المركز القومى للسينما الذى يتولى حفظ الأفلام تحولت فيه الأفلام إلى خردة

مسئولو شركة إدارة أصول السينما يحصلون على مكافآت ومرتبات باهظة دون أى إنجاز

لدىّ اعتراف أبدأ به.. هو أن السبب المباشر لكتابة مقالى هذا سبب شخصى!! إذا جاز القول بأن الامتناع عن إعطائى تصريحًا رقابيًا بتصوير مسلسل «مداح القمر» لمدة تزيد على ١٠ سنوات وادعاء فقد تصريح الورثة الذى سلمته له بعد أن كلفنى الكثير، بل ادعاء فقد ٣٠ حلقة كاملة من المسلسل، والاستمرار فى المماطلة حتى تتمكن جهة أخرى من التقدم له بعمل مسلسل عن نفس الشخص، والتصريح لهم بذلك، وهى جهة كان يعمل بها الدكتور مستشارًا وربما لم تنقطع علاقته بهم أبدًا حتى الآن.. إذا جاز اعتبار كل هذا سببًا شخصيًا فأنا أعترف به وذلك بعد أن أعطيت لكثير من الأصدقاء الذين لا يزالون حسنى الظن به- الفرصة لإيقافه عن غيه والتصرف دون أى مسئولية والظهور دائمًا بمظهر الذى لا يهزه ريح استنادًا إلى ادعاءات بعضها تلميح وبعضها تصريح بأنه «مسنود» من أجهزة أمنية حينًا ومن أجهزة قضائية حينًا آخر وإلا ما معنى وجوده غير كل هذه الوزارات، وازدياد نفوذه رغم غياب أى إنجاز له على أى مستوى لعقود، بل إن الجميع بات يدرك أن وجوده فى أى موقع أو منصب معناه القضاء التام على أى أفق للتغيير أو الإصلاح!!

سوف نبدأ هذه السلسلة برءوس موضوعات حيث إن الوثائق التى انهالت علىَّ بمجرد إبداء نيتى لفتح الملف لا تكفيها آلاف الصفحات، فالرجل الذى يتولى كل هذه المناصب نجح تمامًا فى تحريك كل الغيورين على وزارة كانوا يرونها أمل المثقفين فى المساهمة فى معركة مصر الكبرى لاستعادة دورها الثقافى والتنويرى فى المنطقة والعالم، بعد أن كدنا نصبح فى مؤخرة الأمم على المستوى الثقافى.

وطبعًا لا أهدف- ولا أظن أحدًا يصدق- إلى تحميل رجلنا كامل المسئولية عن انهيار دور مصر الثقافى والسينمائى على رأسها.. فالفساد كبير ومتوغل، والوزراء يتم اختيارهم دون أى خلفية ثقافية، إلا ما قدر، والمناخ العام يتم تغذيته بأفكار تنظر إلى السينمائيين والمثقفين عامة على أنهم «حمل زائد» على الدولة والمجتمع، وأن «دمهم تقيل» و«كلامهم كتير».. وأن «الأولويات» يجب أن تضعهم فى نهاية صفوف الاهتمام والدعم.. ولكن التجربة أثبتت أيضًا- للإنصاف- أن وجود الرجل المناسب فى الوقت والمكان المناسبين قادر على إحداث تغيير وعلى إلقاء صخرة فى بركة الثقافة الراكدة.. وها كم رءوس موضوعات لا أظن أن الدولة تشجع عليها مع التركيز على السينما:

١- ضياع تراث السينما المصرية بالكامل تقريبًا فى غياب فهم أو تعمد للفرق بين البيع وبين حقوق الملكية الفكرية، واعتبار هذه الثروة المعرفية إرثًا للوطن يجب استعادته وعدم التفريط فيه تحت أى ظرف.. وقد سبق وتقدمنا باقتراحات محددة لإنقاذ هذا التراث.. دون أى استجابة من الوزارة ولا طبعًا من مستشارها السينمائى.

٢- المركز القومى للسينما الذى يتولى حفظ الأفلام تحولت فيه الأفلام إلى خردة وعلب فارغة لأفلام مفقودة، وغياب كامل للسجلات من أى نوع «لدينا شرائط مصورة لعمليات جرد مفزعة».

٣- على سبيل المثال لا أعرف شيئًا عن عملية ترميم «المومياء» فيلم شادى عبدالسلام العظيم الذى صنعته مؤسسة سكورسيزى، فالأستاذ يخفى النسخة فى مكان يعرفه هو فقط ويخفى المستندات بكل المشتملات التى جاءت من المؤسسة المذكورة.

٤- البدعة التى بدأها السيد الرقيب بتحصيل أموال دون سند قانونى من كل من يريد الحصول على تصريح رقابى، سواء فى مرحلة السيناريو أو الفيلم النهائى وفرض «الإتاوة» ذاتها على تصريح الأغانى والرقصات وحتى أفلام المهرجانات ذات الطابع الثقافى وغير الهادفة للربح.

٥- الشركة التى تشكلت أخيرًا- وبعد سنوات من الخسارة المهولة- لإدارة أصول السينما المصرية من دور عرض واستديوهات ومعامل.. إلخ والتى يشغل رجلنا فيها وظيفة العضو المنتدب والتى يحصل كل أعضاء مجلس إدارتها منذ سنوات على مكافآت ومرتبات باهظة دون أى إنجاز أو خطة يتم عرضها على الرأى العام، أو حتى داخل أروقة الوزارة والتى بدأت بواكير إنجازاتها بطرح دور عرض تاريخية للبيع بأسعار مريبة بدعوى أنها سوف تكون «مولات» ضخمة بداخلها دور عرض سينمائى، هو الأمر الذى لم يحدث فى حالة سينما فاتن حمامة التى لا ضمان فى هذا البيع الذى يتم فى سرية تامة بعد تغيير فى قانون الشركة يتيح البيع دون رقابة ودون محاذير ودون تقدير لتاريخية هذه الأماكن وقيمتها.

وكثيرًا ما قلنا إن حل أزمة دور العرض يفترض عودة «سينما الحى» التى تغرى جمهور السينما العادى من الطبقة الوسطى بالعودة إلى اعتبار السينما طقسًا ثقافيًا معتادًا، وليس «المول» الذى يعتبر السينما قضاءً لوقت ضمن عملية شراء استهلاكية.. فسينما المول ليست هى الحل حتى لو افترضنا أن المشترى سوف يلتزم بذلك دون أن يقدم «رسمًا معماريًا» لمنشآته يتم اعتمادها كشرط من شروط البيع، وهذا ما لم يتم الإشارة إليه، كما أن وسائل الاستثمار فى كل هذه الأصول ليست بالبيع والخلاص منها، وكان بتطويرها ضمن خطة شاملة للنهوض بالصناعة لتواكب تطورات العصر.. وهو الأمر الذى أثق تمامًا أن السينمائيين المصريين لديهم عشرات الأفكار لذلك دون أن يسمعهم أحد.

٦- سنوات ونحن نسمع عن حقوق الملكية الفكرية المنهوبة من كل فنانى مصر والكفيلة بأن ترفع عن الدولة أعباء رعاية الفنانين العاطلين عن العمل، وكبار السن والورثة بشكل يكفل لهم حياة كريمة.. نسمع عن جهود، ولكن لا نتيجة على الإطلاق إلا عبر جمعية صغيرة لا تدعمها الوزارة وتحاول منفردة رغم إنجازها الرائع.

٧- السيد الرقيب يتعنت بشدة لمنع تصاريح التصوير للسيناريوهات، ويلجأ للمماطلة «مثل حالة الزميلة هالة خليل» وألغى عمليًا اللجنة العليا التى كانت تحسم هذه المسألة، وأصبح دوره عرض الأعمال على أجهزة الأمن أو الأزهر أو الكنيسة.. الأعمال كلها وليست فقط المتعلقة بالأمن القومى أو الدينى.. وهذا أمر أصبح شديد الفجاجة بما يسىء إلى كل معانى حرية الإبداع فى ظل محددات نعلمها جميعًا، ونحترمها سلفًا، ولكن ليس بالتخويف والادعاء بأن هذا رأى «الدولة»، وليس رأى السيد الرقيب النافخ فى الزبادى.

٨- تصاريح التصوير الخارجى والداخلى التى يتم فيها دفع رسوم تعجيزية ورقابية متعنتة دون أى محاولة من المستشار أو الوزارة للتدخل لدى الهيئات المختلفة التى تفرض رسومًا تصل لدرجة الابتزاز حتى فى الشوارع.

٩- تم التجديد للدكتور للاستفادة من مواهبه التى لا نظير لها، رغم تجاوزه سن المعاش وطبعًا تمت مكافأته بالعضو المنتدب بالشركة التى تبيع الآن أصول السينما المصرية تحت سمع وبصر الجميع.

هذه بعض رءوس مواضيع سنفتحها مع غيرها.. مع التأكيد أن المصلحة الوطنية هى دافعنا الوحيد، وأن الخلاف ليس شخصيًا على الإطلاق.. ولن يكون كذلك أبدًا.

هالة خليل

إحدى نماذج «سينما الحى»

> السيد الرقيب يتعنت بشدة لمنع تصاريح التصوير للسيناريوهات ويلجأ للمماطلة «مثل حالة الزميلة هالة خليل»

دراسة علمية تكشف السر

لماذا لم تُسجل قصص الأنبياء فى مصر القديمة؟

- الملوك وغالبية المصريين لم يتبعوا هؤلاء الأنبياء ومن ثم لم يكترثوا لذكرهم أو تسجيل ما يخصهم خاصة على جدران المعابد المخصصة لمعبوداتهم المتعددة أو مقابرهم
- كهنة آمون واجهوا الديانة الآتونية بقوة على الرغم من أن زعيمها ملك ورأس دولة وقاموا بمحو آثاره.. ومن المستحيل أن يسمحوا بتسجيل وتوثيق دعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد

د. عبدالرحيم ريحان

جدل كبير تفجّر مؤخرًا بعد أن قال عالم المصريات الشهير الدكتور زاهى حواس نصًا: «مفيش عندنا دليل على وجود بنى إسرائيل فى مصر، ولا يوجد فى الآثار أو الكتب التاريخية ما يثبت وجود سيدنا إبراهيم أو سيدنا موسى فى مصر»، وجاء هذا التصريح خلال مداخلة هاتفية مع أحد البرامج التليفزيونية.

وقد تعالت الأصوات بعدها، لكن أيًا منها لم يرد بشكل علمى، وقد قررنا فى «حملة الدفاع عن الحضارة المصرية»، التى أشرُف برئاستها، أن نضع ردًا علميًا متوازنًا، وهذا الرد يأتى استنادًا لآراء متخصصين فى الآثار والتاريخ من أساتذة الجامعات والآثاريين بالمجلس الأعلى للآثار وباحثى التاريخ والآثار، وهم: الدكتور حسن قلاد، الدكتور محروس الصناديدى الآثارى بالمجلس الأعلى للآثار، الباحثة رشا الخطيب، الدكتور سليم فرج، الدكتور أشرف محمود، الدكتور على صديق عثمان، والآثارية بالمجلس الأعلى للآثار سناء العلاقمى، الدكتور محمد أنور، الدكتورة سحر سمير فريد.

بداية نقول إن السؤال الأهم، الذى كان يجب أن يُطرح على العالم الجليل الدكتور زاهى ويجيب عنه هو: ما سر عدم وجود ذكر لأنبياء الله إدريس ويوسف وموسى فى النصوص المصرية القديمة رغم أن وجودهم واقع دينى لا يمكن إنكاره؟

وقد يتفاجأ البعض بأن «حملة الدفاع عن الحضارة المصرية» طرحت هذا السؤال على خبراء الآثار منذ شهر، قبل تصريح الدكتور حواس، وكأنها تتنبأ بهذا التصريح، وجاءت إجاباتهم منطقية وعلمية، نوجزها بأن السبب فى ذلك ربما لإخفاء حقيقة الدعوة إلى الله الواحد الأحد، لأن كل الأنبياء دعوا إلى عبادة إله واحد، وهذا الأمر كان لا يتناسب مع كهنة المعابد، ويستحيل لحكام مصر القديمة تكليف الكتبة بتسجيل هذه الأحداث نقوشًا على جدران المعابد والمقابر أو البرديات.

ورغم أن الفكر الدينى المصرى فى معظمه أصله فكر سماوى ولكن أدخل عليه التحريف وتم تنسيبه لأرباب من دون الله، وتلك الأرباب ربما كان معظمها أنبياء أو أشخاص صالحين لهم معجزاتهم وكرامتهم، ومنها تصوير أحداث يوم الحساب بما فيه وزن القلب، وذكرت فى الآية ٨٩ سورة الشعراء «إِلا مَنْ أَتَى اللَّه بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»، وفكرة تمثيل الروح بالطائر الذى يحوم على مقبرة صاحبها، وفكرة عمل تماثيل الأوشابتى فى سورة الواقعة آيات ١٧- ١٨ «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ»، وأن المدن وأماكن السكن كانت أكثر الأماكن عرضة للتدمير بفعل كثرة الاستخدام من أجيال كثيرة، وهو ما قلل فرصة أن نجد مصادر عنهم، فضلًا عن أن هناك أشياء كثيرة فى النصوص المصرية تحتاج إلى تمصير وتحقيق علمى.

وتضمنت آراء الخبراء وجود الطهارة وختان الذكور والدعوة للزواج والقيم وفضل الأم فى مصر القديمة وغيرها من العادات التى تدل على وجود دين ودعوة سابقة، كما تشير نقوش تل العمارنة إلى إيمان المصريين برسالة سيدنا موسى، ويمكن مراجعة النص الموجود فى معبد إخناتون بتل العمارنة مع سفر التكوين للتوراة، ومع ما قاله وكتبه جيمس هنرى بريستد فى كتابه «فجر الضمير».

وكذلك مراجعة الإشارات عن أسطورة خلق العالم فى تاسوع هليوبوليس مع المفاهيم الدينية عن سيدنا إدريس، وما تم ذكره تاريخيًا عن نشأة الخلق وتاريخ الكتابة عند المصريين من خلال أسطورة إيزيس وأوزوريس، كذلك ما كتبه الدكتور عبدالعزيز صالح عن حفائر مدينة أونو، وبخاصة عام ١٩٨٣ عندما أعلن الكشف عن صوامع غلال عملاقة فى حفائر مدينة أونو بعرب الحصن بمدينة القاهرة، وعن علاقة تلك الصوامع بفترة سيدنا يوسف، ونشر مقالة علمية فى مجلة «JEA» عن تلك الاكتشافات عام ١٩٨٣، ولا توجد نصوص مباشرة عن الآثار المصرية غير نصوص تل العمارنة.

كما أن كهنة المعابد، وفى مقدمتهم كهنة آمون، واجهوا الديانة الآتونية بقوة على الرغم من أن زعيمها ملك ورأس دولة وصاحب عاصمة، وقاموا بمحو آثاره، وأجبروا توت عنخ آمون على العودة الإجبارية، ولذلك فمن المستحيل أن يسمح هؤلاء الكهنة بتسجيل وتوثيق دعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، كما أن الأنبياء فى نظرهم كانوا أعداءً للدولة والديانة الأساسية، لذا لا يوجد أى شىء لهم، وهو شىء طبيعى جدًا.

ولم يتبع الملوك وغالبية المصريين هؤلاء الأنبياء، والذين اتبعوا دعوتهم قليل من الناس بدليل استمرار عبادة الآلهة المتعددة خلال عصور الحضارة المصرية منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى دخول المسيحية إلى مصر، لذا لم يكترثوا لذكر الأنبياء أو تسجيل ما يخصهم، خاصة على جدران المعابد المخصصة لمعبوداتهم المتعددة أو مقابرهم، ومن الممكن العثور على شىء يخص الأنبياء فى البرديات أو الأوستراكا فى المستقبل.

كما أن من يقوم بتسجيل النصوص ديانته مختلفة عمّا جاء به الأنبياء، فمن الطبيعى تجاهل كل ما هو مخالف.. وكان الأنبياء فى نظرهم أعداءً للدولة والديانة الأساسية لذا لا يوجد أى شىء لهم، وهو شىء طبيعى جدًا، وأن المصرى القديم نظر للأنبياء باعتبارهم أجانب، حتى نبى الله يوسف رغم المكانة التى وصل إليها ومن نسله جاء موسى، عليه السلام، وتربى بصفته ابنًا لملك مصر وزوجته، وحين جهر سيدنا موسى بدعوته آمن به بعض المصريين، ولكن لا نعلم هل دون ذلك أم لا.

> نقوش تل العمارنة تشير إلى إيمان بعض المصريين برسالة سيدنا موسى.. ويمكن مراجعة النص الموجود فى معبد إخناتون مع سفر التكوين للتوراة ومع كتاب «فجر الضمير»

> الأنبياء كانوا فى نظر الكهنة والملوك أعداءً للدولة والديانة الأساسية. . والمصريون اعتبروهم أجانب ومن هنا لا يوجد أى شىء لهم وهو شىء طبيعى جدًا

إدريس عليه السلام

نبى الله إدريس اسمه فى التوراة العبرية خنوخ، وفى الترجمة العربية أخنوخ، وقد جاء فى سورة مريم آية ٥٦ «وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًا»، وكان أول من أعطى النبوة بعد آدم وشيث، عليهما السلام، وأول من خط بالقلم، وقد أدرك من حياة آدم ٣٠٨ أعوام.

وقال معظم المفسرين بميلاده فى مصر، وأسموه هرمس الهرامسة، ومولده بمدينة منف «ميت رهينة حاليًا»، وأقام بمصر يدعو للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتكلم الناس أيامه ٧٢ لغة، وعلمّه الله منطقهم ليخاطبهم جميعًا، ورسم تمدين المدن، وهو أول من علم النجوم واجتماع الكواكب وعدد السنين والحساب، ومن المعروف أن قدماء المصريين برعوا فى علم الفلك وسبقوا كل الحضارات القديمة.

يوسف عليه السلام

حدث جدب فى أرض فلسطين، ما أدى لانتقال نبى الله إبراهيم وزوجته سارة وابن أخيه نبى الله لوط إلى أرض مصر، وقد أهدى ملك مصر السيدة هاجر إلى السيدة سارة، زوجة إبراهيم، والتى تزوجها نبى الله إبراهيم وقد أنجبت له سيدنا إسماعيل عليه السلام.

واستقبلت مصر بنى إسرائيل آمنين، ويُنسبون إلى جدهم نبى الله يعقوب الذى ذكر فى القرآن الكريم باسم إسرائيل «وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ» سورة مريم آية ٥٨، وكلمة إسرائيل كلمة عبرانية مركبة من «إسرا» بمعنى عبد أو صفوة، ومن «إيل»، وهو الله، فيكون معنى الكلمة عبدالله أو صفوة الله.

وتزوج نبى الله يعقوب وأنجب اثنى عشر ولدًا، هم بنو إسرائيل أبناء نبى الله يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم الخليل، وهم الأسباط الإثنا عشر، أصغرهم يوسف وأخوه بنيامين، فأمّا يوسف فقد باعه إخوته إلى قافلة من الإسماعيليين والتجار وهم فى طريقهم إلى مصر، ثم باعه هؤلاء إلى رئيس شرطة فرعون عام ١٦٩٩ ق. م، وكان يوسف أمينًا لمخازن ملك مصر «ايبيبى- أبو فيس الأول» رابع ملوك الهكسوس.

موسى عليه السلام

نسب نبى الله موسى، هو موسى بن عمران بن قاهات بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، ويشير القرآن الكريم إلى تربية ونشأة نبى الله موسى فى بلاط أحد ملوك مصر القديمة فى الآية الكريمة رقم ١٨ من سورة الشعراء «قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ».

وتربى نبى الله موسى فى بيت أحد ملوك مصر القديمة، وتولى البلاط الملكى تربيته، كما كانوا يربون أبناء الملوك فى ذلك العهد بواسطة الكهنة ورجال الدين، وتعلّم موسى تعليمًا راقيًا، وهذا مع ما أفاضه الله عليه فى كبره من الحكمة والعلم الثابت اتضح فى قوله تعالى «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» سورة القصص آية ١٤.

أخطأت يا د. زاهى

3 دلائل أثرية لا تقبل الشك على مسار نبى الله موسى فى سيناء

أما عن الجزء الثانى من حديث الدكتور زاهى حول إنكاره، أثريًا، وجود النبى موسى ومن ثم مساره فى مصر، فإننى فى البداية أشير إلى تصريح الدكتور زاهى بمنطقة سانت كاترين، أمام الدكتور مصطفى مدبولى رئيس مجلس الوزراء، بأن هناك من يدعى بوجود جبل موسى خارج سيناء رافضًا هذا الادعاء، بما يعنى اعترافه بوجود جبل موسى ومسار نبى الله موسى بسيناء، وبعدها بأسابيع يأتى هذا التصريح الذى يخالف توجهات الدولة ومشروعها الضخم «التجلى الأعظم» المؤسس على مسار نبى الله موسى، وتأكيد رحلة الخروج المرتبط بتلقى ألواح الشريعة من على جبل المناجاة بالوادى المقدس وجبل التجلى المواجه لجبل موسى وموقعهما سانت كاترين حاليًا. وبعيدًا عن الحقائق الدينية الثابتة، التى لا تحتاج إلى إثباتات تاريخية أو أثرية، فقد أكدت تاريخيًا وأثريًا، وباعتراف اليونسكو، مسار نبى الله موسى بسيناء، فى كتابى «التجليات الربانية بالوادى المقدس طوى»، إصدار دار أوراق للنشر والتوزيع، استنادًا إلى 3 دلائل مادية.

1 عيون موسى

عيون موسى تقع على بعد ٣٥ كم من نفق أحمد حمدى وعددها ١٢ عينًا، وقد أثبتت الدراسات الحديثة التى قام بها فيليب مايرسون أن المنطقة من السويس حتى عيون موسى منطقة قاحلة جدًا وجافة، ما يؤكد أن بنى إسرائيل استبد بهم العطش بعد مرورهم بكل هذه المنطقة حتى تفجرت لهم العيون وكان عددها ١٢ عينًا بعدد أسباط بنى إسرائيل كما جاء فى القرآن الكريم.

ولقد وصف الرّحالة الذين زاروا سيناء فى القرنين ١٨، ١٩م هذه العيون، ومنهم ريتشارد بوكوك الذى وصف أربعة عيون واضحة ومياهها صالحة للشرب، وهى عبارة عن آبار أنشئت على العيون فى عصور لاحقة، مثل العين التى تفجرت للسيد المسيح فى تل بسطة وأقيم عليها بئر رومانى وعند العمل فى البئر ظهرت العين، وقد تغطت باقى آبار عيون موسى المقامة على العيون بالرمال، كما وصف أشجار النخيل بالمنطقة ٧٠ نخلة المذكورة فى الكتاب المقدس العهد القديم.

وقد تم تطوير سبع عيون والمتبقى خمس عيون، وكانت جميعها مياهًا عذبة، وقد ثبت ذلك بتحليلها بمعرفة المجلس الأعلى للآثار، وكانت تتزود منها قوافل الحج المسيحى والإسلامى، وكان هناك ميناء على خليج السويس قرب عيون موسى استغله العثمانيون وتجار البندقية (فينيسيا) عام ١٥٣٨م أيام السلطان العثمانى سليمان الثانى وقاموا بإنشاء قناة لنقل المياه من عيون موسى إلى مراكبهم بالميناء، وبالتالى فهذه العيون هى دليل مادى ملموس.

2 شجرة العليقة المقدسة

شجرة العليقة المقدسة الموجودة حاليًا بدير سانت كاترين هى الدليل المادى الثانى، وهى الشجرة التى ناجى عندها نبى الله موسى ربه، وذلك لأن هذا النوع من نبات العليق لم يوجد فى أى مكان آخر بسيناء، وهى شجرة غريبة ليست لها ثمرة وخضراء طوال العام، كما فشلت محاولة إعادة إنباتها فى أى مكان فى العالم.

كما أن العالم الألمانى ثيتمار الذى زار دير سانت كاترين عام ١٢١٦م أكد أن العديد من المسيحيين عبر العصور أخذوا أجزاء من هذه الشجرة كذخائر للتبرك بها، ولو نجحت محاولات استزراعها لتهافت على ذلك الجميع. ويضم دير سانت كاترين حاليًا كنيسة يطلق عليها كنيسة العليقة المقدسة بنتها الإمبراطورة هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين فى القرن الرابع الميلادى عند شجرة العليقة المقدسة، وعند بناء الإمبراطور جستنيان لدير طور سيناء فى القرن السادس الميلادى، والذى تحول اسمه إلى دير سانت كاترين فى القرن التاسع الميلادى بعد العثور على رفاة القديسة كاترين على أحد جبال سيناء الذى حمل اسمها، أدخلها جستنيان ضمن الكنيسة الكبرى بالدير كنيسة التجلى، وهى كنيسة العليقة الملتهبة التى تنخفض أرضيتها ٧٠ سم عن أرضية كنيسة التجلى ومساحتها ٥م طولًا، ٣م عرضًا، وتحوى مذبحًا دائريًا صغيرًا مقامًا على أعمدة رخامية فوق بلاطة رخامية تحدد الموقع الحقيقى للشجرة، ويقال إن جذورها لا تزال باقية فى هذا الموقع، وهذه الشجرة أصلها داخل الكنيسة وأغصانها خارجها ولا يدخل هذه الكنيسة أحد إلا ويخلع نعليه خارج بابها تشبهًا بنبى الله موسى عليه السلام عند اقترابه من العليقة.

3 جبل موسى

جبل موسى ذو الطبيعة الجلمودية الصخرية وجبل التجلى المواجه له ذو الطبيعة الركامية كعلامات للدك، هما دليل أثرى دامغ أكدته الإمبراطورة هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين حين جاءت إلى الوادى المقدس فى القرن الرابع الميلادى بعد زيارتها القدس وبنت فى حضن شجرة العليقة المقدسة كنيسة صغيرة تحت مذبحها جذور هذه الشجرة، وقد أصبحت من وقتها أرض سيناء بقعة مقدسة للحجاج المسيحيين من شتى أرجاء العالم. وبعد دخول الإسلام إلى مصر أصبحت بقعة مباركة يحرص المسلمون على زيارتها فى رحلة الحج بالطريق البحرى إلى جدة ومنها إلى مكة المكرمة، وكانوا يبحرون على نفس سفينة الحجاج المسيحيين من ميناء القلزم «السويس حاليًا» إلى ميناء الطور المملوكى، ومنها يعبرون سويًا وادى حبران إلى الوادى المقدس طوى لزيارة جبل موسى وشجرة العليقة المقدسة والصلاة فى الجامع الفاطمى داخل الدير، وقد تركوا كتابات تذكارية داخل الجامع ما زالت باقية ثم يعودون إلى ميناء الطور لاستكمال الرحلة إلى جدة، ويظل الحجاج المسيحيون بالدير لاستكمال رحلة الحج ومنهم من يتوجه من سيناء إلى القدس.

ثم أكد ذلك أثريًا الإمبراطور جستنيان حين بنى بهذه البقعة أشهر أديرة العالم فى القرن السادس الميلادى دير طور سيناء تبركًا بجبل الطور بالمنطقة، وتوجد وثيقة بمكتبة الدير عن إنشاء الدير وارتباطه بشجرة العليقة المقدسة، وما زال ختم مطران الدير حتى الآن باسم دير طور سيناء وقد أدخل كنيسة العليقة المقدسة داخل أسوار الدير. ثم أكدت اليونسكو عام ٢٠٠٢ وجود الجبل والشجرة بهذه البقعة حين سجلت منطقة سانت كاترين، وتضم الجبل والدير وكل مدينة سانت كاترين الحالية كمدينة مقدسة لها قيمة عالمية استثنائية، تراث عالمى باليونسكو.

آيات دامغة لا تحتاج دليلًا أثريًا

بعد التأكيدات الأثرية نسوق أدلة دامغة من القرآن الكريم لا تحتاج لدليل أثرى، وهى التى ذكر فيها اسم مصر مرتبطا بنبى الله يوسف ونبى الله موسى، وأتحدى من يشكك ولو لحظة واحدة فى أن مصر المقصودة هى مصرنا الحبيبة. ففى سورة يوسف آية ٢١ «وَقَالَ الذى اشتراه مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ» وآية ٩٩ «ادخلوا مِصْرَ إِن شَاءَ الله آمِنِينَ».

وذكرت فى عهد نبى الله موسى «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً» سورة يونس آية ٨٧، حين خاطب بنى إسرائيل بإقامة البيوت ويجعلون بها قبلة لإقامة الصلاة، وقد يكون المقصود بذلك أن تكون البيوت متقابلة، وإلى يومنا هذا نجد ساحات اليهود فى أى بلد منعزلة فى شكل حارات ضيقة متقابلة المنازل كما فى حارة اليهود فى مصر.

وذكرت فى سورة الزخرف آية ٥١ «وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِن تَحْتِى»، وكان للنيل سبعة أفرع فى مصر، الفرع البيلوزى الذى كان يمر بسيناء والتانيتى والمنديسى، والفاتنيتى (فرع دمياط حاليًا) والسبنتينى والبلبتى والكانوبى (فرع رشيد حاليًا)، كما ذكر نهر النيل فى سورة القصص آية ٧ «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ»، واليم هو نهر النيل الذى حفظ نبى الله موسى ورده إلى أمه.

وبهذا فإن هناك أدلة أثرية باقية على مسار نبى الله موسى تؤكد ما ذكره القرآن الكريم والكتاب المقدس، وآيات تذكر مصر ومجىء نبى الله يوسف وإخوته واستمرار نسلهم إلى نبى الله موسى وتربيته فى مصر حتى خروجه منها.

خطة سحب القداسة من مصر 2

أحمد خالد

وحد القطرين.. ثم صلى فى الوادى المقدس طوى

من المؤكد والمحسوم تاريخيًا أن الملك نعرمر، أو مينا، هو موحد القطرين الذى أوجد الدولة المصرية الموحدة، مُنشئًا مفهومًا وطنيًا جديدًا لماهية هذه البلاد، والذى ما زال أثره باقيًا حتى اللحظة، متجليًا بشكل خاص فى رفض المصريين أى دعوات انفصالية، تحت عناوين دينية أو عرقية، ورفضهم المساس ولو بحبة رمل واحدة من أرضهم، أيًا كانت طريقة المساس اعتداءً أو احتلالًا أو تهجيرًا.

غير أن البعض يقف بالملك مينا عند هذا العمل التاريخى الأعظم، دون أن يدركوا، أو يغيبوا، حقيقة أن الأعظم ما كان ليصل إلى قمته ويستمر بها دون أعمال عظيمة أخرى مهدت وأكملت وحافظت وتقدمت وراكمت هذا العمل حتى لحظتنا هذه، ومنها أنه استعاد سيطرة الدولة المصرية على سيناء، حيث قام هو وخلفاؤه العظام من ملوك الأسرة الأولى «حوالى ٣١٥٠ – ٢٨٩٠ ق.م» بالعديد من الحملات التطهيرية والتأديبية ضد الهمج الذين اعتدوا وعاودوا الاعتداء على الأطراف والأراضى الحدودية، وكانت حملات ناجحة أعادت سيناء إلى الوادى، تحقيقًا لقاعدة الانسجام فى الأرض التى عمل عليها حكام الأسرة الأولى، ما حوّل مصر من دولة زراعية بحتة إلى دولة حضارية متقدمة متعددة المصادر والموارد، ومنها مناجم المعادن والأحجار الكريمة وخاصة مناجم الفيروز فى سيناء.

وعلى ذلك ومن أجل ذلك أريد أن أستعيد التعريف الحقيقى للملك مينا وخلفائه، وهو أنه موحد الوجهين القبلى والبحرى ومستعيد سيناء، نعم مستعيد سيناء وهى الاستعادة التى احتفى بها نارمر فى صلاية نارمر التى يظهر فيها وهو يصلى فى الوادى المقدس طوى.

أنا مضطر مرة أخرى للتأكيد على أن الملك مينا هو موحد القطرين، لأنى أعرف من يحترفون التشويش على أى فكرة رئيسية بافتعال قضايا أخرى تبتعد عن الفكرة المركز وتخرجها من سياقها.

كما أن أولئك يحترفون خدعة الإحالة، فقبل أن يكملوا هذه الكلمات، سيسارعوا إلى لصقها بنظرية أن مينا هو النبى موسى، وأقول من البداية إننى لست مؤمنًا بهذه النظرية، ولا بغيرها من النظريات والتفسيرات المشابهة، مثل أن الملك رمسيس هو فرعون موسى، ناهيك عما هو معروف من أن أجدادنا من المصريين القدماء ليسوا فراعنة، وناهيك عن أن استخدام مصطلح «الفرعونية» هو جريمة متعددة التفاصيل، مثل تفصيلة نطق «أوزيريس» بدلًا من نطق اسمه المصرى «أوزير».

هكذا أقول لك من البداية إننى مؤمن تمامًا بما أوردته الكتب المقدسة الثلاثة عن قصة التجلى والتكلم، ومؤمن بالحقيقة المتواترة شفاهة ثم كتابة عبر آلاف السنين بين الشعوب، وهى أنها حدثت بأرض سيناء، حيث الوادى المقدس طوى.

أما إذا كنت لا تؤمن بالكتب المقدسة، أو لا تؤمن بالتفسيرات الخاصة بقصصها، أو لا تؤمن بالاثنتين معًا، وتؤمن بالدراسات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية وغيرها من الدراسات التى تعنى بالمجتمعات الإنسانية، فأنا أحيلك لما تعرفه ولا تعرفه من مئات الآلاف من الكتب والدراسات بكل اللغات الحية وغير الحية، التى تؤكد ما تواتر شفاهة ثم كتابة بين الشعوب، من أن قصة التجلى والتكلم حدثت فى سيناء، حيث الوادى المقدس طوى.

أما إذا كان الأمر كما هو واضح يتعلق بتحقيق نتيجة وجعلها أمرًا واقعًا، ولو على حساب تغيير المستقر جغرافيًا وتاريخيًا، والمتواتر شفاهة وكتابة بين الشعوب عبر آلاف السنين، وهو اقتطاع الوادى المقدس طوى من سيناء ومصر، ونقله إلى مكان آخر فى إفريقيا أو أوروبا أو فى آسيا الشقيقة، فنحن أمام خطة سحب القداسة من مصر، ولا أزيد الآن على ذلك.

نعود إلى مقصدنا، ونذكر أنه من الثابت أن الملك مينا عاش ومات قبل ثلاثة آلاف عام من الميلاد، أى قبل مئات السنوات من بناء الأهرامات التى بنيت فى الأسرة الرابعة ما بين ٢٦٠٠ و ٢٥٠٠ قبل الميلاد. والمعروف أن اليهود لجأوا إلى مصر بعد بناء الأهرامات بمئات أخرى من السنوات، وعلى ذلك لم يكن فى عهد الملك مينا ما يسمى اليهود بمصر، وعلى ذلك أيضًا فزيارة الملك للوادى المقدس، حدثت قبل مئات السنين من قصة تكلم رب العزة مع النبى موسى.

إذن كان المصريون، ولسبب ما، يعرفون قداسة الوادى المقدس طوى، بل كانوا يحجون إليه ويصلون فيه، وهذا ما فعله الملك مينا كما يؤكد أحد التفسيرات للوحة نارمر، التى تقول إن اللوحة تسجل انتصار الملك وهو يخضع الأسرى الذين انتصر عليهم فى معاركه لتطهير سيناء من المعتدين، خاصة أن منظر الأسرى وملابسهم يدلان على أنهم من أمة أخرى غير الأمة المصرية.

والملاحظ فى المشهد أن الملك كان حافى القدمين، ويظهر خلفه أحد خدمه وهو يحمل نعليه، أى أن الملك خلع نعليه، لأنه فى مكان يعرف قداسته، ومن مظاهر احترام القداسة خلع النعلين، وهو ما يعنى أن الملك كان بالوادى المقدس طوى.

هل هذا يتعارض مع ما نعرفه عن تجلى وتكلم رب العزة مع كليمه النبى موسى عليه السلام؟ لا يوجد تعارض على الإطلاق، فرب العزة هو الذى أعلم سيدنا موسى بقداسة المكان، أى أن النبى لم يكن يعلم بقداسة المكان الذى هو فيه، لولا أن أخبره رب العزة: «فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى»، أى أن القداسة ثابتة للمكان قبل دخول النبى موسى إلى المكان، وإن القداسة ارتفعت لأعلى مراتبها بالتجلى والتكلم الإلهى.

وما يؤكد التفسير السابق أن هناك أماكن مقدسة كثيرة كانت سابقة القداسة قبل أن يحدث بها ما يزيدها قداسة، فمكان بيت الله الحرام ثابت القداسة قبل أن يتلقى سيدنا إبراهيم الأمر الإلهى برفع القواعد، أى أن رفع القواعد كشف عن القداسة ولم ينشئها، إنما ارتفعت القداسة برفع القواعد وجعل أفئدة الناس تهوى إليه، وكذلك فإن قداسة المسجد الأقصى وبركة ما حوله، ثابتة من قبل أن يصبح أولى القبلتين.

لكن لماذا يتم تغييب التفسير القائل بأن الملك مينا حارب المعتدين على أرض سيناء، وطهرها منهم، واحتفى بانتصاره عليهم؟ لأمور كثيرة لكن أهمها هو تغييب حقيقة أن الملك مينا زار الوادى المقدس طوى وخلع نعليه وصلى فيه، شاكرًا ربه على تحقيق انتصاره، وعندما يتم تغييب ذلك يسهل نفى القداسة الدهرية والزمنية والتاريخية عن وادى طوى الذى بسيناء، مع نقل القداسة إلى واد آخر فى مكان آخر.

والأمر لم يقتصر على ذلك، بل امتد لمحاربة من يتبنون أو حتى يشيرون إلى هذا التفسير الذى يعنى أن قداسة الوادى معروفة حتى قبل تأكيد الكتب المقدسة عليها، بمثل ما هوجم وحورب الراحل الكبير د. سيد القمنى، الذى دلل كثيرًا على تلك الحقيقة، فهوجم بشتى الطرق لدرجة اتهامه بإنكار أن الملك مينا وحد القطرين، والرجل لم يقل ذلك، فكل جريمته عندهم أنه أشار إلى أن الملك كما أنه وحد القطرين، قام بتطهير سيناء وصلى فى الوادى المقدس طوى، كما تقول صلاية نارمر فى تفسيره.

وفى المقابل، ما نبهنى إليه الشارح الأثرى العتيد والشاعر ومؤسس فرقة جميزة الفنان ناصر النوبى، وهو أن هناك ترويجًا لمشاريع أخرى، تريد أن تثبت أن الوادى المقدس طوى ليس بمصر، إنما فى مكان آخر، وبالتالى فإن الأماكن المقدسة الأخرى المرتبطة به كجبل موسى، والقصص المقدسة المرتبطة به، حدثت فى أماكن أخرى، ومن ثم يتم تغيير الوجهات السياحية والأثرية والدينية من مصر إلى أماكن أخرى، ومثل ذلك فيلم «La Montaña de Moises en Arabia Saudita» وترجمته من الإسبانية «جبل موسى فى السعودية العربية»، وكما قال ناصر- الذى حدثنى منذ سنوات عن تفاصيل كثيرة فى خطة سحب القداسة من مصر- إن هناك أفلامًا كثيرة بالإسبانية تفعل ذلك، والسر فى ذلك يرجع إلى أن معظم سكان أمريكا اللاتينية يتحدثون الإسبانية، ومعظم البرامج السياحية التى تأتى إلى مصر تأتى لزيارة أماكن القصص التوراتية بالأساس، ثم تذهب بعد ذلك إلى الأردن ثم إلى إسرائيل، ومن شأن تغيير أماكن القصص، تغيير الوجهات السياحية من مصر إلى أماكن أخرى، خاصة مع عدم الاهتمام الكافى بالمسارات الدينية المصرية، ومن هنا يجب الإسراع فى تحقيق مشروع التجلى الأعظم، قبل أن يسحب التجلى منا.

الحلقة التالية
من مارس 656 ق. م. إلى مايو 2019
الملك بسماتيك وأنفاق قناة السويس

المُتمرد

مصطفى عبيد: كتبى إعادة تفكير فى «ما وجدنا عليه آباءنا»

يعمل الكاتب الصحفى والباحث مصطفى عبيد على مشروع كبير لتحفيز العقل العربى، واستفزازه للتفكير بشكلٍ مختلف، وتفكيك ما يسمى بـ«المسلَّمات» أو «الثوابت»، ويؤمن بأنه لا ثابت سوى الله، وأن كل شىء قابل للبحث والتفكيك والمراجعة. لذا كان من الطبيعى أن تلقى كُتبه وترجماته وروايات، مثل «أبناء محيى الدين» و«ضد التاريخ» و«سبع خواجات» و«جاسوس فى الكعبة»، أحجارًا فى المياه الراكدة، أن تكسر النمطية والثبات والجمود، وتطرح أفكارًا غير معتادة، وتحاول نقد الشائع، بالشكل الذى توصل إلى أن «مصطفى كامل ليس زعيمًا وطنيًا»، على سبيل المثال.

عن هذا المشروع الفكرى المهم، وتفاصيل كل كتاب فى إطاره، يدور حوار «حرف» التالى مع الكاتب الصحفى والباحث مصطفى عبيد.

إيهاب مصطفى

■ لديك اتجاهات خاصة فى العمل على كتبك، فكل منها يبدو كمشروع مستقل، لكنها فى مجملها تظهر كمشروع واحد كبير.. كيف ترى هذا؟

– بالفعل أنا لدىّ مشروع كبير هو تحفيز العقل العربى، واستفزازه للتفكير بشكل مختلف، وتفكيك ما يسمى بالمُسلَّمات أو الثوابت، إيمانًا بأنه لا ثوابت سوى الله، وأن كل شىء قابل للبحث والتفكيك والمراجعة، وذلك لأننى أتصور أن الإصلاح والتحديث يستلزمان خروجًا عن الأساليب التقليدية فى التفكير والتدبر.

من هنا يتصور أى متابع لما أكتبه، أن كل كتاب بمثابة مشروع فى حد ذاته، غير أن هناك مشروعًا كبيرًا أعم وأشمل، هو كسر النمطية، والابتعاد عن التقليد والتكرار. وأنا سواء فى بحوث التاريخ والسير والسرد، أميل إلى التجريب وطرح الأفكار غير المعتادة، ومحاولة نقد الشائع، سعيًا للوصول إلى معان وطرق جديدة.

■ من الفكرة إلى الكتابة.. كيف تنتقى ما تكتب عنه؟ وهل هناك رؤى بعينها تحرص عليها فى كل كتاب؟

– نعم، هناك هامش محدد أحاول تتبعه، وهو أن يكون الكتاب الجديد يضيف جديدًا، فالكاتب لا ينبغى أن يكرر ما سبق قوله، هذا ليس عملًا، والعمل المفيد هو الذى يقدم جديدًا، كشفًا ما، إنصاف شخصية مظلومة، دحض أكذوبة خاطئة، أو غير ذلك.

من هنا أفكر دائمًا فى المناطق المعتمة فى التاريخ أو الفكر وأسعى إلى إضاءتها. أتصور أننا فى حاجة لتنوير ما هو مظلم، تعريف الناس بشىء لم يُعرَف من قبل. أؤمن بأننا ميتون وأعمارنا قصيرة، وعلينا أن نقدم دومًا ما يبقى للناس. من هنا فإن أهم ما فى الفكرة هو تقديم شىء جديد.

■ السير الذاتية التى ترجمتها لها علاقة وطيدة بالمجتمع المصرى، ومنها كتب سيدنى سميث وتوماس راسل.. ما الدافع وراء اختيار هذه الأعمال؟

– قطعًا أعمالى فى ملف الترجمة لم تكن انطلاقًا من الترجمة نفسها، وإنما خضعت إلى الفكرة ذاتها، وهى تقديم جانب معرفى جديد. مثلًا عندما قرأت مذكرات حكمدار القاهرة توماس راسل، ومذكرات سيدنى سميث، شعرت بأنها تقدم شهادة مهمة وجديدة وغائبة عن مصر المجتمع والناس والعامة لا الساسة، لذا كان يجب طرحها كقيمة معرفية جديدة للباحثين وجمهور القراءة. أنا مهتم بشكل خاص بشهادات الغير عنا، لأنها دومًا كانت مستبعدة، تحت تصور التشكك فى الآخر، أو من كان يومًا عدوًا، فآفتنا هى تعميم الأحكام وإطلاقها كحقائق راسخة.

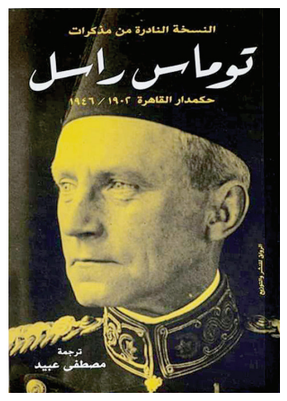

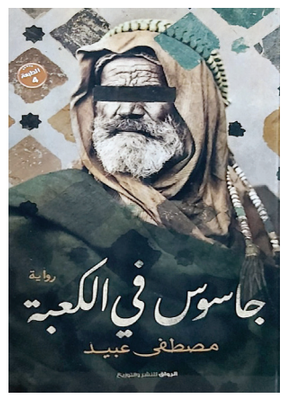

■ الكثير من العائلات المصرية لها سير تاريخية محترمة.. لماذا اخترت عائلة «محيى الدين» لتكون موضوعًا لكتابك الأخير؟

– «أبناء محيى الدين» هو أحدث كتاب لى، وهو يتناول تاريخ عائلة «محيى الدين»، منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى وقتنا الحاضر. وقد اخترت هذه العائلة للكتابة عنها لعدة أسباب يمكن إجمالها فى التالى:

أولًا: هى العائلة الوحيدة فى مصر التى خرج منها رئيسا وزراء، هما زكريا محيى الدين وفؤاد محيى الدين، وهى العائلة الوحيدة التى أخرجت وزراء للداخلية والصحة والحكم المحلى والاستثمار والتعليم العالى والبحث العلمى، كما أخرجت عُمدًا ونوابًا فى البرلمان ومفكرين اقتصاديين وغير ذلك، رغم أنها ليست عائلة ثرية.

ثانيًا: صعود العائلة اجتماعيًا وسياسيًا ارتبط بصعود طبقة جديدة من المصريين، فى نهايات القرن التاسع عشر الميلادى، لا تنتمى إلى رجال السلطة، وذلك بفضل مهارة بعض الأفراد، مثل الرجل المؤسس محيى الدين فؤاد، الذى كان تاجرًا بسيطًا، لكنه استفاد من تجارة القطن وبرع فيها، وصعد مع ميلاد سمعة القطن المصرى عالميًا، وأسس عائلة ضخمة، وعلم أبناءه فى الخارج، ليتمكن من تبديل حاله الاجتماعى فى زمن شديد الصعوبة.

ثالثًا: هذه العائلة ارتبطت ارتباطًا غريبًا بتحول هام ودرامى فى تاريخ مصر الحديث، هو ما حدث فى ثورة يوليو ١٩٥٢، ذلك أن اثنين من أعضاء مجلس قيادة الثورة أو الحركة الجديدة ينتميان إلى العائلة، ورغم ذلك فإنهما كانا من المتحفظين والناقدين لكثير مما شهده التحول من سقطات.

وفى المجمل أتمنى أن تكون هذه الدراسة بداية لقراءات متنوعة لتاريخنا الاجتماعى وفق قوالب جديدة.

■ «سبع خواجات- سير رواد الصناعة الأجانب فى مصر».. الكتاب يبدو وكأنه محاولة لإنصاف الرأسماليين الأجانب فى مصر، والرد على ما يقال بأن كلهم كانوا فسدة.. هل هذا صحيح؟

– «سبع خواجات» يقوم على فكرة رئيسية، هى عدم التسليم لكل ما تربينا عليه باعتباره حقائق ثابتة، فالفكرة السائدة هى أن كل الأجانب لصوص وفاسدون، لكن عند إخضاع هذه الفكرة إلى تقييم حقيقى بعيدًا عن «الشوفينية» والتعصب، وجدت أن هناك نماذج عديدة نافعة وجيدة ومهمة، وتركت لنا آثارًا تستحق أن تُشكر.

■ رغم أن البحث يستهويك لكنك لا تنفك عن العودة إلى الرواية فكتبت «جاسوس فى الكعبة».. هل يمكن ضمها إلى مشروعك الأكبر، خاصة فى ظل بُعدها التاريخى؟

– بالنسبة لرواية «جاسوس فى الكعبة»، أنا أحب السرد الروائى، وأتصور أن التاريخ مجموعة من الحكايات، وكانت الفكرة الرئيسية للرواية هى محاولة استقراء الصدام والاحتكاك المبكر بين الشرق والغرب.

الرواية تتناول حكاية شخص سويسرى طموح من أسرة عريقة تؤمن بالعلم، انتقلت من لوزان إلى بازل، وتعرضت إلى مشكلات اقتصادية بسبب الغزو الفرنسى، فى نهايات القرن الثامن عشر. هذا الشخص اسمه «لويس»، والذى تعلم جيدًا لإيمانه بإمكانية استعادة مجد عائلته، عائلة «بركهارت»، من خلال العلم، فانتقل إلى ألمانيا بسبب كراهيته الاحتلال الفرنسى لبلاده، وكراهيته لنابليون بونابرت.

اهتم «لويس بركهارت» فى ألمانيا بدراسة الشرق والتعرف على الإسلام، وخاض فى علوم الاستشراق، ثم سافر إلى إنجلترا طلبًا لوظيفة جيدة تكافئ ما حصله من علوم، وهناك اتفقت معه الجمعية الجغرافية البريطانية على العمل لحسابها، والمشاركة فى اكتشاف مناجم الذهب فى النيجر.

كان الكثير من الرحالة البريطانيين قد قتلوا فى رحلتهم لاكتشاف الذهب فى النيجر، لسفرهم عبر البحر، ومرورهم من الجزائر، وكانت الخطة البديلة أن يسافر «لويس» عبر الطريق البرى من مصر، مع قوافل الحجاج الأفارقة العائدين إلى النيجر، لذا فقد قرر تعلم اللغة العربية، وارتدى أزياء العرب، وانخرط وسطهم كتاجر ثرى.

بدأت مهمة «لويس بركهارت»، الذى صار اسمه «الشيخ إبراهيم المهدى» فى الشام بمدينة حلب، ومنها غيّر مسار مهمته للبحث عن مدينة «الأنباط» المفقودة، التى كتب عنها الأوروبيون المصاحبون للحملات الصليبية، لكن أحدًا لم يصل إليها. وبالفعل يخوض «لويس» عدة مغامرات ليصل فى النهاية إلى «البتراء»، ويكتشفها فى أغسطس ١٨١٢.

بعدها يجد نفسه فريسة لعيون جواسيس محمد على باشا المنتشرين فى الشام، ويسافر إلى مصر استعدادًا للحاق بقافلة النيجر، لكنه يتعرض لمغامرات أخرى فى القاهرة، ويغير مهمته ليعمل كعين راصدة لنجم باشا مصر الصاعد، محمد على، ويتابع أخباره، ويصبح لاحقًا للباشا، الذى يعتقد أنه جاسوس للمماليك أو السلطان العثمانى أو غيرهما، ويتربص هو الآخر به.

– يُجرى «لويس» استكشافات فى صعيد مصر، ويستكشف بالفعل بعض المعابد المصرية القديمة، ويقوم برحلة إلى النوبة والسودان، ويتزوج بإحدى أرامل المماليك، ليصبح محل شك دائم لمحمد على ورجاله، قبل أن تُقرر بريطانيا تغيير مهمته وإرساله إلى الحجاز، لمتابعة ورصد ظهور وتوسع الحركة الوهابية، وزيارة الكعبة وقبر الرسول واستكشاف كل شىء عنهم.

وبالفعل يُصبح لويس «إبراهيم المهدى» شاهدًا على حروب محمد على وابنه «طوسون» مع «الوهابيين»، ويتابع أحداثها وحكاياتها، ويتم وضعه تحت المجهر تمامًا، ليصدر قرارًا سريًا بتصفيته، لكن بطريقة هادئة وبموت بطىء حتى لا يلفت الأنظار.

يكتب الرحالة كل شىء عن مصر ومحمد على ورجاله و«الوهابيين» والعرب والإسلام، ويصحح مفاهيم مغلوطة لدى الأوروبيين عن الإسلام، الذى يعتبره دينًا إصلاحيًا.. وقطعًا فإن قالب الرواية جيد ومناسب للتفكير فى التاريخ بشكل جيد.

■ كيف جاءت فكرة كتاب «ضد التاريخ»؟

– الدافع الأول لهذا الكتاب هو إرساء التعددية وكسر الأحادية الحاكمة للفكر العربى فى شتى المناحى، سواء الفكر الدينى أو السياسى أو التاريخى، لأن الشيوع والتمدد الواسع للتيار الدينى فى المجتمعات العربية يرجع إلى أحادية الفكر، وتنشئة أجيال من البشر، عبر ٧ عقود، على فكر واحد ورأى واحد وصوت واحد وحزب واحد.

ليس أدل على ذلك فى مصر من أن جماعة «الإخوان المسلمين»، بعد تأسيسها فى ١٩٢٨، قضت أكثر من ٢٠ عامًا لا تجد قدرة على التمدد والتأثير فى الشارع، لأن خطابها كان أحاديًا، بينما كانت النخبة مشبعة بالتعددية. لكن بعد يوليو ١٩٥٢ تحولت مصر إلى فكرة «الكل فى واحد»، وصار الحزب والطرح والفكر واحدًا، وهو ما يعبر عن السلطة، ومن ثم صارت الأحادية الحاكمة للمجتمع مناخًا ملائمًا للجماعة كى تتمدد وتنتشر وتهيمن على مصر، على الرغم من الضربات الأمنية التى تلقتها، لنصل إلى مجتمع «شبه متأخون بالكامل» فى الثمانينيات.

أنا ابن هذه المرحلة، شببت لأجد الخطاب الدينى زاعقًا ومهيمنًا على كل شىء. رأيت الناس إما مع أو ضد، وكان تقديرهم للشخصيات التاريخية إما أبيض أو أسود، وهذا ما جعلنى أبحث عن الآخر وأستقرئه، وأعيد قراءة ما طرحه ورفضه السابقون.

لقد كنت مدفوعًا بتأكيد أن الأحادية هى سبب تخلفنا، وأننا مدعوون جميعًا- نُخبة وكتابًا- إلى التفكير فيما وجدنا عليه آباءنا. إن القرآن الكريم أنكر على الأمم الضالة قولهم، إن دُعوا إلى دين جديد، إنهم يسيرون على ما سار عليه آباءهم دون تفكير أو تمحيص، ونحن للأسف الشديد وصلنا بفضل أحادية الفكر إلى قطيع يرفض كل طرح جديد، ويستعذب تكرار السائد دون تشغيل للعقل.

كانت فلسفتى القائمة هى أن التاريخ تحديدًا علم نسبى، لا يحتمل الرواية الواحدة، وحاولت تقديم أمثلة عديدة لروايات تبدو غير مألوفة لدى الناس ومخالفة لما هو سائد، انطلاقًا من قراءة جديدة تضع فى خلفيتها المنطق والعلم والأخلاق كمعيار لإعادة تقييم الأفعال. وهنا فقد كانت إشارتى مثلًا إلى أن مصطفى كامل ليس زعيمًا وطنيًا.

قراءة أى حدث مضى أمر فى غاية السهولة بسبب تعدد الروايات ووفرتها وإتاحتها عبر وسائل كثيرة. وكل حدث رواه صانعوه وضحاياه، لكن الأعظم هو ما رواه المشاهدون والمتابعون، والمهم هو وضع مقياس ما لتقييم الأحداث، وأول شىء هو استخدام فكرة تحليل المضمون استنادًا للمنطقية، يليها محاكمة الفعل أخلاقيًا، هل ما حدث يتسق مع الأخلاق أم لا؟ وأتصور أن القضية ليست فى انتقاء المراجع، فهى جميعًا متاحة، لكن القضية فى الفلسفة القائمة لقراءة الأحداث.

مصطفى عبيد

مصطفى كامل

محيى الدين

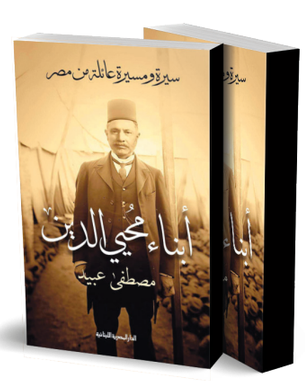

> التاريخ لا يحتمل الرواية الواحدة ومصطفى كامل لم يكن زعيمًا وطنيًا

> «يوليو» من أسباب انتشار «الإخوان» وخلقت مجتمعًا «شبه متأخون بالكامل» فى الثمانينيات

> أتمنى أن يكون «أبناء محيى الدين» بداية لقراءات مختلفة لتاريخنا الاجتماعى

حوار لم يُنشر مع رفيقة دربه ماجدة الجندى

العارف

العالم السرى لجمال الغيطانى

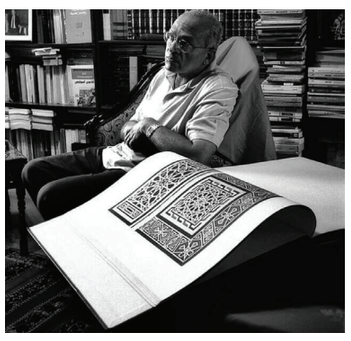

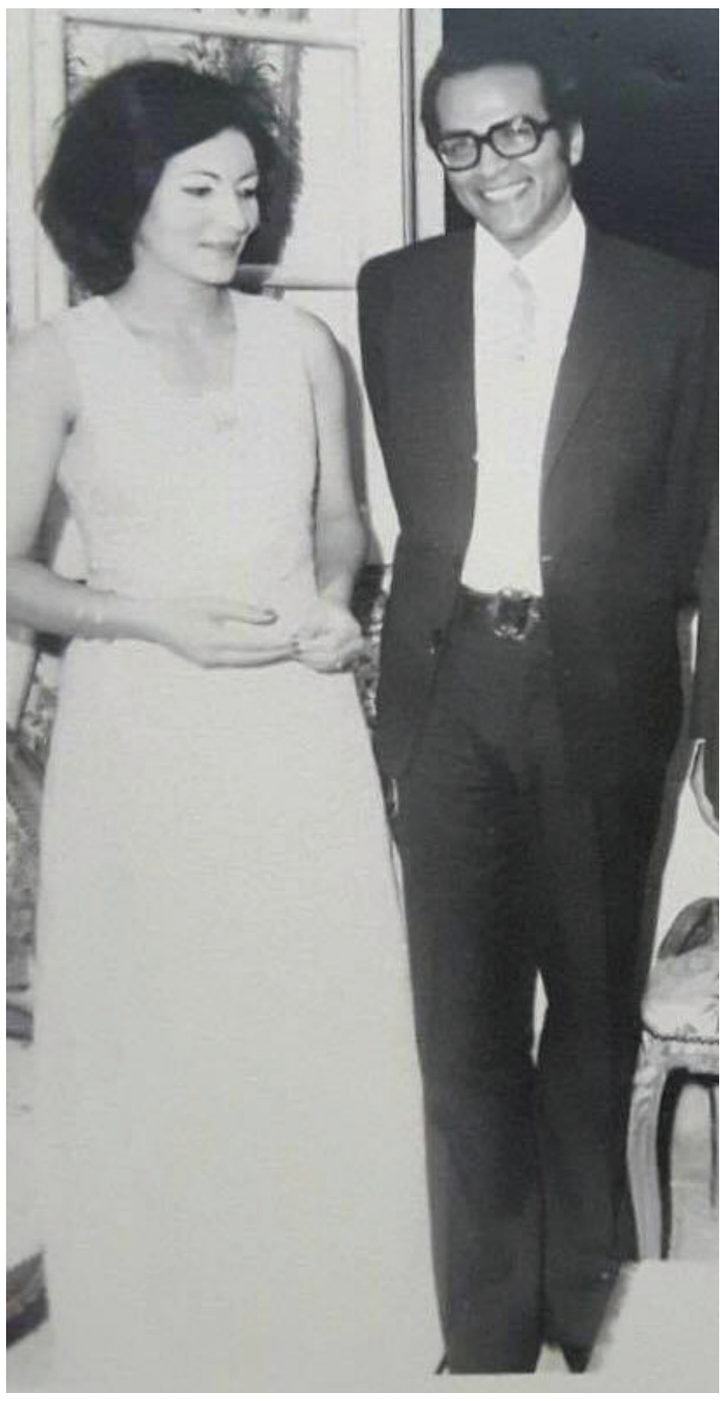

فى مكان خاص بعقلى وقلبى يسكن الأديب الكبير الراحل جمال الغيطانى.

سحرنى بـ«الزينى بركات»، وأخذتنى «التجليات» من نفسى، وسرقنى بـ«هاتف المغيب»، وأشعل خيالى بـ«حكايات المؤسسة» و«حكايات الخبيئة»، وصادر اهتمامى بـ«دفاتر التدوين»، وتعلمت من إخلاصه لمعنى الوطن فى «أوراق شاب عاش من ألف عام» و«المصريون والحرب»، وتعلقت بلغته من «نفثة مصدور»، وعشت معه على ضفاف إبداعه الصحفى الهائل فى «أخبار الأدب».

عندما مات فى العام 2015 شعرت بفقد صديق لم أجالسه إلا مرات عديدة عابرة، شعرت معه فيها بأننى أعرفه جيدًا، لم أتطفل عليه، فقط كنت أراه قامة شامخة، علا قدرها عندى عندما ختم حياته بمعركة طويلة ومفتوحة مع جماعة الإخوان، فكتب عنها ما لم يكتبه غيره فى سنة سطوتها وسيطرتها على الحكم.

بعد وفاته سعيت إلى معرفته أكثر، فجلست إلى رفيقة دربه الكاتبة الصحفية الراحلة ماجدة الجندى- توفيت فى العام -2021 فى حوار ممتد عبر برنامجى التليفزيونى 90 دقيقة، ويومها تحدثت عنه كما لم تتحدث من قبل.

سرت مع ماجدة الجندى فى حوارى عبر 3 مسارات، فتشت داخلها عن جمال الكاتب الروائى، وجمال الصحفى، وجمال الإنسان الزوج والأب والجد.

الباز

العارف

العالم السرى لجمال الغيطانى

يومه كان مقسومًا إلى نصفين.. نصف لوظيفته التى يحصل منه على راتبه والنصف الثانى كان يتهيأ ويتهيب للإبداع

لم يكن هناك شىء يغريه ليخرجه عما يعتقد ويشعر ويحس كان ما بداخله طاغيًا عليه طوال الوقت

جمال وماجدة

سألتها مباشرة: اكتمل مشروع جمال الغيطانى الروائى برحيله... هل وصل ما كتبه إلى قرائه كاملًا؟

قالت: قبل أن أجيبك أحب أن أقول إن جمال الغيطانى كان مجرة، وليس مجرد مشروع أصيل فى الإبداع، ليس مجرد محب لمصر بل هو العارف بها، وليس مؤسسًا لتجربة صحفية أدبية مهمة بل هو مثقف رفيع المستوى والأداء، وقد ظللت فى معيته ما يقرب من ٤٥ عامًا ولا أزال، وكنت أسأل نفسى دائمًا: لماذا انتبه له القراء فى الشرق والغرب ومبكرًا جدًا؟

قُلت: أعرف أن القارئ العربى انتبه له مبكرًا، فهل حدث هذا فى الغرب أيضًا؟

أجابت: القارئ الغربى انتبه لما يكتبه جمال منذ الثمانينيات، ويمكننى أن أقول لك إن أول طرح للأدب العربى كجزء من الأدب الإنسانى وليس من منظور الأنثروبولوجى وأقسام الأدب المتخصصة كان ترجمة «الزينى بركات»، وكان ذلك من خلال دار نشر فرنسية فى بدايات الثمانينيات.

استفسرت منها: تقصدين أن «الزينى بركات» ترجمت كأدب إنسانى، وليست ترجمة حتى يعرف الغرب كيف يعيش الناس فى الشرق أو من هم هؤلاء الناس؟

قالت: بالضبط... فقبل صدور ترجمة «الزينى بركات»، وأرجو ألا أكون مخطئة، كان يتم التعامل مع الأدب العربى من خلال وسيلتين.

الأولى هى أقسام الأدب المتخصصة وأقسام اللغة العربية فى الجامعات الغربية كجزء من الأنثرويولوجى، يعنى لمعرفة من نحن، كيف نعيش، كيف نحب، كيف نغضب، كيف نعبر؟

والثانية كانت تأتى الدولة وتقول لدار نشر صغيرة نريد ترجمة هذا الكاتب، وتمنحها حق الترجمة.

لكن أن يتم طرح الأدب العربى من خلال دار نشر كبيرة هى «لسوى» الفرنسية من خلال ترجمة لكاتب لا علاقة له بالفرانكفونية من قريب أو بعيد، ويتم البحث عنه ويصلوا إليه ويطرحوا عمله كجزء من الأدب الإنسانى، فقد حدث هذا أول مرة مع جمال و«الزينى بركات»، وللعلم هذه الدار هى نفسها التى كانت تترجم لـ«ماركيز» وكبار الكتّاب فى العالم.

سألتها: وكيف وصلوا إلى جمال؟

قالت: وصلوا إليه عن طريق علامة كبير اسمه «جمال بن شيخ» كان قد قرأ «الزينى بركات» وأعجبته، وهو بالمناسبة جزائرى، وكان قطبًا أكاديميًا كبيرًا فى الساحة الثقافية الفرنسية، دلهم على جمال فبدأوا فى البحث عنه، وقد ترجمت «الزينى» بركات إلى ٤٠ لغة، ومنها لغات لا أعرفها من الأساس.

وتستكمل ماجدة ما حدث، تقول: هذه الترجمة كانت نقلة للأدب العربى، حدثت حتى قبل ترجمة أستاذنا وقطبنا الكبير الأستاذ نجيب محفوظ، الذى ترجم معظم أعماله بعد نوبل، ومعلوماتى المتواضعة أن الترجمات العربية كانت محدودة للأدب العربى قبل ترجمة «الزينى بركات»، وأتذكر أن لحظة صدور هذه الترجمة لم تكن لحظة خاصة لجمال فقط، ولكنها كانت لحظة فارقة للأدب العربى كله.

سألتها: هل كانت لجمال الغيطانى طقوس معينة فى الكتابة؟

أجابت: جمال ولد ليكتب، هو من مواليد ٩ مايو ١٩٤٥ فى جهينة بسوهاج، كان نشاطه الأول والمفضل والقريب إلى قلبه هو الكتابة، وكان يسمى الكتابة «مرمى القتل»... وكان يرفض الاقتراب منها أو المساس بها بأى شكل من الأشكال، كان يعتبر الكتابة عملًا مقدسًا.

قلت لها مداعبًا: وهل كانت الكتابة سببًا من أسباب الخلاف بينكما فى أى لحظة؟

قالت مبتسمة: لم يحدث هذا أبدًا.. جمال كان إنسانًا نبيلًا وليس مجرد كاتب، أنا أكلمك وأنا أعرفه جيدًا، ومن بين سماته أنه كان يحترم المرأة بشكل لا يمكن تصوره، كنت أعتبر نفسى رجعية بالنسبة له.

قلت: رجعية بالنسبة له.. نحن نتحدث عن رجل صعيدى.. هل يمكن أن يستقيم الحال؟

قالت: هذا ما حدث.. لقد جمع جمال الحسنيين، رغم كل خبرته فى الحياة وتجاربه التى مر بها، إلا أنه ظل يعيش بفطرة سليمة نقية.

أعدتها مرة أخرى إلى طقوس الكتابة.

قالت: جمال كان رجلًا من جموع الناس يسعى إلى كسب عيشه، ولذلك كان يومه مقسومًا إلى نصفين، نصف لوظيفته التى يحصل منه على راتبه، والنصف الثانى كان يتهيأ ويتهيب للإبداع، كان ينزل من البيت فى الثامنة صباحًا، ويعود إلى المنزل يتناول معنا الغداء على الساعة ٤، ثم يفصل ساعتين فقط ليبدأ النصف الثانى وهو نصف الإبداع.

قلت لها: يمكننى أن أتخيل حياته فى النصف الأول الموظف أو الصحفى، لكن كان النصف الثانى الكاتب الروائى؟

أجابتنى: النصف الثانى كان شديد الالتزام ناحية القراءة والكتابة، وكان يشحن نفسه بمختلف الفنون، فهو مستمع جيد جيدًا، مكتبته فيها كل صنوف الموسيقى العالمية، كان يستمع إلى الموسيقى من كل مكان، وكانت له علاقة قوية بالفن التشكيلى، وقد كوّن مكتبة تشكيلية نادرة جمعها من دول العالم المختلفة، كان مهتمًا بثقافته البصرية جدًا، يرى أن هذا يغذى الخيال والعقل، ولعل هذا يفسر اهتمامه أيضًا بالعمارة، وكان من عاداته أن يستمع إلى القرآن قبل أن يبدأ الكتابة.

هذا بعض اهتمام جمال الغيطانى، لكن ما الذى كان يشغله، يشكل هاجسًا دائمًا بالنسبة له؟ سألت ماجدة.

قالت: كان مشغولًا طوال الوقت بفكرة الزمن، كان يسأل: ماذا سنفعل؟ ما الذى ينتظرنا بعد الموت؟ وهذا الانشغال أخذه إلى الاهتمام بعلم الفلك وعلم الفيزياء، وهو ما كان واضحًا فى مكتبته، كنت ترى فيها مساحة كبيرة لكتب الفيزياء المتخصصة، وقد رأيته وهو يتابع مناظرة فريدة جدًا جرت فى سويسرا بين عدد من علماء الفيزياء عن العلم وفكرة الزمن.

قلت لها: وكيف كان يكتب؟

قالت: كل كتابة عنده كان لها شكل خاص، أعماله الصحفية كان يكتبها على ورق الدشت المعروف، لكن أعماله الإبداعية كان يكتبها على ورق خاص وفى الغالب ملون، وتخيل أن القلم الذى كان يكتب به أعماله الإبداعية كان لا يكتب به أبدًا أى عمل صحفى، قلم الإبداع كان قلم حبر يكتب به على ورق فلوسكاب مسطر، ويستمر فى الكتابة إلى ما بعد الثانية صباحًا، كان يستمر فى الكتابة لساعات، لا يقطعها شىء إلا إذا كان يريد أن يقرأ شيئًا.

أخذت ماجدة إلى منطقة خاصة، قلت لها: كل كتاب يصدر لكاتب له وهجه وشغفه الخاص، وأحيانًا يتوقف الشغف بصدور الكتب بعد أن تتوالى، هل فقد جمال شغفه بصدور أعماله الجديدة يومًا؟

قالت: لم يتوقف شغفه أبدًا، حتى آخر كتبه «حكايات هائمة» وهو عمل كبير صدر قبل وفاته بشهرين، لقد ظل جمال تلميذًا مطيعًا للإبداع حتى آخر نفس، يعنى فى ليلة ١٤ أغسطس ٢٠١٥ كان قلمه لا يزال مفتوحًا حتى الساعة الواحدة- جمال توفى فى ١٨ أكتوبر ٢٠١٥- وكان يعجبنى فيه أنه كان ينافس نفسه فقط، وأذكر أنه قال لى عن «حكايات هائمة» إن لديه إحساسًا بأنه يمكن أن يكون فيه تجاوز لـ«التجليات».

اندهشت من كلامها، فالتجليات لها مكانة خاصة فى مسيرة جمال الغيطانى الإبداعية.

لم تتعجب من اندهاشى، وأكملت: هذا تعبيره لم أختلقه، هو من قال ذلك بالفعل، وأعتقد أنه كان ينتظر كل كتاب يصدر كما فعل فى أول كتاب له، جمال كان يشعر بأنه جاء العالم ليكتب.

سألت ماجدة: هل هناك رواية بعينها لجمال تضعينها إلى جوارك ولا تفارقك أبدًا؟

قالت: «التجليات» طبعًا، و«دفاتر التدوين» التى أعتبرها نوعًا من السيرة الذاتية بطريقة غير تقليدية، هو لا يحكى حدوتة، ولكن يأخذ مفردات ويمشى معها رأسيًا، يأخذ مثلًا فكرة «الشباك» ويسير معه ليمر على شباك السجن وشباك القطار، وشباك المكتب، ويتعقب مساره، وقد ترجمت الدفاتر للفرنسية.

مفتونة ماجدة الجندى بجمال، لكنى سألتها: هل كتب شيئًا لم يعجبك، عملًا أمسكتِ به وقلت لا هذا ليس «جمال»؟

قالت: كل عمل لجمال فيه مغامرة فى الشكل والمضمون، لا أحد كان يستطيع أن يتنبأ بما سيكتبه، صحيح أنى كنت متلقية لأعماله، لكن كانت هناك نقطة ضعف وهى أنى زوجته التى تحبه، لكنى دعنى أقول لك إنه كان قادرًا على إدهاشى طوال الوقت بمفاجآته بالكتابة.

سألتها: هل كنت القارئة الأولى له.. أم أنك كنت تقرئين ما يكتب مع القراء؟

قالت: فى محبة جمال الغيطانى لن أدعى شيئًا لم يحدث، لن أقول إنه كانت لدى وضعية خاصة، لكنى كنت بالفعل القارئة الأولى لكل ما كتب، ورغم ذلك فأنا لم أكن أقترب إلا بإشارة منه، وكان هذا اتفاقًا ضمنيًا منذ لحظة ارتباطنا الأولى.

سألتها وأنا أضع أمامى أنها المحبة الكبيرة: هل كنت قارئة على بياض، بمعنى أن كل ما يكتبه يعجبك؟

قالت: لم أكن أتعامل معه بمنطق «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» بالمفهوم العام، كنت أمارسه معه بصدق من يحب، فما كان بينى وبينه لم يكن حبًا أنانيًا، ولكنها محبة ترقرقت وصفت وأصبحت صحبة بها مساحة من التفاهم الإنسانى.

انتقلتُ بماجدة إلى مساحة خاصة كانت تظهر من اختياره لموضوعات وعناوين كتبه ورواياته، وهى مساحة المتصوف.

أمسكت بطرف الخيط وقالت: مساحة التصوف فى حياة جمال كانت كبيرة جدًا، كانت ممارسة حقيقية، لديه أكبر مكتبة فى التصوف يمكن أن تراها فى حياتك، من أول كتب المتصوفة الكبار إلى الأذكار الصغيرة مجهولة المصدر، كان فى علاقاته الإنسانية صوفيًا حقيقيًا، كان يبذل بإخلاص بلا حدود، وكان مخلصًا طوال الوقت فى قضاياه وقناعاته، لم يكن هناك شىء يغريه ليخرجه عما يعتقد ويشعر ويحس، كان ما بداخله طاغيًا عليه طوال الوقت.

سألتها: هل كان له شيخ أخذ عليه العهد.. أم أن الغيطانى كان هو الولى والمريد فى نفس الوقت؟

قالت: لا أستطيع أن أنفذ إلى هذه المساحة الحقيقة، لكن كانت له علاقات بأقطاب صوفيين، وعلاقته بالدكتور أحمد الطيب كانت خاصة ومميزة، وأعتقد أنه كان سارحًا فى هذه المنطقة بما وصل إليه وما لم يصل، وأعتقد أن صوفية جمال الكبرى تمثلت فى قدرته على فتح الأبواب للآخرين، فتح الأبواب كان غرامه الخاص، يمارسه دون انتظار عائد أو شكر من أحد، وكان فى حياته صاحب أثر.

توقفت عند هذا المعنى، وسألتها عنه.

قالت: تواصل معى باحث فى الآثار بعد وفاته، وقال لى: لقد ظللت سنين طويلة أدرس الآثار، حتى التقيت به فعلمنى أن للأثر روحًا، فتغير منهجى كله فى التعامل مع الآثار.

كان نجيب محفوظ حاضرًا فى حياة جمال الغيطانى كما لم يحضر أحد.

سألت ماجدة الجندى عما كان بينهما وجمعهما فى طريق واحد، وعما لا نعرفه فى هذه العلاقة.

قالت: جمال عرف الأستاذ نجيب وعمره ١٧ سنة، كان يعمل فى مؤسسة اسمها التعاون الإنتاجى فى خان الخليلى، وهو كان دارس نسيج، ومن اللحظة الأولى لمعرفته به وهو يتحرك على خريطته، يدور معه فى حلقة خاصة، وكان يحمل نوتة صغيرة يدون فيها بعض الملاحظات فى جلسات الأستاذ، وسألتها عنه مرة، فقال لى: أنا سأرحل وبداخلى ما أسرّ به الأستاذ نجيب لى، لن تعرفه ولن يعرفه أحد.

الأغرب بالنسبة لى ما كشفته ماجدة.

تقول: جمال كان يحب الأستاذ نجيب حبًا ساعده على مقاومة أى إغراء بالشهرة أو السبق، فأنت تعرف الصحافة وسطوتها، وجمال كان يعرف أشياء ويستمع إلى أشياء يمكن أن يستفيد بها فى عمله الصحفى، لكنه كان يكبح جماح أى إغراء بذلك، علاقتهما كانت بحرًا فيه موجات كثيرة، كتب عن بعضها وحجب البعض الآخر.

لدى ماجدة ما هو أكثر، تقول: بعد وفاة الأستاذ نجيب عرفت من ابنته أنها كانت هى وشقيقتها تقرآن القرآن وتدعوان لوالديهما، وترامى إلى سمعهما أن أحد الأشخاص يبكى بصوت عالٍ يصل إلى درجة النهنهة، ولما ذهبتا إلى مصدر صوت البكاء وجدتا «جمال» يبكى، كان يبكى على أب فقده، ورفقة سيفتقد إليها.

قلت لها: الأستاذ نجيب والأستاذ جمال كل منهما الآن فى معية الله، وأحيانًا نجد من يقول إن نجيب حجب جمال خلف ضوئه.. ما تعليقك على ذلك؟

قالت: هذا غير صحيح تمامًا.. ورغم أننى غير متخصصة لكن يمكن أن أقول إن مشروع جمال مختلف تمامًا عن مشروع الأستاذ نجيب الذى كتب الرواية بالنظرية الغربية، بينما أسس جمال لمشروع مختلف، هو كان يقول عن نفسه إنه قادم من حضارة السرد، وإنه ابن ألف ليلة وليلة، فالمشروع فنيًا مختلف، ثم إن جمال نال العديد من الجوائز وترجمت أعماله إلى ٤٠ لغة وتم هذا فى وجود الأستاذ نجيب، والحقيقة أن المشروع الذى ينتظر غياب مشروع آخر ليظهر أعتقد أنه ليس مشروعًا أصليًا.

انتقلت بماجدة الجندى إلى جمال الغيطانى الصحفى.

قلت لها: عدد قليل جدًا من الأدباء الذين عملوا بالصحافة خطفتهم المهنة وأحالت كتاباتهم الإبداعية إلى أعمال عابرة وسطحية، لكن هذا لم يحدث مع جمال الغيطانى الذى حافظ على تماسك مشروعه الإبداعى، لكن قبل أن نتحدث عن هذا، أريد أن أسألك سؤالًا مهمًا عن اللحظة التى وجد جمال الغيطانى صورة خيرت الشاطر

فتح الأبواب كان غرامه الخاص يمارسه دون انتظار عائد أو شكر من أحد وكان فى حياته صاحب أثر

كان شديد الالتزام ناحية القراءة والكتابة وكان يشحن نفسه بمختلف الفنون

كيف توقف الهجوم جنوب الاسماعيلية

هجوم الضفادع

قال عنيف.. حول الهجوم المضاد المصرى.. وبيرجنجافة الى القاء مصر الحيوية

قصة شهيد
إبراهيم الرفاعى
الأسطورة والواقع
جمال الغيطانى

كان يحب الأستاذ نجيب حبًا ساعده على مقاومة أى إغراء بالشهرة أو السبق

العارف

العالم السرى لجمال الغيطانى

عندما ذهب محمد مرسى ليحلف اليمين الدستورية كتب جمال فى يوميات الأخبار مقالًا كان عنوانه «وداعًا مصر التى نعرفها»

عناصر جماعة الإخوان الإرهابية كانوا يحرمونه من العلاج فقد كانوا يريدون قتله والوقائع كثيرة

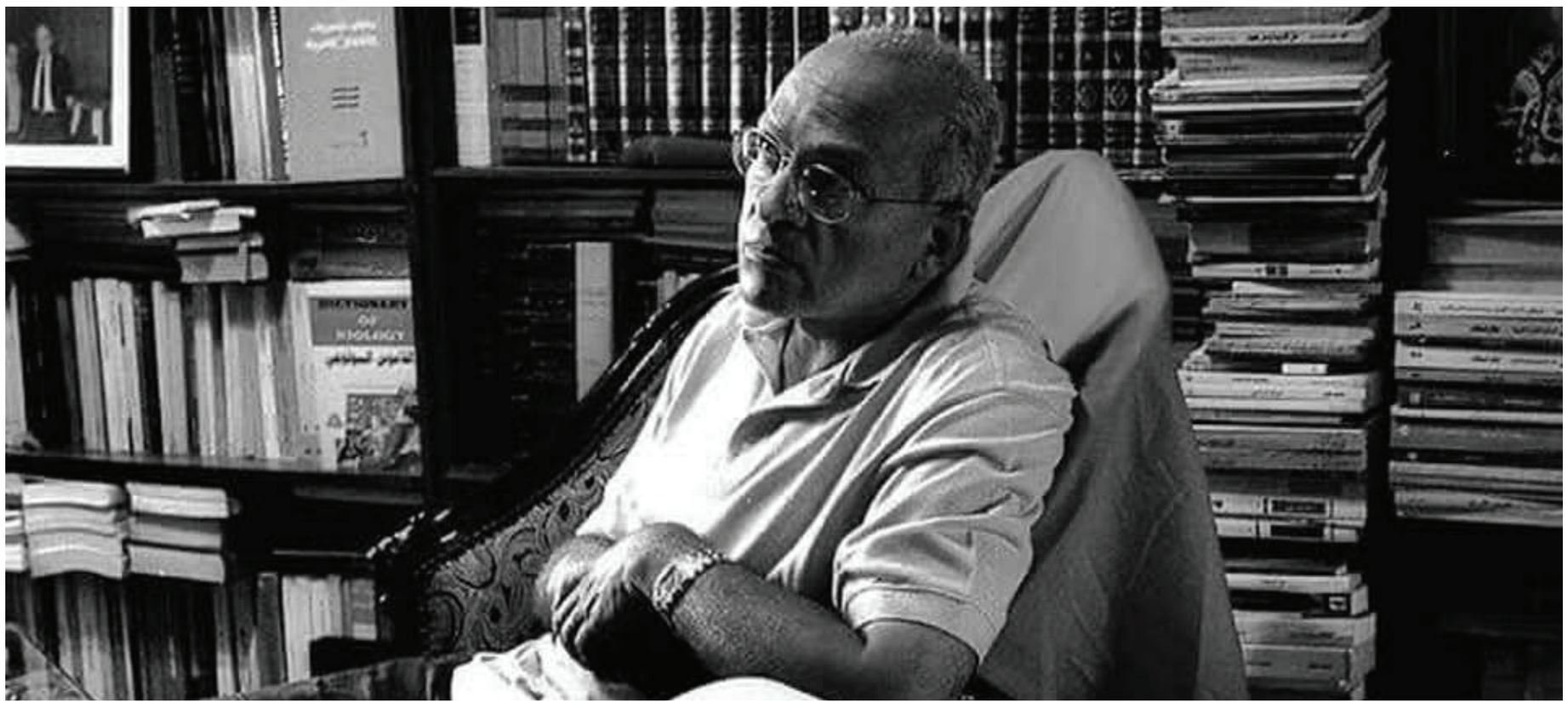

جمال الغيطانى أكرمنى كرفيقة وزوجة كما لم يكرم أحد زوجته

ماجدة

قبلة محمد على رأس والده

محمد جمال الغيطانى قرأ مذكرات سعدالدين الشاذلى وهو عنده سبع سنوات

على غلاف أخبار الأدب، الجريدة التى أسسها لمنظومة قيم تختلف تمامًا عن منظومة القيم التى كان يمثلها خيرت؟

قالت: جمال أسس أخبار الأدب كجزء من محبته للمعرفة، كان فيها جزء من روحه، وتبويبها يقول ذلك، كانت ترجمة لرؤية وثقافة ومكتبة وعلاقات جمال، دخل هذه التجربة بإخلاص شديد لما يؤمن به، وعلى فكرة أنا كنت ضد أن يدخل هذه التجربة لأننى كنت أعرف أنه سيدفع ثمنها من صحته ومن وقته الذى كان ثمينًا جدًا، لقد أهدى للصحافة العربية تجربة ثقافية متكاملة فريدة امتزجت فيها المهنة بالمعرفة.

المهم فى هذه التجربة أيضًا أن جمال تخير وربّى ونمى، ومنح فرصًا فى الإدارة الصحفية، وأنا أعمل فى الصحافة من خمسين عامًا لم أرَ رئيس تحرير مثله أبدًا، عندما كانت تأتيه دعوات للسفر كان يوزعها على العاملين معه كحافز، وكان يقدم صغار المحررين للآخرين بزميلى فلان أو زميلتى فلانة.

وعندما ظهرت صورة خيرت الشاطر على غلاف أخبار الأدب كان قد غادرها بسنوات، وقبل أن أحدثك عن تلقيه هذه الصورة اسمح لى أن أعود بك إلى الوراء قليلًا قبل نشرها.

عندما ذهب محمد مرسى ليحلف اليمين الدستورية كتب جمال فى يوميات الأخبار مقالًا كان عنوانه «وداعًا مصر التى نعرفها»، وبعدها قرر أن يكتب عمودًا يوميًا فى الأخبار كان عنوانه الثابت «عبور»، وكان يجيب فيه عن سؤال مهم وهو: لماذا لن يقبل الجسم المصرى الجسم الغريب الذى يريدون زرعه فيه، كان يؤسس لفكرة أن هؤلاء لا يصلحون لقيادة مصر، وقد صدرت مقالات هذا العمود الثابت فى كتاب بعد رحيله.

لقد علمنى جمال أننى حتى أحب مصر فلا بد أن أعرفها جيدًا، هو أحب مصر لأنها كان يعرفها معرفة المحيط بها، وأعتقد أن موقفه من الإخوان كان يستند إلى أنه كان يعرف مصر جيدًا.

استوقفت ماجدة الجندى التى كانت تسير بى فى اتجاه اللحظة التى سألتها عنها.

قلت لها: هل كانت الجماعة تمارس مضايقات ضده بسبب ما يكتبه؟

قالت: كانت هناك مضايقات كثيرة، وأنا لا أحب المتاجرة بذلك، من هذه المضايقات أنهم كانوا يحرمونه من العلاج، فقد كانوا يريدون قتله والوقائع كثيرة، لكننى كما قلت لك لا أحب المتاجرة بما جرى.

عدت أسألها عن اللحظة التى أمسك فيها بأخبار الأدب وعليها صورة خيرت الشاطر؟

قالت: سمعته وهو يطوى الجريدة ويقول هذا هو أسوأ أيام حياتى، كنت أتمنى ألا أعيش حتى أرى هذا الكابوس.

قلت لها: دعينا نعود إلى بدايات جمال الغيطانى الصحفية، عمله كمراسل حرب؟

قالت: جمال التحق بأخبار اليوم فى العام ١٩٦٨، وعلى الفور ذهب إلى الجبهة لعمل سلسلة تحقيقات عن «المقاتل المصرى»، وعندما قرأها الرئيس عبدالناصر أعطى توجيهاته أن يكمل جمال ما بدأه، قال: نحن نحتاج إلى هذه الكتابة التى تبرز البُعد الإنسانى لجيش يعيد بناء نفسه من جديد.

لم يكن جمال مراسلًا حربيًا تقليديًا، ذهب إلى مدن القناة وأقام هناك، وكان أول من كتب عن إغراق الغواصة «دكار»، وأول من كتب عن إسقاط طائرة فانتوم، وظل يحتفظ بقطعة منها يستخدمها كتقالة ورق، وأول من طار ليلًا مع الشهيد محمد كريدى.

جمال ذهب إلى الجبهة فى لحظة فارقة، كان شاهدًا على حرب الاستنزاف، وعندما كتب الدكتور عبدالعظيم رمضان يقلل من أهميتها ويشكك فيها، دخل معه فى معركة صحفية وصلت إلى القضاء، وجاء المشير الجمسى والفريق فوزى، رحمهما الله، وشهدا أمام القضاء لصالح رؤية جمال.

فى منتصف تجربة جمال كمراسل عسكرى يظهر لى الشهيد إبراهيم الرفاعى الذى خلده جمال بما كتبه عنه، وبمجرد أن ذكرت اسمه، أخذت منى ماجدة طرف الكلام.

قالت: علاقة جمال بالرفاعى كانت من بين أسراره الروحية، عبر معه هو والأستاذ عبده مباشر والمصور مكرم جادالكريم، وخلال البطولات التى كانت تقوم بها المجموعة ٣٩ قتال لم يكن أحد يكتب عن الرفاعى قائد المجموعة، لكنه بعد استشهاده فى حرب أكتوبر بدأت الكتابات تتوالى عنه، لكن جمال كان أول من كتب عنه، وحصل على جائزة الدولة التشجيعية عن روايته «الرفاعى».

تلخص ماجدة جمال كمراسل عسكرى بقولها: كان تجربة استثنائية فى معايشة الحرب والإنسان، ومن هنا تأتى قيمة كتابه «المصريون والحرب» الذى صدر للمرة الأولى عن مؤسسة روزاليوسف فى العام ١٩٧٤، فقد جاء ثمرة معايشة للقطاع المدنى مع القطاع العسكرى، ثم تأتى أهمية المقدمة التى كتبها للكتاب الذى أتمنى أن يقرأه المصريون جميعًا، ليعرفوا سر العلاقة الخاصة جدًا التى تربط بين المصريين وجيشهم.

تتحدث ماجدة عن مقدمة الكتاب تقول: هى مقدمة توثيقية لعلاقة المصريين بالجيش من قبل عصر مينا موحد القطرين، عندما كانت مصر عبارة عن مجموعة قبائل، كيف نشأت الدولة من خلال الجيش؟ هذه توثيقات مهمة ولها هوامش ومراجع وخلفيات، وكلها تجيب عن السؤال الذى يردده الجميع عن علاقة المصريين بجيشهم.

لم تكن علاقة جمال الغيطانى بالجيش المصرى علاقة مراسل عسكرى ولكنه كان منتميًا له بشكل كامل، وهو ما جعلنى أسأل ماجدة عن التأبين الذى صدر من القوات المسلحة.

أعادها السؤال إلى ما كان.

قالت: جمال كان يقول لأولاده أنا دمى كاكى، وأنا أشهد أن كلامه عن الجيش لم يكن شعارات أبدًا، ولكنه كان يعرف للجيش قدره، وهو ما كان يعرفه رجال الجيش، وظهر ذلك فى التأبين الذى صدر عن القوات المسلحة فى حق جمال، الذى كان ختامه واضحًا ودالًا، فقد قالوا إن الرجال من أمثال جمال الغيطانى يرحلون ولا يموتون.

وقفت مع ماجدة عند مشهد وقفت فيه مع وزير الدفاع السابق الفريق صدقى صبحى، بمجرد أن ذكرت الاسم وجدتها تستعيده بتفاصيله.

قالت: أنا وأولادى فى رقبتنا دين للمؤسسة العسكرية، لأنها فى ضعف جمال كانت سندًا، عندما كان فى العناية المركزة زاره الفريق أول صدقى صبحى، وهو واقف بالقرب منه قال لى: مصر هنا فى دماغ هذا الرجل، سنفعل المستحيل حتى لا نفقده.

أخذت ماجدة إلى مساحة جمال الغيطانى الزوج والأب والجد.

مازحتها: اتفقنا أن جمال هو العارف بالوطن، فهل يمكن أن نتفق على أنك العارفة بجمال الغيطانى.. كيف كان اللقاء الأول؟

قالت: والله هذه كانت لحظة قدرية بحتة، كان فيه ارتباط غريب جدًا بين ارتباطنا وحرب ٧٣، كانت السويس محاصرة، وقتها أنا كنت فى سنة أولى جامعة سنة ٧٢، وكنت أعمل فى مجلة «صباح الخير» تحت التمرين، رحنا السويس، وأنت تعرف أن صباح كانت تصدر الثلاثاء وأخبار اليوم تصدر السبت، وكنت أعمل على موضوع «خطابات المجندين إلى أسرهم» للمجلة التى تصدر الثلاثاء، وفوجئت بأن أخبار اليوم التى صدرت السبت بها نفس الموضوع.

كانت لحظة إحباط صعبة، فالموضوع الذى عملت عليه احترق، لكن لفت نظرى أن من كتب الموضوع هو جمال الغيطانى الذى لم أكن أعرفه، لفت انتباهى أنه يهتم بالجوانب الإنسانية، وهذا عملنا فى صباح، وبدأت من وقتها أركز معه.

قررت أن أكمل عملى، ولما فتحت السويس قررت أن أذهب مرة أخرى لمقابلة أعضاء «منظمة سيناء العربية» وكانوا عمال وموظفين ومهندسى شركات السويس، ولعبوا دورًا كبيرًا فى المقاومة بدعم من القوات المسلحة، جلست معهم وكانوا فى منتهى الأريحية واللطف، لكنهم قالوا لى: آسفين جدًا لن نتكلم إلا مع الأستاذ جمال الغيطانى لأننا نثق فيه جدًا، لم أستسلم، تحايلت عليهم، لكنهم رفضوا فعدت كما ذهبت دون كلمة واحدة منهم، فترسخ اسمه أكثر فى نفسى.

بعدها جاء جمال إلى روزاليوسف ليتابع طباعة كتابه «المصريون والحرب» ووجدته يجلس مع الأستاذ رءوف توفيق الذى قال لى: مش عايزة تتعرفى على اللى بيجهض انتصاراتك الصحفية، فسألته: مين؟ فقال: زميلنا الأستاذ جمال الغيطانى، فسلمت عليه بكل إباء، وظل ما فى القلب فى القلب.

وحدث بعدها أن المسافر خانة وبيت السحيمى وعددًا من البيوت الإسلامية عرضت للإيجار، وكنت مهتمة بقطاع الآثار، فنزلت أعمل تحقيق عن هذه البيوت، وكان رئيس الآثار الإسلامية وقتها هو الأستاذ عبدالرحمن عبدالتواب، ولم أكن أعرفه كويس، فوجدت الأستاذ رءوف توفيق يقول لى: أفضل من يعرفك على هذه المنطقة هو جمال الغيطانى، تواصلت معه وذهبنا إلى المنطقة وأنجزت تحقيقًا مهمًا وكان هو السبب.

قلت لها: القدر هو من قرب بينكما فعلًا؟

ابتسمت وهى تقول: ألم أقل لك إنها كانت لحظة قدرية بحتة.

سألتها: لو لخصتِ لى جمال الغيطانى فى عبارة واحدة.. ماذا تقولين فيها؟

أجابت: جمال الغيطانى أكرمنى كرفيقة وزوجة كما لم يكرم أحد زوجته.

قلت لها: لدىّ إشارة مهمة وهى أن الرجل عندما يحب زوجته يطلق اسمها على ابنته.. فهل تناقشتم فى اسم ماجدة الصغيرة؟

ردت: الحقيقة كنا محضرين اسمين من الحضارة الفرعونية هما ميريت ونفرتارى، ودخلت للولادة بالاسمين، ولما فقت وجدته أطلق عليها اسم ماجدة، وداعبته وقتها وقلت لك أنت تحاول تأمين نفسك، لم تطلق عليها اسمًا آخر حتى لا أسالك لماذا ومن صاحبة هذا الاسم؟

سألتها عن معاملته لماجدة الصغيرة، فبدأت فى رسم صورة إنسانية للأب، قالت: كان يطلق على ماجدة «الحبوب» ويقول إنها أمه الصغيرة، وكان يداعبها وهو يمسك بشعرها ويقول لها: رائحة شعرك مثل رائحة شعر أمى، وعندما جاء مالك رأيت جمال الجد، فقد كسر مالك حفيدنا كل قواعد جمال وهو ما لم يقدر عليه أحد منا أبدًا.

لم يختلف تعامل جمال مع محمد ابنه عن تعامله مع ماجدة ابنته.

تقول ماجدة الجندى: محمد دبلوماسى وهو مهندس اتصالات ثم حصل على ماجستير فى الإدارة من جامعة كولومبيا، ثم ماجستير فى الإدارة من جامعة بوسطن، ودرس الحقوق بعد ذلك، والغريب أن القدر لعب لعبة عظيمة، فجمال كان توأم روحه الشهيد إبراهيم الرفاعى أسد الصاعقة، ومحمد توأم عمره الشهيد أحمد منسى بطل الصاعقة.

محمد أخذ الجزء الاستراتيجى العسكرى من جمال، قرأ مذكرات سعدالدين الشاذلى وهو عنده سبع سنوات، معرفته بالجيش المصرى معرفة منهجية، وجمال كان يأخذه بعد حرب أكتوبر وهو يقابل قادة حرب أكتوبر، وكان يستمع منهم فتطبع بهم وتحول الانطباع إلى معرفة بالجيش المصرى ورجاله.

ولأنه لا بد لهذا الحوار من خاتمة، طلبت من ماجدة الجندى أن تطلب شيئًا لجمال وأن توجه له رسالة، فتحدثت.

عن الطلب قالت: سأعيد ما اقترحه الأستاذ مكرم محمد أحمد، فقد اقترح إطلاق اسم جمال على أى منشأة فى حى الجمالية، الحى الذى نشأ فيه وتشربه وأعاد إنتاجه ونقله إلى العالم وأنسنه، لا أريد له شيئًا آخر، أريد فقط أن يطلق اسمه على أحد بيوت القاهرة الإسلامية فى حى الجمالية الذى كان بالنسبة له الدنيا كلها.

وأما الرسالة فكانت: يا جمال.. المخلصون وأصحاب المشاريع الحقيقية يرحلون بالجسد ويبقى ما قدموه.

عندما كانت تأتيه دعوات للسفر كان يوزعها على العاملين معه كحافز

العارف

العالم السرى لجمال الغيطانى

أثر الغيطانى

ما الذى سيبقى من «صاحب» التجليات؟

د. يسرى عبدالله

عايش جمال الغيطانى «١٩٤٥ـ ٢٠١٥» صخبًا شديدًا، وخاض معارك فكرية وثقافية عديدة، لكن فى متن النقد الأدبى، فقد حاز جمال الغيطانى مشروعًا سرديًا خلاقًا، يخصه وحده، يعتمد فى جوهر بنائه على جدل التاريخى والجمالى، فكانت رحلته مع النص ارتحالًا فى التاريخ المصرى ذاته، قديمه، ووسيطه، فضلًا عن معاينة لحظات معاصرة، وقلقة من عمر الأمة المصرية؛ ومن ثم فإن استعادة جمال الغيطانى على صفحات «حرف»، فى ذكرى ميلاده «٩ مايو»، تعد استعادة لجملة من قيم الثقافة الوطنية، ونحن هنا نضع المنجز الأدبى للكاتب الراحل فى «ميزان النقد» بعد سنوات خلت من الصخب، والمباعدة الزمنية.

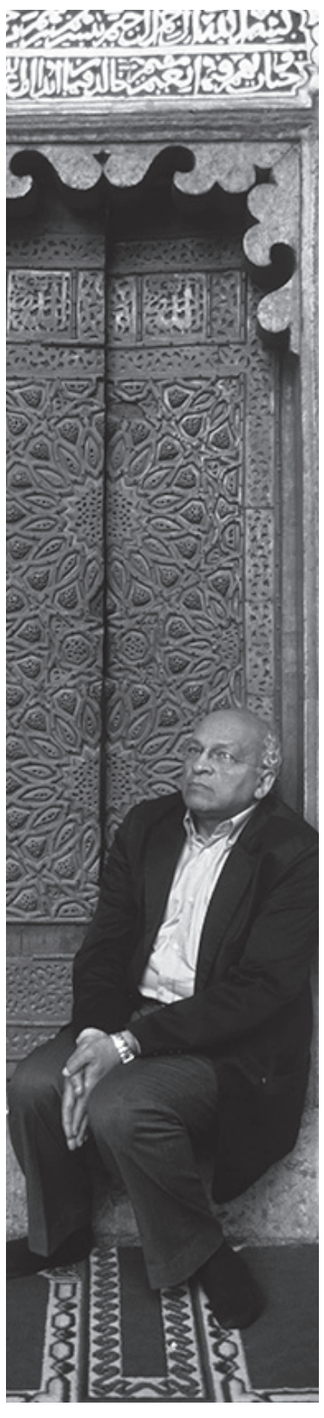

1 طرف من إبداع الغيطانى

ثمة بداية لافتة للكاتب جمال الغيطانى، تمثلت فى مجموعته القصصية «أوراق شاب عاش منذ ألف عام»، وهى مجموعة تطرح أسئلة متجددة حول ماهية النوع الأدبى، خاصة فى بنائها المكون من مقدمة، وأربعة نصوص، تضع ثلاثة منها قدمًا فى التاريخ، وأخرى فى الواقع عبر تكنيك الإسقاط الرمزى، وتخوض واحدة منها «أيام الرعب» دراما الحياة اليومية، عبر مساءلة «سردية الثأر»، التى تجلب معها خليطًا مربكًا من مشاعر الخوف، والرعب، والإخفاق، عبر بطلها المركزى «محروس فياض سلامة» الذى تنفتح القصة على خطاب موجه إليه من جده «سيد أبوالغيط» : «ولدنا الغالى محروس فياض..». يحذره فيه من ثأر يطارده، وتنهض القصة على آليات التوتر الدرامى، وتصبح جدارتها فى استكشاف مساحات الخوف داخل النفس البشرية، واللعب على الوتر النفسى للشخصيات.

أما المقدمة فهى تحيل على النكسة، التى يستذكرها شاب أنهكته الأيام، مثلما تحيل على مجاوزتها، وكونها أضحت ماضيًا. تمثل المقدمة إطارًا سرديًا للمجموعة، التى تبدو فى تجل من تجلياتها بحثًا عن الأسباب العميقة لما حدث فى العام ١٩٦٧، ويتخذ هذا البحث إهابًا تاريخيًا، يتمثل فى القصص الثلاث: «المقتبس من عودة ابن إياس إلى زماننا/ هداية أهل الورى لبعض مما جرى فى المقشرة/ كشف اللثام عن أخبار ابن سلام». ففى «المقتبس من عودة ابن إياس إلى زماننا» يوظف الكاتب تكنيك الارتحال فى الزمن، عبر استعادة المؤرخ المملوكى الشهير ابن إياس، واستحضاره فى قلب المأساة الراهنة، وفى «هداية أهل الورى لبعض مما جرى فى المقشرة» ثمة استهلال قصصى يتكئ على حيلة تقنية مراوغة تتمثل فى عثور السارد الرئيسى على مخطوط نادر، يحكى فيه صاحبه «آمر السجن» عن بعض مما رآه، وعاينه، ويصبح المخطوط بمثابة عين الكاميرا التى تنقل لنا بعضًا مما دار:

«اطلعت على هذا المخطوط فى خزانة كتب أحد الجوامع القديمة بالجمالية، وأثارنى بغرابة موضوعه، إذ لا يمت إلى أى من المسائل المتعلقة بالفقه أو الشرع، حيث تضم هذه الصفحات ذكريات آمر السجن الذى عرف فى عصور المماليك الغابرة بالمقشرة، وكثير من صفحات المخطوط مفقود، غير أننى آثرت نشر ما وجدته لندرة مادته وغرابتها، ولم أتدخل إلا نادرًا؛ كذا لاحظت أن المؤلف لم يحدد عصر السلطان الذى تولى فيه إمرة المقشرة، غير إنى أرجح أنه كان زمن السلطان أشرف قايتباى، أو الأشرف قنصوه الغورى: آخر سلاطين المماليك.

ولعل القارئ أو الباحث يجد فى هذه الصفحات مادة مفيدة وصفحات هامة لبعض مما كان يجرى فى مصر خلال هذه الأزمان البعيدة، غفر الله لنا ما تقدم وما تأخر من ذنوبنا». تأخذ اللغة فى الانحراف عن مسارها المعاصر لتأخذ إطارًا تاريخيًا/ تراثيًا، يتواءم مع وعى السارد من جهة، والمروى عنه من جهة ثانية: «أما بعد..

فلما كنت توليت إحدى الوظائف الغريبة فى زمانى، التى أخدم بها مولاى السلطان، ونظرًا لما وقع لى من حوادث غريبة ونوادر قد تبدو للبعض أليمة وللبعض ظريفة، ولما كنت أقضى جل وقتى فى المقشرة، قلت لأخط شيئًا مما أراه وما أسمعه؛ ومن يدرى، ربما قرأ مولاى أشرف زماننا ما كتبته فيعرف إلى أى حد تفانيت فى وظيفتى وذقت فيها الألم، وكدت أرى منها الهلاك، عندئذ يرق قلبه، وينعم علىّ بتقدمة ألف أو ربما دنانير من بعض جوده، وأعلم غفر الله لنا أجمعين، أن السجن الذى أنا آمره، يقع بجوار باب الفتوح فيما بينه وبين جامع الحاكم بأمر الله، وسمى بالمقشرة لأنه أقيم فى موضع كان يقشر فيه القمح، والعامة والسوقة وجميع أهل مصر يقولون إنه من أبشع السجون وأشدها هولًا، يقاسى المسجونون فيه من الغم والكرب ما لا يوصف، والذين يقولون عنه هذا لم يروه من الداخل؛ فكيف بهم إذا دخلوه؟ ولو مر الرجال أو النساء من جواره لقالوا سرًا أو علانية وهم عن بنائه يبتعدون: اللهم عافنا شره وبلاءه، أسمعهم يقولون ذلك فأسخر منهم، ولا يستبعد واحد منكم نفسه عن المقشرة، ربما اليوم وسط عيالك وإلى جوار امرأتك؛ وفى الصباح فى أسفل طباق المقشرة.

فى بعض الليالى التى أقضيها هنا أضيق بوجودى وبنفسى، وفى النصف الثانى من الليل يكون الهدوء غويطًا كالموت والظلام مخيفًا حتى للذين ألفوه».

تبدو سردية القسوة حاضرة بجدارة فى المخطوط/ النص الذى يمثل تنويعة على متن استحضار التاريخ من أجل مقاربة لحظة معاصرة «نكسة السابع والستين»، وتفعيلًا لفهم الحاضر عبر تفكيك الماضى ومساءلته.

تلوح ثنائية السجين والسجان، وتنحو القصة صوب مقاربة سيكولوجية السجان الذى يجد ضالته فى «المقشرة/ السجن»، ويصبح الحوار السردى بينه وبين الشيخ مسعود دالًا، وكاشفًا فى الآن نفسه عن تعقيدات لا نهائية فى سيكولوجية «آمر السجن»:

«من ليالٍ؛ أوقفنى الشيخ مسعود عند حارتى بعد أن تركت بيتى، وقال:

. ألا تخاف الله يوم القيامة؟ قلت: أستعيذ به واليه ألجأ، هل رأيتنى فاسقًا أو مقصرًا فى الفريضة أو أبلغك عنى الزعر أننى جدفت فى حق ربى؟ لا والله يا شيخ مسعود، قال: لا هذا ولا ذاك، لكنى أسمع أنك تذيق المحابيس صنوفًا من العذاب، وإنك تجمع الكثيرين فى موضع يضيق عنهم غير متمكنين من الوضوء والصلاة، وقد يرى بعضهم عورة الآخر.

قلت: كل عمل وله سوءاته وميزاته يا سيدنا، واعلم أن كل ما بلغك كذب من أوله إلى آخره، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، طلبت منه أن يدعو لى بالمغفرة، قال: اللهم احجب عنا بلاءك وشرك، فمضيت وبنفسى منه، كأنه يظننى آمرًا لبرج القلعة ولخزانة شمائل وسجن الديلم أيضًا أو العرقانة، ما ذنبى أنا؟ هل أنا الذى ابتدعت الحبوس؟».

مثلت «أوراق شاب عاش منذ ألف عام» حالًا من الإرهاص بولع ما لدى الغيطانى يتشكل صوب أنسنة التاريخ، والكشف عن المسكوت عنه داخله، هذا الولع الذى صار أكثر وهجًا وإحكامًا فى روايته الفاتنة «الزينى بركات»، والتى رصدت مرحلة فارقة فى مسيرة الأمة المصرية، وهى تنتقل من جلاد «الشهاب الأعظم زكريا بن راضى» إلى جلاد جديد «والى الحسبة الزينى بركات» أو بالأحرى من الاستبداد المملوكى إلى الاستبداد العثمانى، وفضلًا عن التحولات التاريخية التى ترصدها الرواية على مهل، مستكشفة تفاصيل المكان والزمان الروائيين بلغة تنحاز إلى المحكى عنهم، وعصرهم ووقائعهم، فإن عالمًا تخييليًا يقيمه الكاتب ويشيده بروح شفيفة، فتلوح الحكايات الفرعية عن المخدوعين، والبسطاء، والثوار والمحبين لتضاف إلى المتن السردى فى مساءلته للقمع عبر تحرير النص/ تحرير التاريخ.

قدم الغيطانى نموجًا فريدًا فى جدل التسجيلى والتخييلى فى روايته «الزينى بركات»، حيث القدرة على خلق مسارات سردية يتقاطع فيها التوثيق مع المخيال، ويتجادل فيها الواقع مع الحلم.

إن الولع بالتاريخى لم يكن منشأ فى الفراغ لدى الغيطانى، بل كان مصحوبًا بوعى حاد بحركته، مرتبطًا على نحو آخر بسؤال المصير ذاته، أو ما يمكن أن يسمى «سؤال المآلات»، هذا السؤال الذى وسم نصوصه فيما بعد وخاصة فى «التجليات» التى بدت مغامرة فى الزمان، وضربًا فى فضاءات المجهول، فاتسمت بنزوع فلسفى غير منكور، والأهم استيحاء النص من التراث الصوفى، فى تماس ظاهرى مع «ابن عربى»، وإن ظلت للتجليات بأسفارها الثلاثة منطقها الجمالى الخاص، ونزوعها السردى الذى يتجادل فيه الذاتى مع الموضوعى، كما تتقاطع فيها الأزمنة، عبر لغة رهيفة تضع قدمًا فى التراث وأخرى فى الواقع، وتتسم بالتنوع فى التعبير عن المحكيات المتعددة فى النص، كما تتسم بالبعد الإشارى الذى يسم الإرث الصوفى جميعه، مثل: «تجلّ وتجلّ، إن النائم يرى ما لا يراه اليقظان».

ومن المنحيين التاريخى والصوفى إلى المنحى الواقعى الذى يعيد صوغ العالم جماليًا، فيرصد واقعًا مسكونًا بالقمع والخوف والوحشة فى «وقائع حارة الزعفرانى»، والتى حوت نزوعًا تحليليًا فى السرد أسهم فى تعميق الرؤية داخل نص شغوف بالحكى التقريرى والخبرى.

فى «دفاتر التدوين» نصبح أمام مشروع سردى ممتد: «خلسات الكرى/ دنا فتدلى/ رشحات الحمراء/ نثار المحو/ نوافذ النوافذ/ رن/ من دفتر الإقامة»، يسعى صوب استجلاء العالم عبر أدوات الحدس، والتأمل الذاتى، ووصل ما كان بما هو كائن، وربما بدت الدفاتر الثلاثة الأولى: «خلسات الكرى/ دنا فتدلى/ رشحات الحمراء» حاوية نزوعًا جماليًا شفيفًا عن جعل الذات مرآة للعالم، فضلًا عن المراوحة بين الفنتازى والحقيقى، والتعاطى مع فكرة الزمن بوصفها فضاء وجوديًا ودلاليًا فى آن واحد. وما بين الاعتماد على المشهدية البصرية فى توصيف الأمكنة والأشياء، فى «دنا فتدلى»، حيث التوصيفات المدهشة للقطار، والاتكاء على تفعيل الذاكرة والغرق فى نوستالجيا الولع بالحبيبة الأولى، وامتداداتها فى الزمان والمكان عبر تفاصيل الحياة وحوادثها.

بدا الإرث الذى حمله جمال الغيطانى بوصفه مراسلًا عسكريًا شارك فى معارك الاستنزاف وفى حرب أكتوبر المجيدة ١٩٧٣، حافزًا مهمًا صوب التعبير الجمالى عن لحظات مفصلية فى عمر البشر والجنود، فكانت أعماله التى مثلت نموذجًا دالًا على ما يعرف بـ«أدب الحرب»، على نحو ما نرى فى عمله الأدبى «حكايات الغريب» والذى يعتمد على آلية التداخل بين الأزمنة ومن ثم نرى فيه رصدًا للحظات التى تسبق الحرب واللحظات التى تليها مباشرة، وإن ظل النص مفتوحًا على أفق لافت يتعلق بمجرى التحولات المجتمعية التى حدثت فيما بعد فى الواقع المصرى، أو حين يعاين بطولة المجموعة ٣٩ قتال، قائدها الملهم إبراهيم الرفاعى فى نصه «الرفاعى».

إن التباينات المختلفة فى المنجز الإبداعى لجمال الغيطانى تكشف وبجلاء عن كاتب حقيقى، يملك سردًا يخصه، ومشروعًا دشنه باقتدار فى مسيرة السردية المصرية والعربية، وظل جمال الغيطانى مشغولًا بهويته المصرية والعربية، ولذا سنجد أن رؤية العالم فى نصوصه المختلفة تتبلور حول سؤال الهوية، وكان ولعه بالعمارة الإسلامية، والتاريخ المصرى القديم فى الآن نفسه تعبيرًا دالًا على كاتب يدرك غنى الموزاييك الحضارى المصرى بتنويعاته المختلفة، وروافده الثقافية المتعددة.

«لا خطر طالما نمضى، الخطر كله إذا توقفنا»، ربما يصبح هذا المجتزأ من «التجليات.. الأسفار الثلاثة» مفتاحًا آخر لمقاربة المنجز الإبداعى والفكرى لجمال الغيطانى. وهو ليس مقطعًا سرديًا كاشفًا عن سيكولوجية الراوى الرئيسى للعمل الفنى، قدر ما هو كاشف عن سيكولوجية جمال الغيطانى ذاته، الذى لم تكن كتابته وحركته داخل المحيط الثقافى العربى سوى مجلى لهذه الجملة الدالة؛ حيث كان التخطى والمجاوزة سمتين مركزيتين تظللان عطاء خصبًا، وممتدًا للكاتب الراحل، وبقدر اتساع جغرافيا السرد فى نصوصه الإبداعية، وترحاله فى الزمان، والمكان، وسفره فى الزمن الذى يعد أيقونة مركزية فى أعماله، وتجواله بين التراث الذى تماهى معه، والواقع الذى عاينه عبر زوايا نظر مختلفة، بقدر اتساع ذلك كله بقدر اتساع معاركه، وتعدد محبيه، وخصومه فى الآن نفسه.

2 تلقى جمال الغيطانى

يمكننا أن نتحدث عن مفهوم الأثر، بوصفه دالًا ومعبرًا عن مدى التلقى للكتابة، وإذا كانت النصوص هى ما يبقى، فإن الإرث الذى تركه الغيطانى لا شك سيبقى أثره عبر الأعمال الأدبية العديدة التى أشرنا إلى بعضها، مع الأخذ فى الاعتبار أنه ليس ثمة صكوك جاهزة فى الكتابة، فقد يعلو الكاتب فى عمل، ويهبط فى عمل آخر، ومجمل النتاج الإبداعى للكاتب جمال الغيطانى يضعه بجدارة فى مصاف الكتاب المؤثرين فى مجرى السردية العربية، وربما يكشف عن ذلك رغبته الإبداعية فى البحث عن شكل روائى متكئ على التراث المصرى والعربى، وكذلك الأثر الذى يتجلى فى كتاب أفادوا من منحزه الروائى، فضلًا عن الترجمات المتعددة لأعماله، ونشر روايته العالمية «الزينى بركات» فى سلسلة بنجوين الشهيرة التى تنشر عيون الأدب العالمى، وسنجد أيضًا حضورًا موازيًا لأعمال جمال الغيطانى فى الدرس الأكاديمى، وإن اتسم غالبها بالنظر إلى استلهام التراث فى نصوصه الإبداعية.

وبعد.. بدت كتابات جمال الغيطانى نموذجًا دالًا على بحث الكاتب عن طريقة تخصه، ومنطق جمالى يصنعه وحده، وبما يعنى أن هاجس البحث عن مسار سرى جديد يعد جوهرًا فى روايات الغيطانى ونصوصه. والانتقالات ما بين مناح مختلفة فى الكتابة يعد من قبيل الولع بتطوير الشكل الروائى من جهة وإنتاج رؤية مركبة للعالم من جهة ثانية.

النتاج الإبداعى للكاتب جمال الغيطانى يضعه بجدارة فى مصاف الكتاب المؤثرين فى مجرى السردية العربية

العارف

العالم السرى لجمال الغيطانى

شئنا أم أبينا.. لا يبقى من الكاتب، أو الإنسان عمومًا، سوى ما فعلت أو أنتجت يداه، شعرًا، قصة، رواية، نظرية فى الفيزياء، اكتشافًا علميًا، أو حتى طبخة جديدة.. أيًا كان منتجه ومساحة وجوده فى وقته وبين مجايليه، فلا بد أن يأتى وقت تقاس فيه حياة الإنسان ومسيرته على وجه الأرض بما أنتج، وبما ترك من أثر، أو علامات تدل عليه، سواء كان ذلك المنتج يمثل إضافة إلى رحلة البشر مع الحياة والدنيا، أو حتى بالخصم من هذه الرحلة الطويلة، والمتشابكة، العامرة بالالتباسات والمراجعات، فما تراه اليوم إضافة بالغة الأهمية، ربما كان فى وقت سابق، أو لاحق، خسارة فادحة، والعكس صحيح تمامًا، ليبقى الحكم دائمًا للتاريخ، وللقادم من أجيال، وفقًا لما تقرره معايير الإضافة والخصم فى زمانها ومكانها معًا.. وفى حالة الكاتب الراحل جمال الغيطانى، تبدأ الحكاية وتنتهى من الكتابة الأدبية، فى الرواية والقصة القصيرة والمقال الصحفى، ثلاث طرق أو مسارات متجاورة يؤدى كل منها إلى الآخر، وهذه الأخيرة تمتد، فى تصورى، دون غيرها إلى مساحة أكبر من الوجود والتأثير والتأثر، خصوصًا أنها ارتبطت بإنجاز لا يزال موجودًا، وإن خفت تأثيره وغاب أو توارى، ولم يعد يتأثر بما يدور من حوله أو حتى يراه، وهو الإنجاز أو الحلم المتمثل فى جريدة «أخبار الأدب»، تلك المطبوعة اللغز، التى كانت تعد وقت صدورها أول وأهم جريدة ثقافية متخصصة فى مصر والعالم العربى، والحلم الذى شاغل كثيرًا من الكتاب والمثقفين المصريين على مر التاريخ الحديث، والذى لا أجد لحاله الآن وصفًا أدق من التعبير الشهير للسيد أحمد عبدالجواد فى فيلم «بين القصرين» المأخوذ عن رائعة الكاتب الكبير نجيب محفوظ، وبسيناريو وحوار الراحل يوسف جوهر، عندما سأله مساعده عن الكيفية التى يسجل بها مشتروات «الست زبيدة» من المحل، فقال له «اكتب عندك.. بضاعة أتلفها الهوى»، فأغلب الظن أن هذه العبارة لا تنطبق على شىء أو حدث، مثلما تنطبق على صحيفة «أخبار الأدب»، رافقتها منذ لحظة التفكير فيها، ووقت صدورها، وعند رحيل الغيطانى عنها، واستمرت معها حتى اللحظة التى تقرأ فيها هذه السطور. فهى حلم جمال الغيطانى الذى أتلفه الهوى والميل الفطرى للأقربين، للصغير حتى يكبر، وللمريض حتى يشفى، وللغائب حتى يعود.. وهى من قبله، حلم محمود أمين العالم، الذى فتح أبواب مؤسسة «أخبار اليوم» على اتساعها أمام جمال الغيطانى وغيره الكثير من الكتاب والأدباء.. وهى حلم إبراهيم سعدة، رئيس مجلس إدارة مؤسسة «أخبار اليوم» وقت صدور عددها الأول فى التاسع عشر من يوليو 1993، والذى انقلب عليها هى ورفيقاتها من إصدارات متخصصة تزامن صدورها معها دون مبرر واضح أو مفهوم.. وهى، قبلهم جميعًا، حلم جميع الكتاب والمثقفين العرب الذى راهنوا عليها لمواجهة قوى الرجعية والظلام، فلم تسلم من الصدور وعلى كامل صفحتها الأولى صورة خيرت الشاطر، وعناوين تتغزل فى شخص واحد من قيادات الإرهاب، وتدعو للسير على هديه، ووفق خطاه!!

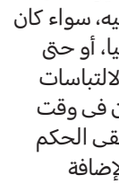

عبدالوهاب داود

أخبار الأدب

حلم الغيطانى الذى أتلفه الهوى

1 ثلاثة أسئلة لميراث الكاتب والأديب

لن أتوقف طويلًا أمام سؤال القيمة الأدبية لما تركه الكاتب الراحل جمال الغيطانى من أعمال تتوزع بين القصة والرواية والمقال، وما تمثله تلك الأعمال من إضافة أو حتى خصم، فى رصيد الإبداع والأدب العربى، أو الإنسانى عمومًا، فالحقيقة أننى لم أقرأه كاملًا، ولم تستهوِنى بعض كتبه، وأتيت على البعض القليل منها.. وأغلب ظنى أننا أمام ثلاثة أسئلة أساسية لرؤية منجز الكاتب أو الأديب، وهى فى حياة الغيطانى تبدأ وتنتهى بالمحتوى الأدبى الذى قال، وقيل عنه، إنه وهب معظم حياته له، فكان يخصص النصيب الأكبر من يومه من أجل عمله الذى اختاره لنفسه، الكتابة والقراءة، لا شىء غيرهما.. وبعيدًا عن أحكام القيمة وما يشابهها، فالسؤال الأول يخص ذلك المنتج الأدبى الغزير، وما يمثله من إضافة إلى مسار الإبداع الأدبى والإنسانى، ما تلك الإضافة؟! ما ملامحها؟، وما السمات الغالبة أو المميزة لها؟!

هذا السؤال يقودنا إلى رفيقه، الذى يخص الأجيال التالية، هل شكلت كتابات الغيطانى مدرسة، أو طريقة جديدة فى الكتابة؟ هل مهدت الطريق أمام أساليب مبتكرة فى التعبير؟! وهل ظهرت لها أجيال يمكن اعتبار بعض أفرادها كتلاميذ لتلك المدرسة أو الطريقة؟! وهو سؤال لا إجابة لأحدٍ فى وقتنا الحالى عليه، وتحدده الأجيال الجديدة وحدها، سواء من حيث الإقبال على إصدار طبعات جديدة من كتبه، أو تدارس تلك الكتب، أو حتى تداولها فى طبعات قديمة، وإن كانت الشواهد تقول إن جميع من اقتربوا منه، وعملوا معه، أو تتلمذوا على يديه فى «أخبار الأدب»، وغالبيتهم ممن يمارسون كتابة الرواية والقصة القصيرة، لم يسلك أى منهم أى طريق سار فيه الغيطانى، اللهم إلا طريق القرب من كتاب الخليج والمغرب العربى، وخصوصًا العاملين منهم فى الصحافة الأدبية، أو المؤسسات المانحة للجوائز.. وكلنا نعلم أنهم جميعًا استؤجروا للعمل فى لجان تحكيم تلك الجوائز فى بعض الدورات، وفازوا بها بتوصيات شخصية منه فى دورات أخرى، ولا يغيبون عن أى حدث تنظمه أى جهة عربية مهما كان الحدث صغيرًا، فيما لا تجد لهم أى أثر فى مؤتمرات أو ندوات تعقد فى أماكن أقرب ما يكون من مبنى المؤسسة التى ينطلقون منها.. ولن أذهب بعيدًا عندما أسألك عن عدد المرات التى قرأت فيها فى «أخبار الأدب» عن الندوات التى تعقدها اللجنة الثقافية لنقابة الصحفيين التى تقع فى الجهة المقابلة من شارعى الجلاء ورمسيس، ولن أندهش إذا جاءت إجابتك بعدد محدود من المرات، بل سوف أزيدك بأنه حتى ذلك العدد المحدود كان فى الغالب متابعة لندوات أصدقاء ومعارف أو ذوى قربى.. وفقط لا غير.

ربما لم تلتفت إلى أن الإشارة لتلاميذ الغيطانى اقتصرت على ممارسى كتابة الرواية والقصة القصيرة دون الشعر، ولكنى لن أدعك تنعم بعدم الالتفات هذا، وسأقول لك إن السبب فى ذلك يعود باختصار إلى طبيعة الشعر، ومكانته فى سلم الفنون، فهو يحتل مرتبة متقدمة عن القصة والرواية، أو لا تجوز فيه المجاملة، لا يقبلها، ولا تقبله، ويسهل كشف غير الموهوبين فيه، بينما تحتمل القصة والرواية الاكتفاء بالحكاية، أو الموقف البسيط، ولن يعجز ناقد عن إيجاد مبرر لتقديم قصة قبل غيرها، أو كتابة تقرير يشرح فيه أسباب فوز رواية، ولو متوسطة بأكبر جائزة عربية.. ويكفى أن تتذكر معى ما صاحب مجموعة «الأرض الأرض.. السماء السماء.. وانتحار رائد الفضاء» لصاحبها الرئيس الليبى السابق معمر القذافى من احتفالات، ودراسات نقدية جادة ومتعمقة، لم يهتم بها كثيرون، أو ربما نسيها الكثيرون، بينما لم ينس أحد ما أفردته صفحات «أخبار الأدب» للحديث عن عبقرية السعودى عبدالعزيز البابطين، وموسوعاته وجوائزه.. فلم تمر فى مصر، أو غيرها، مرور الكرام، رغم أن الخلاف فى طبيعة القصيدة العمودية التى تتبناها مؤسسة البابطين لم يحسمه أحد، ولن يقطع فيه أحد.. وأغلب الظن أنه سوف يظل قائمًا ما ظل الشعر ضمن فنون القول.. لا الكتابة.

2 بين «الأدب» و«النجوم».. ثلاثة أدوار وخصومة غير معلنة

تبقى الصحافة، وتبقى الجريدة الحلم التى وضعتها الظروف فى طريق كاتبنا، ووضعها نصب عينيه، وتصادف ظهورها مع بداية عملى بالصحافة، والمشاركة فى الاحتفال بها، إذ سبقتُها إلى بلاط صاحبة الجلالة بأشهر معدودة، من خلال عملى فى صفحتى الفن والثقافة بجريدة «العربى» تحت إشراف الكاتب الكبير صبرى موسى، وقبل انتقالى بعدها بخمس سنوات للعمل ضمن فريق رفيقتها «أخبار النجوم»، إحدى المطبوعات المتخصصة التى أصدرتها مؤسسة «أخبار اليوم» فى توقيت متزامن، وهو الانتقال الذى لعب دورًا كبيرًا فى اطلاعى على كثير من كواليس رحلة «أخبار الأدب»، وفتح لى باب التعرف بالكاتب الكبير جمال الغيطانى، رغم كثير من الملابسات التى كانت تمنع من القرب منه، وتمنع حتى الاقتراب ممن يعملون معه، فلم تكن الأجواء بأحسن ما يكون، وربما كانت من السوء بدرجة لم يكن لدىّ علم بها فى وقتها.

ما عرفته فى ذلك الوقت أن الأجواء ليست على ما يرام بين الغيطانى وبين إبراهيم سعدة، رئيس مجلس إدارة المؤسسة الذى صدر قراره بالموافقة على إصدار «أخبار الأدب» عن هوى شخصى، وردًا على استحواذ «الأهرام» على كتابات نجوم الثقافة والأدب وقتها، وقيل وقتها إن السبب يعود إلى قرار «غير معلن» بوقف التعيينات فى «أخبار الأدب» بسبب ما تتحمله المؤسسة من خسائر فى إصدارها، ونتيجة لضعف التوزيع وتراجع الإعلانات أو انعدامها، وقيل إن الأستاذ جمال تقدم باستقالته من رئاسة تحريرها أكثر من مرة وتم رفضها، وربما لهذا كانت لقاءاتى بالكاتب الكبير قليلة ومعدودة أو محدودة الزمان والمكان، لكنها بالنسبة لى كانت تعنى الكثير، فقد كنت وقتها مجرد صحفى شاب فى مطبوعة تناصب الغيطانى العداء شخصيًا، ربما لم يكن العداء معلنًا، لكنه كان هناك، ويعلم به الجميع، ويتهامسون به، ويرون آثاره، ولكن لا أحد يكتب عنه أو يعلن عن وجوده، ولك أن تتخيل مطبوعتين تصدران عن مؤسسة واحدة، لا يجرؤ أى من العاملين بهما على التحدث مع زملائه من العاملين بالمطبوعة الأخرى، ولو كان حديثًا عابرًا، وإن حدث فليكن فى أضيق الحدود، وبعيدًا عن مقر المؤسسة.

وأذكر أن عرض مسلسل «حديث الصباح والمساء» فى شهر رمضان عام ٢٠٠١، جاء متزامنًا مع شهر ديسمبر، فتوافق عيد ميلاد الكاتب الكبير نجيب محفوظ مع يوم ٢٦ من شهر رمضان، واقترحت أن نقوم فى «النجوم» باصطحاب النجمة ليلى علوى، بطلة المسلسل، مع «تورتة» خاصة لزيارة الأستاذ فى يوم ميلاده، على أن تتضمن الجلسة حوارًا حول المسلسل والرواية، ولأن الظروف الصحية للأستاذ لم تكن فى أحسن صورة، ولأن الأمر يحتاج إلى ترتيبات خاصة، فقد توليت الاتصال بالشاعر الكبير عبدالرحمن الأبنودى، والأستاذ جمال الغيطانى لإقناع الأستاذ بالفكرة أولًا، ولتنفيذ الزيارة التى تمت فى أحد المراكب النيلية الذى كان يجتمع فيه بهم، بالصورة المناسبة، والتى لا ترهق الأستاذ، وهو ما حدث بالفعل، لكننى لاحظت أن الأستاذ جمال الغيطانى كان يتعمد الابتعاد عندما يحين وقت التصوير، فذهبت إليه، موضحًا أنه لا يجوز عدم ظهوره فى صور التغطية، وهو أحد المساهمين الرئيسيين فى إخراج الحدث، لكنه بلطف وتهذيب شديدين، قال لى «أنت عارف أنهم مش ح ينشروا صور أنا فيها، فمافيش داعى للإحراج»، عندها أخذنى حماس الشباب، ووعدته أن تنشر صورته مع الأستاذ، وعلى مسئوليتى، فابتسم ووافق وتم التصوير.. ولكنها بالطبع لم تنشر، ولم أجرؤ بعدها على النزول إلى الدور السادس، وإن حافظت على عادتى فى قراءة «الأدب».

عيد ميلاد نجيب بحضور ليلى علوى

«رغم الاختلاف فى الخطط والسياسات ورغم التصرفات التى توحى بالجحود ونكران الجميل فثمة أمور لم تمس ولم يحاول أحد الإخلال بها حتى وإن انطوت النفوس على الرغبة فى ذلك»

«حكايات المؤسسة»

غالبية من اقتربوا منه يمارسون الكتابة ولم يسلك أحدهم طريقًا إبداعيًا سار فيه

3 أسياد وعبيد.. لا أدباء ومفكرين

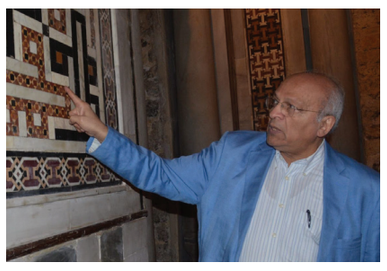

صدر العدد الأول من الجريدة فى ١٩ يوليو ١٩٩٣، برئاسة تحرير جمال الغيطانى الذى ظل فى موقعه حتى صدور قرار مجلس الشورى بتعيين مصطفى عبدالله رئيسًا لتحريرها قبل أيام من بداية ثورة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١، ولم يكتب الغيطانى افتتاحية العدد الأول، بل ترك مكانها لرسالة من الكاتب الكبير نجيب محفوظ بعنوان «مرحبًا بأخبار الأدب» كان نصها كالتالى: «لا أغالى إذا قلت إن صدور هذه المجلة حدث ثقافى هام نستقبل به العام الجديد. ومرجع تفاؤلى إلى جدية الدار التى تصدرها وتميزها بالابتكار، وإلى رئيس تحريرها الذى يعد بحق فى طليعة أدباء الأجيال الصاعدة التى أثبتت جدارتها بكل قوة وثبات.

وقد قيل عند اختفاء مجلة الرسالة إنها ستترك فراغًا لن يسد، وصدق القول، ولكنى كبير الأمل فى أن يملأ ذلك الفراغ بالمجلة الجديدة التى آمل أن تكون ميدانها فسيحًا لالتقاء الأصالة بالمعاصرة وفتحًا شاملًا للإبداع والنقد والقضايا الفكرية.. كونوا شعلة لنهضة جديدة. والله معكم».

وفى مقال بجريدة «عُمان» التى يعمل ويكتب بها غالبية محررى «الأدب»، كتب أحدهم عن رحلة «أخبار الأدب» ما نصه: «كتب الغيطانى ما يشبه الدستور الذى يحكم العمل فى أخبار الأدب»، موضحًا أن ذلك الدستور تضمن «وحدة الثقافة العربية التى تستمد قوتها دائمًا من تكاملها، احترام الدين والوقوف فى وجه محاولات توظيف الإسلام بأهدافها الصغيرة التى تضعه، ظلمًا، فى موقع النقيض من حرية الإبداع، تنمية الإحساس بالجمال كقيمة توشك أن تختفى بعد أن اعتادت العين القبح أو كادت تعتاده..

وجاء فى افتتاحية العدد الخاص بالاحتفال بمرور ثلاثين عامًا على إصدارها ما نصه: «يحسب لأخبار الأدب أنها امتلكت القدرة والإرادة التى مكنتها من تقويم المسيرة، وإعادة الأمور لنصابها، كما يقاس التاريخ الحقيقى لها بعدد ما أشعلت من مصابيح تنير بها الطريق، وبعدد الأسماء التى دفعت بها للحياة الثقافية والفكرية، ووقفت وراءها حتى أصبحت تتسيد الساحة الفكرية»!!

والحقيقة أننى لا أعرف كيف يكتب محرر ثقافى وأديب، عن «تسيد» أسماء لساحة هى فى الأصل فكرية؟! أى خيال مريض يرى الكتاب والمبدعين والمفكرين فى صورة أسياد وعبيد؟! لو فعلها محرر «تحت التمرين» فى مطبوعة صغيرة لما قبل بها أحد، فما بالك بكاتب لافتتاحية عدد احتفالى من مطبوعة يفترض أنها تعلى من قيمة الرأى، والتفكير الحر؟!

أما عن الدور التنويرى، والوقوف فى وجه محاولات توظيف الإسلام بأهداف صغيرة تضعه فى موقع النقيض من حرية الإبداع، فما عليك إلا العودة إلى حوار الدكتور محمد الباز المنشور فى هذا العدد مع الكاتبة الراحلة ماجدة الجندى للتعرف على ما أصاب الغيطانى، وكلنا معه، من غم وحسرة وحزن مقيم، ونحن نطالع عدد «أخبار الأدب» الذى تصدرته صورة القيادى الإخوانى خيرت الشاطر، وتتحدث عن فكره، ثم وهى تنفرد بهداية كارل ماركس فى آخر أيامه!!

أخيرًا.. يقول جمال الغيطانى فى صفحة ٢٦ من كتابه «حكايات المؤسسة» فيما يحكيه عن المؤسس ما نصه: «رغم الاختلاف فى الخطط والسياسات، ورغم التصرفات التى توحى بالجحود ونكران الجميل، فثمة أمور لم تمس، ولم يحاول أحد الإخلال بها، حتى وإن انطوت النفوس على الرغبة فى ذلك»، وأغلب ظنى أن كل شىء قيل إن «الأدب» صدرت من أجله «راح وانقضى»، ولم يبق من الأمور التى لم تمس شيئًا سوى أنها «حلم جميل أفسده الهوى».

تاج الزاهد

للحوار معه متعة خاصة، يكمن سرها فى أن حديثه لا يخلو من الفلسفة الجادة القريبة من الواقع، الفلسفة التى يفهمها الناس العاديون، فهو لا يجلس فوق كرسى عاجى ويلقى بالحكم الفوقية والنظريات، هو فقط يكتب ما يشعر به ويعيشه وما يحسه من أفراح وأحزان، هو الكاتب والروائى هانى القط.

مؤخرًا احتفل هانى القط بإصدار روايته الجديدة «تاج شمس»، عن دار بيت الحكمة للنشر والوسائط الثقافية، وهى عمل اعتمد فى بنائه الدرامى والسردى على الرمزية سواء على مستوى الأحداث أو الشخصيات، فى محاولة لمزج الواقع المعاش بالتراث المعرفى أو الدينى.

عن روايته الجديدة وعن طريقة بنائها وعن آبائه الروائيين ونظرته للنقد والفن والأدب بشكل عام، أجرت «حرف» معه الحوار التالى.

حسين عبدالرحيم

هانى القط: لو جاءت الجائزة فأهلًا بها.. وإن لم تأتِ فلن ألعن الحظ

■ كم استغرق العمل على «تاج شمس» وكيف أتتك فكرتها؟

– سيبدو ما أقوله دربًا من الشطط لكن المتأمل فيه سيجد أنه الحقيقة التامة؛ إن كانت هناك حقيقة تامة لشىء، أى عمل إبداعى يستغرق عمر الكاتب السابق قبل خروج نصه، فتفاعلات كل نص هى تفاعلات حياة كاملة، يخرج النص من أحوالها وتراكيبها، من الحزن والفرح، من الانكسار والعزلة، من اليقين والشك، تخرج النصوص من تحولات أرواحنا، وصرخاتها، كل أفكار أعمالنا تخلق بداخلنا، وكأعضاء تتوالى لتشكل جسدًا، وعندما يكتمل يصرخ بداخلنا صرخة الميلاد، ولكى تكتمل حياتنا نتحمل عذابات تدوينه وعندما نخط فيه كلمة النهاية، يصبح غريبًا عنا لا نعرفه، ومن المهم أن نحدث قطيعة بيننا وبينه، كى نسمح لمُوْلود آخر بالخروج.

■ «تاج شمس» مليئة بالرموز والدلالات والتأويلات.. هل لهذه الأسطورة موقع محدد فى الزمان والمكان؟

– اعتقادى أن جزءًا من ملامسة التأويل فى رواية «تاج شمس» يعتمد على انفتاح القارئ نحو رحابة عنصرى الزمان والمكان، إن سؤال التحديد المباشر لهما يجرح تلك الحالة الغائمة التى تحتفى بالغموض والكشف، تلك من ضمن شفرات النص التى تخبئ فى طياتها قصدية التأويل، وكأنها رسالة من الماضى المتجذر إلى الحاضر الذى هو أوسع من الراهن المحدد، وبمباشرة تامة أريد هنا أن أؤكد أنه من بين رسائل النص أن نقع فى فخ ذلك السؤال الذى يحيل لدلالة ما؛ بدءًا من دلالة الاسم المفتوح على التأويلات المتعددة، وسياجات المكان الجغرافية، وزمنيته، بغرض الانتباه إلى وصية الماضى إلى الحاضر فى دوران دائرى يصل بالساعى إلى نفس النقطة وكأنه لا زمن يتحرك، ولا مكان يتغير.

■ ما هى مساحات الواقع فى تلك الرواية؟ وهل للمسارات المعيشية أو الحياتية أو الوجودية دور فى دفعك لكتابتها؟

– ربما كان سؤال الخذلان دافعًا أصيلًا لكتابة الرواية، خذلان الناس للمكان، وخذلان الواقع للحالمين، «تاج شمس» هى بالنسبة لى مساءلة للزمان والمكان، قبل أن تكون سؤالًا عن الوجود، إنها المرآة التى مهما هربنا من التمعن فى تفاصيل صورها الشائهة، فإن يومًا سيأتينا حتمًا نكون مجبرين فيه على أن نطيل التحديق فى تلك المرآة كى نرى أنفسنا من خلالها، وفى تلك اللحظة الكاشفة سنصرخ بالحقيقة: للأسف هؤلاء هم نحن! وحينها سندرك أن «تاج شمس» هى ذلك الفضاء الذى يجمعنا من المحيط إلى الخليج.

■ «عبدالجليل وخليل ونجاة ومختار والغفير رضوان ومرزوقة» كيف نفسر دلالات هذه الأسماء التى ترتبط ارتباطًا ما بالنص الدينى؟

– سؤال الاسم سؤال مراوغ، فهل يصنع الاسم دلالته ورمزيته المقصودة، أم أن الشخصية فى فضائها السردى هى التى تدفع إلى ذلك الشَرَك؟ أعتقد أن الرمز شرك، فالرمز المكتمل كثيرًا ما يرتدى لباسًا ساذجًا، يسجن النص فى قالب تأويلى ضيق جدًا، ويشير إلى نقيصة الهندسة التى هى أبعد ما تكون عن حيوية الفن الخلاق، وأعتقد أن ذلك ما دفع أستاذى نجيب محفوظ ليكتب «الحرافيش» بعد أن أدرك نقيصة الرمزية المصاغة بهندسية مفرطة فى رواية «أولاد حارتنا»؛ لذلك يمكن أن أقول إن الأسماء وتأويلات المقدس الدينى منفلتة من قبضة المباشرة إلى المراوغة المشكوك فيها، فالمتأمل للمسارات السردية التى تحوى الحكاية يمكن أن يجد فيها الكثير من المنعطفات التى تحيل إلى رمزية ما، لكنه وسريعًا ما يبتر السرد تلك الأفكارة الجاهزة ليعيد طرحها فى سياقات أخرى أكثر اتساعًا.

■ من يقرأ «تاج شمس» يخيل إليه أنها مرثية لزمن ضائع أو زمن انفلت ما بين الأحلام وأضغاثها.. ماذا وراء دلالات مصائر الشخوص فى الرواية؟

– المتمعن فى الزمن سيجد أنه توالٍ ممتد من اللحظات الضائعة، بسهولة يمكن أن ترى ذلك عبر تاريخنا الطويل، وكأن هناك قصدية أو عمى متوارثًا يجعلنا نغفل عن اقتناص الحلم أو السعى بسذاجة والعمل على انكساره، لذلك رسمت صيرورة الأشخاص وكأنهم يتوارثون مراثيهم، إلا أن بعضهم قاوموا وخطوا أقدارهم رغم التضحية بحياتهم مثل «خليل» الذى كان الصلب جزاءً لممانعته وسط خرس الناس المطلخة جباههم بمذلة الرضوخ المبرر بسذاجة السلامة.

■ نتأمل مثلًا الدلالة فى جملة «القمر محبوس خلف الغمام».. هل تعكس تلك الدلالات تماسًا مع الرؤى الذاتية للكاتب؟

– ربما يتجلى ذلك الترميز من خلال إعادة اكتشاف الموروث الشعبى، ليس فى خسوف القمر فقط بل فى الكثير من الأشياء الأخرى، ففى ثنايا المعاش دائمًا ما نجد أنماطًا من السلوك الدالة على طبيعة الشخصيات وأعراف المكان، أحيانًا ما يكون ذلك إضافة للنص، أما بالنسبة لرؤية الكاتب، فأعتقد أن كل كاتب ينطلق من رؤى ذاتية، تتسع وتضيق تبعًا لطبيعة النص، فما بين المعاش والمتخيل، تنسج ضفائر السرد، بما لا يخل بحقائق الحياة.

■ هناك الكثير من التفسيرات للنص الدينى ولمجازاته ولدلالاته.. ليتك تفسر للقارئ أو المتلقى سبب ولعك بتلك الحالة الصوفية الشاملة فى الرواية؟

– كتابة المغاير بالنسبة لكل كاتب هو الحلم الدائم الذى ما إن ينتهى حتى يتجدد، والمغاير لا يأتى إلا عبر نضوج الوعى، والنضوج لا يقتصر على فعل الكتابة، بل النضوج فى رؤيتنا الأشمل للحياة، والنضوج لا يتوقف ولا ينتهى عند مرحلة ما، أنا ابن الكُتَّابِ الذى علمنى الكتابة والقراءة قبل المدرسة، سمعت القرآن فهزنى جَرْسُ لغته قبل أن أعرف معانيه، كان نداءً عذبًا صافيًا انشقت السماء لتتلوه على، حفظت الآيات فى قلبى فدلتنى على سحر اللغة العربية وسرها، وها أنا ذا لا أزال هائمًا مع جمالها المتجدد، أما بالنسبة للحالة الصوفية فقد تزودت بشغفى عبر موالد الأولياء الذين كنت أزورهم، هناك كنت أرى فى عيون الدراويش دموعًا وكلامًا كثيرًا، فانفتح أمامى المعنى واتسعت الحقيقة، وهذا أجمل ما يمكن أن يلاقيه كاتب.

■ هناك تناص مع سير بعض الأنبياء حتى وإن جاءت بشكل خاطف وخاصة مع النبيين «يونس» و«موسى».. هل قصدت هذا التماس؟ وهل هو محاولة لإثراء الحياة الواقعية التى يحياها الشخوص؟

– ألا تتفق معى أن النص الجيد هو ذلك النص المنفتح على التأويلات غير النهائية، إن سجن النص فى تأويل أحادى هو شهادة وفاة له، أما التأويلات المتعددة والمتجددة فهى تلك التى تتفق وتختلف معها، بل والتراجع عن دلالات كنت تراها فى النص واستبدالها بدلالات أخرى هو عين النجاح للنص.

■ فى ظل حروب الهويات والتاريخ والجغرافيا.. كيف ترى أو تتنبأ بمستقبل كل الفنون والآداب؟

– أتصور أنه مهما طغت العولمة والحروب التى تحاول فرض حقائق جديدة، فإنه لا بد أن يأتى الفن والأدب ليقولا كَلِمَتَهُمَا التى أراها أبقى وأشد هيمنة من قوة السلاح، لا أحد يمكن أن يُقْتَادَ إلى هوية أخرى بالقوة، والذين يهربون من هويتهم يصبحون مسخًا، الهوية تتسرب تحت جلودنا، ولا يمكن محوها حتى ولو انتزع الجلد، أما بالنسبة لمستقبل الفنون وسط تقنيات العولمة وبالأخص قدرات الذكاء الاصطناعى المذهلة، فإننى أرى أن الإبداع البشرى سيظل فارقًا عن إنتاجات تلك الآلة مهما كان إتقانها، فالإبداع لصيق بالروح البشرية وأبعد ما يكون عن انضباط الآلة، التى لا تنتج إلا ماهو مكرر.

■ يقال إن حلم الروائى بالخلاص ينتهى مع انتهائه من كتابة نصه.. هل هناك مفهوم للخلاص يخصك ككاتب؟

– أعتقد أن الخلاص فرض حتمى عند الانتهاء من النص، عليك أن تقفل على أبطالك زنزانة النسيان الأبدية، اهرب بعيدًا ولا تستمع إلى صرخات ندائهم، لأنك إن أنصت لندائهم فإن أبطالها سيتلون عليك حكايتهم التى فرغت منها لتجد نفسك واقعًا فى فخ التكرار. المؤكد أن الهروب من أبطالك وقصصهم هو عين النجاة، ذلك الهروب هو ضرورة حتمية من ضرورات التعرف على آخرين وسبر غور خطاهم وحكاياتهم، وليس ذلك بالسهل بعد أن كنت قد توحدت مع أبطالك السابقين.

■ أين هانى القط من جوائز الدولة أو غيرها من جوائز الوطن العربى؟

– الجوائز مهمة بلا شك، مهمة فى الإضاءة على العمل، بالرغم من أنها ليست علامة للجودة أو للرداءة، فكل عمل يحصل على جائزة يسلط عليه الضوء، وهو سعى محمود وفوز للكاتب وللكتاب، لكنى أعتقد أن الحكم الأبقى على العمل، هو حكم الزمن، الزمن لا يحمل فى طياته مجاملة أو آفة يصاب بها البشر حين يحكمون، أنا رجل وحيد أكتب لأنى أحب الكتابة، ليست لى شلة أو مدافعون ولا أسعى لذلك، إن أتت الجائزة فأهلًا بها، وإن لم تأت فلن ألعن الحظ.

■ أىّ من الكتاب العرب أو فى العالم العربى كان له دور فى دفعك نحو الكتابة الإبداعية؟

– مع بدء تشكل الوعى تهمس فينا ذواتنا غير المدركة والمنبهة أننا غير الآخرين، لتأتى القراءة لنكتشف بها ذواتنا التى هى جسر يعبر بنا نحو الكتابة، يسحرنا فى الكلمة شىء مبهم، ويتجدد السحر طوال الطريق، لقد سحرتنى اللغة فى البدء، ثم سحرتنى الحكاية، ثم العمق فيما وراء الحكاية، والآن تسحرنى وجوه الناس، فى وجوههم حكايات لم تكتب، ولغة لم تدون، وها أنا أبحث فى وجوههم على ما أتمنى أن أجده.

■ من هو كاتبك المفضل؟

– أستاذى الذى أدين له بكل شىء هو نجيب محفوظ، بعد ذلك يمكن القول إن هناك الكثير من الكتاب الذين أفادونى وأقدر ما يكتبونه، مثل خوسيه ساراماجو خاصة فى قدرته على سبر غور الأشياء العادية التى ينظر لها بعين فيلسوف، وكيف يقيم عالمًا مبنيًا على فعل يبدو اعتياديًا، لنرى العالم عبره بعين مختلفة، وكذلك «ماركيز» وجملته المشدودة فى قصص كسهم مصوب نحو غزالة شاردة، تصطاد المفارقة والشاعرية المؤطرة والعالم الذى يمرر من ورائه الحكاية الممتعة وما تود الفلسفة أن تقوله، و«ياسوناري كواباتا» الذى يذيب روحه فى الكلمات التى يكتبها كى يكشف هشاشتنا أمام الجمال النائم.

وهناك عبدالرحمن منيف الذى حكى أثناء عبور مدن الملح حكاية القهر المتواصل، والطيب صالح الذى أزاح عنا فجاجة تصوراتنا الذكورية المسجونة فينا تجاه الآخر، وأقدر ما أحدثه الأستاذ الكبير يحيى حقى فى الترويض الجمالى للغة، كما أقدر التجربة المتفردة لعبدالحكيم قاسم، وحساسية اللغة عند إبراهيم أصلان.

الحق أن بيتنا متخم بالكثير من الكتاب الملهمين وهؤلاء ما هم إلا ما استدعتهم ذاكرتى المثقوبة، وبالنسبة للأحياء فكثيرون أيضًا لكن نسيان شخص واحد منهم سيؤجج حربًا شعواء تجاهى، لذلك آثرت السلامة لأنى لا أملك دروعًا لمجابهة السهام الطائشة.

كيف ترى المشهد النقدى المصرى والعربى انطلاقًا من تعامله مع نصوصك وتحديدًا مع عملك الأخير «تاج شمس»؟

– أستشعر أن تلك الرواية ستحظى بتقدير نقدى، أستشعر ذلك وها أنا أنتظر، تمامًا كما ينتظر أبطالى فى «تاج شمس»، الحق أننا جميعًا ننتظر ما لا يجىء.

جانب من حفل توقيع «تاج شمس»

نجيب محفوظ كتب «الحرافيش» بعد إدراكه عيوب الرمزية فى «أولاد حارتنا»

نجيب

أنا ابن الكُتَّابِ سمعت فيه القرآن فهزنى جَرْسُ لغته قبل أن أعرف معانيه

حصة قراءة

اهتمام كبير تحظى به الكتب التى يؤلفها رؤساء الولايات المتحدة، ومسئولو الإدارات الأمريكية والعاملون فى البيت الأبيض على مر السنين، لما تحمله بين طياتها من أسرار وخبايا حول كيفية إدارة واشنطن لسياساتها الداخلية والخارجية.

ولا يمكن اعتبار تلك الكتب وثائق تاريخية، لأنها فى النهاية مجرد آراء شخصية لكاتبيها، لكنها تعطى لمحات مهمة عن الأحداث الداخلية والخارجية التى عاشوها وخاضوها وكانوا جزءًا منها، بصفتهم مسئولين أو صناع قرار.

فى السطور التالية، تقدم «حرف» قراءات لمجموعة من الكتب الجديدة التى يرصد أصحابها كواليس ما كان يجرى خلف جدران 1600 شارع بنسلفانيا.

هالة أمين

وكْر 1600 شارع بنسلفانيا

3 قادة أمريكيين يكشفون أسرار الغرف المغلقة داخل البيت الأبيض

1 دروس من العمل

أصدرت جين بيساكى المتحدثة السابقة باسم البيت الأبيض ووزارة الخارجية الأمريكية، أمس الثلاثاء، كتاب «قل المزيد: دروس من العمل والبيت الأبيض والعالم»، عن دار النشر «سكريبنر» تسرد فيه الدروس التى تعلمتها خلال حياتها المهنية داخل الإدارة الأمريكية.

ولم يحظ متحدث للبيت الأبيض بما حظيت به جين بيساكى من اهتمام، إذ كانت معروفة بقدرتها على إسكات الضجيج وإيصال رسالتها بهدوء أمام وسائل الإعلام الأمريكية والدولية، من داخل قاعة المؤتمرات الصحفية بالبيت الأبيض.

فى كتابها المؤلف من ٢٤٠ صفحة، تسرد الكثير من الأحداث التى عايشتها خلال عملها سكرتيرة صحفية فى الحملتين الانتخابيتين للرئيس الأمريكى السابق باراك أوباما، وعملها متحدثة باسم وزارة الخارجية مع جون كيرى، من داخل البيت الأبيض فى عهد رئيسين.

وتحدثت «بيساكى» عن دورها كمتحدثة وسكرتيرة صحفية وهى أصعب الوظائف فى البيت الأبيض، وكيف كانت تقدم التقارير والإحاطات اليومية إلى رؤسائها، بدءًا من رام إيمانويل سريع الغضب الذى عمل رئيس موظفى البيت الأبيض سابقًا، إلى المثقف الهادئ باراك أوباما إلى جون كيرى الحنون، على حد وصفها.

وتحدثت أيضًا عن حياتها بعد مغادرة البيت الأبيض، حيث استمر نجمها فى الصعود، وقدمت برنامجًا عالى التقييم على قناة «إم إس إن بى سى»، وحققت نجاحًا كبيرًا لدرجة أنها حصلت فى غضون ٦ أشهر فقط على فرصة لزيادة مساحتها ووقتها على الشاشة.

وفى كتابها أعطت «بيساكى» للقارئ نصائح عن أفضل الطرق لتقديم الملاحظات وتلقيها، وقدمت مجموعة من الدروس الأساسية حول العمل السياسى.

وحكت «بيساكى» تفاصيل بداياتها فى حملة باراك أوباما الانتخابية الأولى، قائلة: «كنت لا أزال فى العشرينات من عمرى، وكان أوباما عضو مجلس الشيوخ عن ولاية إلينوى آنذاك، نجمًا صاعدًا فى الحزب الديمقراطى الذى لفت الانتباه إليه بعد إلقاء خطاب أدى إلى نجاح المؤتمر الوطنى الديمقراطى لعام ٢٠٠٤».

وأضافت: «كنت خلف الكواليس فى القاعة فى تلك الليلة، حيث تم تكليفى جنبًا إلى جنب مع كاتب الخطابات (جون فافريو) بتجهيز بنات جون كيرى للتحدث فى المؤتمر فى الليلة التالية، ولم نشهد خطاب أوباما التاريخى على الهواء مباشرة».

وتابعت: «المرة الأولى التى التقيت فيها أوباما كانت بعد أشهر من بدء العمل فى حملته، وتم إرسالى من شيكاغو لأكون السكرتيرة الصحفية فى حملة لجمع التبرعات عام ٢٠٠٧ فى سينسيناتى، وعندما وصلت، التقيت الأعضاء الذين رافقونى وطلبوا منى الجلوس فى سيارة أوباما حتى وقت وصوله، وبينما كنت أنتظر، كنت شغوفة للقائه وشعرت بالفخر فى هذه اللحظة، وعلقت حقيبتى بمقبض باب السيارة وتطايرت محتوياتها للمقعد الخلفى على أوباما، الأقلام والأوراق وأحمر الشفاه وكل شىء، وقد قفز أوباما قليلًا قبل أن ينظر إلىّ نظرة ساخرة وهو يساعدنى فى التقاط متعلقاتى المتناثرة من على أرضية السيارة».

وحكت أن أكبر لحظة محرجة تعرضت لها كانت فى إحدى فعاليات الحملة الانتخابية، عندما قفزت إلى أعلى وأدى ذلك إلى شق سروالها من المنتصف، وعلق «أوباما» بشكل ارتجالى على ما حدث.

وقالت: «أوباما سياسى هادئ وذكى، لم يكن عادةً يصرخ بالأوامر على الموظفين، وعندما يرتكب أحد الموظفين خطأ ما، فإن رد فعله كان كثيرًا ما يذكرنى بوالدتى، والتى كانت تقول ببساطة إنها محبطة».

وأضافت: «بطبيعة الحال، لم يكن إلقاء حقيبتى فى حضن أوباما خطأ حقيقيًا؛ لقد كانت فى الواقع طريقة جيدة لكسر الجليد، أول خطأ فعلى ارتكبته فى هذه الوظيفة كان خلال الحملة الانتخابية الأولى فى صيف عام ٢٠٠٨، عندما فاتتنى الحافلة التى كان من المفترض أن تقلنى ومجموعة من المراسلين من إحدى الفعاليات إلى طائرة أوباما».

وتابعت: «كنا نلعب كرة السلة فى صالة الألعاب الرياضية وفقدنا الإحساس بالوقت، أنا لست حتى لاعبة كرة سلة محترفة، كنا نأخذ استراحة قصيرة خلال مجموعة من فعاليات الحملة التى استغرقت عدة أيام، وبدلًا من السفر على متن تلك الحافلة فى موكب المرشحين، كما كان من المفترض أن نفعل، اضطررنا إلى ركوب سيارات أجرة وعلقنا فى زحام مرورى رهيب».

وأكملت: «لم تغادر الطائرة بدوننا ولكن مع وصولنا كان أوباما قد انتظر لمدة ساعة، لأنه لم يرغب فى ترك مساعديه عالقين، وصعدت بخجل إلى مقدمة الطائرة للاعتذار، وكنت على استعداد لأن أتعرض للتوبيخ أو الصراخ فى وجهى من أوباما الذى كان منزعجًا للمرة الأولى، لكنه قال: (أنت طالما كنت موظفة ممتازة)، لذلك سأترك هذا الخطأ يمر».

وواصلت: «فى السنوات الأولى التى عملت فيها مع أوباما، كنت أشعر بالتوتر فى كل مرة أتحدث فيها معه، فهو ذكى حقًا ومفكر فريد خاصة خلال تعامله مع القضايا الكبيرة والصعبة، وكثيرًا ما كان لديه شعور بأنه يعرف ليس فقط كل ما كنت على وشك إخباره به ولكن أيضًا كل ما كان من المفترض أن أخبره به، وكان يحمل أوراقه فى جيب بالقرب من قلبه».

واستطردت: «على الرغم من أنه يحب النقاش أو المحادثات الجيدة، وغالبًا ما يبحث عن أهدأ شخص فى الغرفة لطرح أفكاره عليه، فلم يكن مهتمًا بالتعليقات، خاصة إذا كانت من النوع المزعج».

وقالت: «لم تكن وظيفتى فى ذلك الوقت أن أقدم له قدرًا كبيرًا من المعلومات المباشرة، لكننى أصبت بالشلل بسبب الخوف من قول شىء غبى أو غير لائق أمامه، ونتيجة لذلك كنت أحاول الاختباء فى الجزء الخلفى من الغرفة وآمل ألا يسألنى سؤالًا، حتى إننى كنت أقترح على الآخرين أن يذهبوا مكانى لحضور الاجتماعات التى كان يحضرها».

وأكملت: «كان هذا الخوف مرهقًا، كنت أحاول كل يوم التنقل بين وظيفتى ومسئولياتى اليومية وأتعامل أيضًا مع شعور انعدام الأمان، لم أستطع أن أتخيل نفسى ألعب دورًا جوهريًا فى تلك الاجتماعات، لم أستطع حتى أن أتخيل ما سأسهم به، وكان الحل الذى توصلت إليه فى ذلك الوقت هو أن أرمى بنفسى وسط كل هذا وأكون لاعبًا أساسيًا فى الفريق».

وقالت: «لقد أرسلت ملاحظات مفصلة إلى رؤسائى المباشرين حتى يكونوا مستعدين للاجتماعات، وتطوعت بمعاودة الاتصال بالمراسلين نيابة عنهم عندما يكونون مشغولين، لم أتحدث أو أتساءل كثيرًا، عملت لساعات طويلة واكتسبت سمعة طيبة لكونى أحد أعضاء الفريق الأكثر تنظيمًا وهدوءًا».

وأضافت: «لكن هذا الاحترام لم يضعنى على وجه التحديد على أجندة القيادة الاستراتيجية، ولم يجعلنى الشخص الذى يمكن أن يحصل على دور أكبر، ودفعنى هذا الخوف إلى القلق من أن (أوباما) كان ينظر إلىّ كموظف مبتدئ مطيع، وليس شخصًا يمكنه الاعتماد عليه للحصول على نصائح استراتيجية أو صحفية».

وأضافت: «اتصلت بروبرت جيبس الذى كان السكرتير الصحفى للبيت الأبيض خلال العامين الأولين من ولاية أوباما الأولى، للحصول على المشورة بشأن كيفية تغيير نظرة الرئيس وترسيخ نفسى كشخص يستحق أن يكون الشخص الذى يجعله الرئيس يحضر المقابلات السياسية والارتباطات العامة، وكيف يمكننى أن أصبح جاهزة لتقديم إحاطات للرئيس».

وأكملت: «لقد ظلت نصيحة (جيبس) عالقة فى ذهنى دائمًا لأنها كانت بسيطة للغاية، وقد تم تقديمها مع لمحة من لهجته الجنوبية المميزة، حيث قال: (تصرفى وكأنك تنتمين إلى هذا المكان، لأنك تنتمين إليه فعلًا، وعند نقطة معينة سيصدقك الجميع أيضًا)».

وواصلت: «لقد أخذت بالنصيحة، ولا أزال أتذكر مستوى التوتر الشديد الذى كنت أشعر به قبل رحلتى الانتخابية الأولى فى ذلك العام، لكن الأمر أصبح أسهل بعد فترة من الوقت، لقد بدأت أعتقد أننى أنتمى إلى البيت الأبيض».

> جين بيساكى: «أوباما» لم يصرخ يومًا فى وجوه موظفيه وكان يعبر عن غضبه بقوله: «أنا محبط»

2 حرب مع أنفسنا

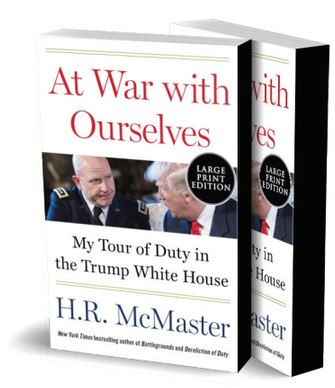

كشف هربرت رايموند ماكماستر أو إتش أر ماكماستر، مستشار الأمن القومى السابق فى إدارة الرئيس الأمريكى دونالد ترامب، فى كتابه «فى حالة حرب مع أنفسنا: رحلتى فى الخدمة بالبيت الأبيض فى عهد ترامب»، عن كواليس الكثير من الأحداث الصعبة التى عاشها خلال ١٣ شهرًا قضاها فى العمل فى الإدارة الأمريكية.

وروى «ماكماستر» فى كتابه المكون من ٤٣٢ صفحة، كواليس دخوله البيت الأبيض للعمل ضمن إدارة تعانى من الصراع والحزبية المفرطة، وكيف سعى للتغلب على التحديات التى تواجه الرئيس الذى صنع أبرز التحولات فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة. كما كشف عن أوجه الخير والشر والقبح فى رئاسة «ترامب»، وأعطى أيضًا نظرة مستقبلية حول الشكل الذى ستبدو عليه ولاية «ترامب» الثانية، حال فوزه فى الانتخابات الرئاسية المقبلة.

كما دون مذكراته منذ كان ضابطًا فى الجيش الأمريكى لمدة ٣٤ عامًا، قبل أن يتقاعد برتبة فريق فى عام ٢٠١٨، كما سجل آراءه فى مسئولين رفيعى المستوى فى إدارة «ترامب»، والتى كانت تعانى من الاقتتال الداخلى شأنها شأن جميع الإدارات الأمريكية.

كما تحدث عن بعض مستشارى «ترامب» السياسيين، الذين وصفهم بعديمى الضمير الذين عقدوا العزم على تقويض مهمته، إضافة إلى مسئولى مجلس الوزراء الذين أصيبوا بانزعاج شديد من لغة «ترامب» وسلوكه، وخططوا للسيطرة عليه.

كما قدم تقييمًا لإنجازات وإخفاقات فترة عمله مستشارًا للأمن القومى، وكذلك المهمة الصعبة المتمثلة فى التعامل مع البيئة المحمومة والخبيثة، قائلًا: «صممت على تجاوز الحرب داخل الإدارة وركزت على أولويات الأمن القومى، وشكلت تحالفات على المستوى الدولى لمساعدة ترامب فى تعزيز المصالح الأمريكية».

> هربرت ماكماستر: إدارة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب عانت من صراعات حزبية مفرطة

هربرت رايموند

3 المواطن

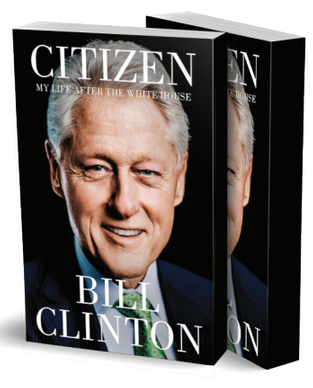

فى سيرة ذاتية جديدة، تحمل عنوان «المواطن: حياتى بعد البيت الأبيض»، تصدر فى نوفمبر المقبل عن دار النشر «كنوبف»، يكشف الرئيس الثانى والأربعون للولايات المتحدة بيل كلينتون، كيف تبدو حياته بعد الرئاسة، وقصة ٢٣ عامًا عاشها بعد تركه البيت الأبيض.

وفى ٢٠ يناير عام ٢٠٠١، وبعد نحو ٣٠ عامًا فى العمل السياسى، ٨ منها رئيسًا للولايات المتحدة، أصبح بيل كلينتون فجأة مواطنًا عاديًا، حيث كان يبلغ من العمر ٥٤ عامًا ومليئًا بالطاقة والأفكار، وكان يريد الاستفادة بشكل كبير من مهاراته وعلاقاته مع قادة العالم وكل ما تعلمه فى حياته السياسية، ولكن كيف؟

بعد أيام قليلة من مغادرة البيت الأبيض، تلقى دعوة لمساعدة ضحايا الزلزال المدمر الذى ضرب الهند، وفعل ذلك، وعلى مدى العقدين التاليين صنع سجلًا من أعمال الخدمة العامة، فذهب من إندونيسيا إلى لويزيانا ومن أيرلندا الشمالية إلى جنوب إفريقيا، وصنع إنجازات لم يفعلها رئيس سابق حول العالم، على حد قوله.

الكتاب المكون من ٤٦٤ صفحة، يعتبر الجزء الثانى من السيرة الذاتية الأكثر مبيعًا التى أصدرها بيل كلينتون عام ٢٠٠٤ وحملت عنوان «حياتى»، ويعرض فيها هذه المرة تفاصيل الأشخاص الذين غيروا حياته والذين دعموه وأحبهم وافتقدهم أيضًا، بالإضافة إلى الأخطاء التى ارتكبها طوال مسيرته.

> بيل كلينتون: أسهمت فى أعمال خيرية كما لم يفعل أى رئيس سابق على مستوى العالم

زاوية الشيخ

الناس الذين قد يكسرهم الجوع لا يكسرهم الشرف أبدًا ولا يتخلون عنه. إنه يسرى فى دمائهم مسرى الدم. لا يقبل الناس عهر فتياتهم أو نسائهم، لا يقبلون أن تختفى بناتهم قسرًا خلف أبواب زاوية الشيخ.. كانت هذه هى القشة التى قصمت ظهر الشيخ فى زاويته!

لا تسرع فى قراءة سطور «حاتم رضوان»، لا تستخف بصغر عدد صفحات رواياته ولا بقطعها الصغير، عيناه الضيقتان تتسعان على مدينة وتضيقان على زاوية، وبين الاتساع والضيق ينساب ضوء يشبه نور الشمس، فيطرز بالكلمات كثيرًا من التفاصيل والأحداث المتلاحقة، فتلهث فى إثرها، وتبقى بمعيتها لبعض الوقت للإلمام بما قرأت. برؤية كاتب لماح ورئيس تحرير ينتمى لعصر آخر، يذكرنا بعبدالفتاح الجمل، الذى أسس- وحرر- الملحق الادبى لجريدة المساء عند تأسيسها، تحدث الدكتور زين عبدالهادى إلينا، «حاتم وأنا» بروحة الجميلة المعهودة مخاطبًا حاتم: أعط محمود كتبك ليكتب لنا مقالًا عنك لمجلة «عالم الكتاب».. بادرة لا تصدر إلا عن كبار مثله.

محمود الشربينى

جناية «الذقون الكاذبة» ضد مصر

تلقفت من حاتم مجموعته، مثل «رتينة كلوب قديمة» وروايتى «بقع زرقاء» و«الشيخ»، والأخيرة كانت أول عهدى بقراءته!

كل «شابتر» فى رواية زاوية الشيخ هو حلقة من قصة شخصية من الشخصيات تسلمك إلى أخرى.. «وأنت وشطارتك بقى» فى الربط وحفظ الشخصيات التى تعج بها رواية قصيرة، يرسمها مشهدًا تلو الآخر، ثم ينتقل بينها كلاعب عرائس ماهر. عليك أن تصبر مع حاتم حتى تستخرج الأفكار المضمرة فى السرد وتلهث خلف الأحداث المتلاحقة.. التى يكتبها بمهارة روائى قدير، يمسك بكل خيوط لعبته أو قصته لا فرق، حتى تصل إلى نهاية!

رواية زاوية الشيخ تتحدث عن مصر المحشورة فى زاوية التخلف والدجل والشعوذة، لا استثناء لأحد عالم أو جاهل، مسئول أو عاطل، أصحاب ياقات بيضاء أو زرقاء، كلهم يهرولون إلى الشيخ الدجال، طلبًا لما استعصى عليهم الحصول عليه: الوعد برضا المولى.. الراحة والسعادة.. جلب الحبيب.. زواج العانس.. تخصيب العاقر.. مداواة المخنث.. إخراج الجنى العاشق من جسد امرأة.. إلخ.

كلهم يأتمرون بأمر شيوخ الدجل، الذين يعيشون على إطلاق البخور الكثيف وطلب دم الهدهد المخلوط بالزعفران، أما منح عهد الطريقة للمريد فله تقاليد شاذة، تبدأ بارتداء المريد والمراد ملابس حريرية على اللحم، فيتنفسان خلطة البخور مع زيت الحشيش القوى، حتى يسرى الخدر اللذيذ فى جسديهما؛ فيحدث بعد ذلك ما هو أغرب من الخيال! تُهْتَكُ الأسرار بين الشيخ «المؤمن» والمريد «التقى».. وبحسب صيحة الشيخ العمرى- وهو يأتى مريده وتابعه والراغب فى أخذ عهده على الشريف- تأتى لحظة «إيلاج نور الفاضل فى المفضول»! مشهد غريب عجيب.. صاغه حاتم رضوان على لسان الشيخ بهذه الجملة الغريبة! اللقاء- الآثم- فى نظر الشيخ بمثابة إيلاج نور «الفاضل» فى جسد «المفضول»؟ وهل كان علينا تخيل المشهد المُرَوِّع منذ التمهيد له باقتناص الشيخ تلك القبلة الشهوانية، التى اعتصر بها شفتى مريده المحب على الشريف، حيث لم يتركهما إلا عندما أولج فيه من نوره، ولم ينته منهما إلا لحظة حدوث ارتعاشته!

يعيث هؤلاء الشيوخ فى الدنيا فسادًا باسم الإيمان والنور.. بفعل اليأس وأشياء أخرى.. يذهب المتعبون إليهم طلبًا للراحة، حتى طلاب العلم المتفوقين! ها هما طالبا الفلسفة كامل اللبان وعلى الشريف، وكلاهما نابغ فى كليته، يتخليان عن منهج العلم الذى يدرسانه ويفضلان عليه أسلوب التدجيل والشعوذة، ويبرعان فيه، فيذهب أحدهما- كامل- بعد أخذ عهد الطريقة إلى قريته، ليمارس فيها طقوس الشيخ وطريقته، ليخرج أجيالًا جديدة من المغيبين، أما على فبرع فى إنشاء الزاوية.. أو صرح يحبس فيه كل من يذهب إليه يطلب حبًا أو حربًا، زورًا أو بهتانًا.. وبأفكاره التى روج لها على «يوتيوب»، وهو بكامل أناقته ونوره السابغ المشع، ولسانه المعسول بالتقى والإيمان حشرت مصر فى الزاوية المتخلفة بأمر من شيوخ الدجل!

أقيمت فى الزاوية كل شعائر الفساد والتخلف، حتى إخفاء الفتيات «قسريًا» عن ذويهن، وربطهن بعقود صاغها الشيخ بنفسه تكفل له حصد المال الوفير من طالبى المتعة من المتنفذين الكبار، حتى المتفوقات طالبات أرفع الكليات «العلوم السياسية»، يسقطن فى فخ زاوية الدجل.. بعضهن يسقطن فى فخ الحب، وأيضًا فى فخ الاغتصاب «زهرة طالبة العلوم السياسية نموذجًا»، فتنقلب حياتهن جحيمًا، وتتمزق أرواحهن، حين تتوهمن العلاج بين يدى شيخ تقى، يصطنع القداسة فى زاوية، لا فرق داخلها بين اغتصاب فى مطبخ الحبيب «كما حاول حبيب زهرة أن يفعل» أو فى محراب الزاوية «كما حاول الشيخ على أن يفعل مع زهرة أيضًا»!. لا فرق بين المغتصبين.. بين سفير لم يتورع عن اغتصاب حبيبته، وشيخ داعر- له فى الحريم والرجالة- حاول أيضًا اغتصابها، وبين شيخ آخر يغتصب الرجال فقط، فكما تقول سالمة «فاطمة أم المريدين» عن الشيخ، صاحب صيحة إيلاج نور الفاضل فى المفضول إنه «مالوش فى الحريم»، وهى نفسها أسلمت شبقها كله كاملًا غير منقوص لمريده وخليفته الشيخ على! لا دين معروفًا فى زاوية الشيخ سوى الاغتصاب!

فى تأويل خاص جدًا يمكننا القول بأن «زهرة» تمثل مصر.. عندما تنضو عنها عبير الذبول وتستعيد روحها الهادرة تأويل مختلف ربما، أقول ربما، لم يقصده المؤلف نفسه، الذى عندما يُسْأل عن قصته فيتحدث عن شيوخ توارثوا طرقًا صوفية، وأخذوا العهود على مريديهم، بالسمع والطاعه ولو فى معصية: «للشيخ طقوسه الخاصة، أقواله وأفعاله إلهام ووحى من الله. لا تسأل او تستفسر عنها وإن بدت لك غريبة تخالف كل عقل أو منطق أو دين، أوامره وإن كانت فى معصية مطاعة وواجبة النفاذ». هل صيحة حاتم رضوان فى روايته كانت ضد التخلف والعهر الدينى فقط، أم كانت ضد كل مفاسد الكبار فى حكم مصر ونظامها الذى لا يسأل عما يفعل ويتمترس خلف أسوار الزاوية المدججة بالحديد والنار؟

ثم.. وعند ذلك الكورنيش الشهير.. تقوم مصر.. «زهرة» وغيرها يطلقون النداء الأشهر، اجتمعت فورتهم وثار غضبهم، فى يوم يكاد يشبه يوم جمعة الغضب فى ثورة ٢٥ يناير المجيدة، جاء المحتشدون الغاضبون بعد أن شحنوا طاقتهم، وتواصلوا على وسائل التواصل الاجتماعى، بنداءهم الشهير «هدوا الزاوية»، النداء الذى يبدو أننا سمعنا مثله فى ثورة يناير.. وجه الشبه هنا كبير.. فى يناير كانت هناك صفحة على «فيس بوك» باسم خالد سعيد تدعو للثورة على الشرطة والفساد وأطلقت الصرخة كلنا خالد سعيد، فكانت جمعة الغضب فى زاوية الشيخ وضع حاتم رضوان زهرة فى مقابل خالد سعيد. حشدت زهرة لثورة مصر على زاوية الشيخ، استعادت عبيرها وفاحت تلك الرائحة على صفحتها الفيسبوكية: «هدوا الزاوية».

الثلاثى صفوان وزهرة والشريف ظلوا يمثلون قوام الرواية الرئيسى حتى النهاية، الباقون- باستثناء سالمة أم المريدين- مجرد مخدماتية أو أكثر قليلًا. الزاوية التى شيدها على الشريف بعد مقتل شيخه، وبناها كقلعة لا يصل إليها أحد، وحولها إلى دولة داخل الدولة، ترتع فيها الدعارة مع الدولار، حاول الناس مواجهة الزاوية ومنع هذا الخراب، وشكوا لكل المسئولين والأجهزة ورفعوا بلاغات وقضايا، ولكن الشيخ محمى بركاب السيارات الفارهة ومدخنى زيوت الحشيش، والغارقين فى الجنس مقابل المال.. قلعته الحصينة تتحدى الجميع.. لكن الناس الذين قد يكسرهم الجوع لا يكسرهم الشرف أبدًا ولا يتخلون عنه، إنه يسرى فى دمائهم مسرى الدم لا يقبل الناس عهر فتياتهم أو نسائهم، لا يقبلون أن تختفى بناتهم قسرًا خلف أبواب زاوية الشيخ.. كانت هذه هى القشة التى قصمت ظهر الشيخ فى زاويته!

حاتم رضوان ينثر تفاصيل روايته بإحكام عجيب، كمن يرسم سيناريو لأحداث الليل الداخلى والنهار الخارجى فى العمل الفنى، يأخذك من شخصية إلى أخرى إلى ثالثة إلى رابعة، حتى تصاب بالتخمة، فى ظل خط روائى يتصاعد، حتى يصل لذروته بالوصول إلى خط النهاية، دون أن تتوقع ماذا سيحدث.. ولا متى سيظهر ذلك الغضب المتحشرج فى النفوس، ولا تلك العبارات المخنوقة على الألسنة.. ولا ذلك النداء المختنق بالصراخ والدموع: هدوا الزاوية!

مشايخ الخطيئة يمنحون مريديهم عهد الطريقة عبر «إيلاج نور الفاضل فى المفضول»

اهدموا الزاوية.. ارحل يا شيخ.. نداءات الغضب اليوم تشبه البارحة فمتى ينفجر البركان؟

«زهرة».. مصر الذابلة تستعيد عبيرها بعد إزالة ركام التخلف

رضوان

الأشجار ليست عمياء..

تعرية القضايا الإنسانية

تنحاز رواية «الأشجار ليست عمياء» لشيماء هشام سعد، والصادرة حديثًا عن دار «دون» للهامش، للقضايا الإنسانية وذاكرة العالم الحزينة، لشخصيات تحمل هموم تقطن ثنائية الخاص/العام، تفتتح بنيتها الدرامية بحدث قتل كلب أحد أقارب المحقق المصرى المهاجر «إلياس» من قبل شبح زوجة ذلك العم، هكذا يبدأ النص بأربعة مستويات لاستقراء الهامش.. العم العجوز الوحيد، المعبر عن همومه الشخصية وتعبيراته عن موقع الإنسان من الوحدة والفقد، يقطن بيتًا معزولًا بريف فى مهجر، و«إلياس» محقق يقوم بأولى أعماله كمحقق، والكلب المشيد منذ الافتتاحية بنية دلالية للموت والتهميش، وأخيرًا شبح زوجة فلسطينية.. يحقق النص ذاته بدخول أحد السكان الأصليين لأمريكا للمشهد الروائى الرابض به إلياس وعمه والكلب الميت، قاطفًا البرتقال، كرمز لفلسطين، باعثة الكاتبة التحامًا يوازى النص بين قضيتين إنسانيتين متقاربتين، هما القضية الفلسطينية وقضية السكان الأصليين لأمريكا.

تستنطق شخوص النص فعل الترميز، وتجرده من سيميائيته لبنية شخصياته، وفضائهم المكانى، فتتجلى المفاهيم السياسية والفلسفية فى كل شخوص النص، بدءًا من الماضى واستقراء الذاكرة والسلطة الأبوية، المنجلية فى شخصية زوج «حبهان»، وابنته «أمينة»، التى تعانى السلطة الأبوية نتيجة لتصور خاص عن ماضى أبيها عاناه أيضًا مع أمه، فتقع تحت تصورين خاصين للسلطة، بين الرؤية المرتبطة بموقع الإنسان من نشأته متمثلة فى السلطة الأبوية، وبين سلطة إسرائيلية لا يعطى لها الصوت السردى لـ«أمينة»، وكاتبه الضمنى بالًا، على نقيض باقى الأصوات السردية فى مروية التهجير حتى «إلياس» المهاجر من مصر، ربما لا يهتم الكاتب الضمنى عند «أمينة» بالقضية لهشاشته، وتضافره مع سلطة أكثر خصوصية هى سلطة أبوية تتجلى بـ«عبود».

يصل النص لمفاهيم تمثل الجزء الثانى من ثنائية العام/ الخاص، فتكون شخوص النص تمثيلًا للقضايا الإنسانية، والقضية الفلسطينية بعد ترميز ذواتها المفاهيم المجردة ومفهوم الهامش؛ فيقدم النص شخصية «يوسف»، صاحب الفضاء الدلالى العام لعلاقة الإنسان بوطنه، فيرى فى أخته وطنًا موازيًا، ويؤسس موقعًا إلكترونيًا للكتابة عن تاريخ موطنه فلسطين، التى لم يزرها يومًا.

يمارس النص فعل التعرية على مستويين فى البنية الروائية الدلالى والدرامى، فتتضافر البنية الدرامية مع الكتابة السينمائية بممارسة فعل التشويق، المؤثر فى البنية الروائية للنص، وتتحقق القدرة الحكائية بتحقق كشف الذاكرة، كقضية إنسانية توازى القضايا التى يتناولها النص، مبتعدة عن التأريخ الموازى المباشر للقضية الفلسطينية المعتاد، باعثة من الفن أساسًا له، بحركة سينمائية تبتعث الحكاية كباعث لفعل التعرية، ساردة شخصيات شيماء وهشام وسعد وذواتها، من خلال سردية ضمير الأنا، وتعدد الأصوات السردية، تلك التى تنضح بشاعرية تشيد بنية النص، فى مروية تطرح نصًا تسجيليًا يهب شخوصه تأريخًا ترميزيًا موازيًا للقضية الفلسطينية، والمفاهيم الفلسفية العامة، كالفقر والوطن والسلطة والموت.. تتضافر القدرة الحكائية مع الشاعرية، وتؤاخى الكاتبة بين فعل الشاعرية والتشويق، وهنا يتضح محض جدلية يطرحها النص بين فعل التسجيل والتأريخ الرمزى وبين القصيدة، فتُضفر الكاتبة الاثنين، للبحث عن ترميز يوازيها وراء شخوصها المهزومة، فتشكل مروية «حبهان» الجانب الأكثر شاعرية للذاكرة، وتمثل بها تأريخ جيل لم ير بلاده ولم يسمع عنها إلا فى المخيمات، كذلك تمثل المفاهيم الفلسفية والإنسانية العامة؛ فبعد فراق الجد تُذبح القطة؛ لتأكلها العائلة، كترميز لحيونة الإنسان والفقر والفقد وثنائية السلطة/ المحكوم «المظلوم» وموقع الإنسان من الخيانة، كفعل يجرد ليُؤَاخى مع الأحداث السياسية التابعة لذاكرة حزينة تنعيها التغريبة، فيذكر الراوى بضمير الأنا، شخصية حبهان، وخيانة لبنان لفلسطين، قائلًا:

«كان أبى يقول إن الصهاينة وحكومة لبنان تكاتفا ضدنا؛ الحكومة لأن تعداد الفلسطينيين كان يزداد ويشكلون قوة ضاغطة ومؤثرة فى القرار السياسى، والصهاينة لأن جيش منظمة التحرير الفلسطينية الذى يقيم فى المخيمات كان يشكل تهديدًا لهم، لم أفهم ساعتها كيف».

هنا، وبالطريقة التى يمارسها النص منذ بدايته، تظهر ممارسة شيماء هشى سعد لثنائية الخاص/ العام، ممارسة تعرية تأريخية للنكبة الفلسطينية، وتعرية الفضاء الدلالى، طارحة مستويين لاستقراء التأويل، واهبة نصها بعدًا آخر من التناص الدرامى بين حادثة خاصة لمقتل قطة؛ لشدة الفقر والاحتلال الصهيونى، وخيانة شعب عربى لشعب شقيق؛ لسيطرة الاحتلال الصهيونى، ويربطهما فعل الخيانة.

تتلاشى المدن، تغادر البلاد بوجودها المجرد ذاكرة العالم، وتقطن ذاكرة شخوص وحكايات النص، فتشكّل فضاء مكانى رمزى يشترك فى ثنائية العام والخاص لاستقراء دلالة فعل الترميز، متحررة من كونها مسرحًا معتادًا للأحداث، بين النص البوليسى الموازى للمروية المشحونة من ذاكرة أبطالها، كذلك تمثل الأماكن شخوصها.. يبدأ النص بأحداث تقترب من النص البوليسى فى أمريكا، مربض الرأسمالية والنمط المعتاد للاغتراب، ثم انتقل لفلسطين والمخيمات، نقيض أرض أمريكا، والخالقة عدة ثنائيات معها.. ثنائيات تشترك فيها الذوات مرتبطة بأماكنها، فشخصية «حبهان» يتغير مسار حياتها وإيقاع صوتها السردى وشاعريته مع تركها المخيمات، وشخصية «يوسف» يرتبط وجدانها بالوطن، كتعريف لعلاقة الإنسان بوطنه، كذلك ترتبط بأخته ذات العلاقة والود، المشابهة للوطن ذاته، «فلسطين»، فيستنطق النص فضاءه المكانى وتضفره مع شخوصه بتحقيق استنطاقه لفعل الحكى، ذلك المرتبط بقدرية تطالع شخوص النص كدلالة، وتطاردهم لتحقق المروية الإنسانية.

كرواية «أم سعد» للفنان الراحل غسان كنفانى، يقتفى النص الإفلات من التجنيس والتصنيف الأدبى، لتحضره البنية المسرحية، مرتبطة بالمشهدية والمرورية السينمائية، كذلك البنية القصصية، بتكثيفها السردى والترميزى المعهود، واحتفائها بالحكاية الهامشية، تلك المنبثقة لتوازى فعل الحكاية ذاته، والطارحة تعريفه كحياة، كذاكرة ضد الرصاص، والزمن، وفعل الحكاية يداعب شخوص النص، لتطرح مرويتها، وتناقش رؤيتها للحكاية.

تحقق العلاقات الإنسانية مفهوم الحكاية، فتظهر الحكايات بوجود علاقات تتضافر مع مفهوم الوطن والفقد، لا يتكلم أبو «حبهان» إلا بعد لقاء رفيقه «صادق»، المنبلج من الوطن، فتكون الحكاية، فى تجريدتها، باعثًا لتشييد علاقات إنسانية تشارك بشدة فى البنية الروائية.

أكرم محمد

قصة

أخرى للحياة

آلة الزمن وأزمة العالم المعاصر

فى روايتها الثانية «قصة أخرى للحياة» الصادرة عن الدار المصرية اللبنانية بالقاهرة/٢٠٢٤، تقدم الروائية المصرية فيبى صبرى تصورًا خاصًا عن آلة الزمن بالمعنى الروائى والفكرى، خصوصية تلك الآلة أنها لا ترجع فى الزمن/التاريخ الذى نعرف، لتغير بعض وقائعه كما تمنّى المبدعون وعبّروا فى أعمال أدبية وسينمائية كثيرة، إنها آلة تصنع تاريخًا جديدًا وتمده على استقامته لتصل إلى حاضر آخر، مانحة القارئ فرصة المقارنة، وإطلاق سؤال نحتاجه كثيرًا: «ماذا لو...؟».

د. أيمن بكر

منذ الصفحات الأولى، سيعرف القارئ أنه فى حضرة كتابة سردية من نوع خاص لا تشبه كثيرًا مما يقرأ. يبدأ الحكى كأنما هو استئناف لحديث سابق بلا مقدمات أو تمهيدات، أو عتبات تأويل، فلا يوجد فى الرواية إهداء ولا تصديرات من مقولات تحمل حكمة، أو تُلقى بضوء على مغزى النص أو سير أحداثه، وهى المقدمات والعتبات التى تلعب دورين مهمين: الوقوف بين القارئ وعالم السرد كبوصلة توجيهٍ يقدمها المؤلف بعد أن انتهى من كتابة نصه، وفى الوقت نفسه تلعب دور المهدئ لروع الكاتب، الذى يبدو كمن يتدثر بأغطية تمنحه بعض هدوء قبل مواجهة عالم القراءة المتسع المتنوع التوجهات. «قصة أخرى للحياة» لا تحتاج هذه المقدمات والعتبات، بل إنها تسعى للنقيض؛ أن تصنع من بنيتها ومدخلها وطريقة سردها تاريخًا بديلًا لا يفصله شىء عن القارئ، كأنما هو عين ما حدث، وهو ما يحققه الدخول فى عالم السرد، بلا تمهيد يبقى عالقًا كحاجز من التوجيه الخارجى لتجربة القراءة. ما سبق تحديدًا هو ما تحتاجه آلة الزمن التى صنعتها الروائية الشابة بدقة من ينسج لوحة من خيوط ملونة دقيقة، إنها تسعى لدفع القارئ بصورة مفاجئة داخل عالم سردى أسطورى؛ شخصيات أقرب إلى أبطال السير الشعبية، ضمن مدينة ليست كالمدن، ومسار للأحداث هو ما دفعنى لاستحضار فكرة آلة الزمن.

يقدم عالم الرواية مدينة متخيلة فى أوروبا ما قبل الميلاد، تتمكن تلك المدينة بصورة مبكرة جدًا من تحرير نصف العالم من أوهام السيطرة الذكورية، والاستهلاك الرأسمالى البشع لموارد الأرض بصورة حمقاء، تقوم بذلك عبر شخصياتها الفريدة وقوانينها التى تبدو فى البداية متناسبة مع هذه الفترة من التاريخ، ثم ما يلبث القارئ أن يكتشف كيف تحمل تلك القوانين -المعبرة عن طبيعة خاصة لتلك المدينة العجيبة- بذور التغيُّر الذى سيصيب التاريخ الإنسانى فى الرواية. العودة فى الزمن هنا محفوفة بمخاطر كبيرة، فهى مضطرة لتقديم بدائل اجتماعية وفلسفية وطبية لمسار التاريخ الذى نعرف، وهى مطالبة بأن تبرر المسار الذى ستتخذه الأحداث، وصولًا للعالم الذى يمثل النتيجة لهذا التغير الحاد فى الوعى والتاريخ البشريين. لقد تحايلت الرواية فلم تقدم مسار التاريخ المقترح بين لحظتى البداية الخيالية والحاضر الذى نتج عن تلك البداية، فطبقًا للأجواء شديدة الخصوصية التى مرت بها الرواية فى نصفها الأول، سيبدو من الصعب تقديم المسار البديل للتاريخ كله فى عمل واحد؛ إذ يحتاج هذا التتبع لمسار تاريخ مُقترح بهذه الغرابة إلى متوالية روائية، لم تفضل فيبى صبرى التعرض لها، لهذا تنتقل الرواية بصورة مفاجئة لكنها غير صادمة، مما قبل الميلاد إلى العصر الحديث، لتكمل رسالتها، ولترضى فضول القارئ الذى سيتساءل بعد أن يغرق فى عالم المدينة الأسطورية التى تقدمها الرواية: كيف سينتهى تاريخ كالذى تقدمه الرواية إلى حاضرنا؟ هل ستختفى الحضارة التى نعيشها الآن بكل سوءاتها، ومحاسنها، ومخاطرها، وأنانيتها المفرطة، وطبقيتها المميتة؟ أم أن العالم سينقسم إلى عالمين: أحدهما ما نعرف ونعيش، والثانى هو ما تقترحه الرواية؟ أسئلة سيجد القارئ إجاباتها فى الجزء الثانى من الحكاية، حين تقفز آلة الزمن التى تمثلها الرواية إلى حاضر آخر فى عالم آخر يقوم على ما أسست له فى الجزء الأول، لكن مع بقاء عالمنا الحالى فى جانب من الكرة الأرضية يبدو محاصرًا متخلفًا، رغم تطوره التكنولوجى.

لقد حاولتُ قدر الممكن أن أتجنب تلخيص الرواية، كى لا أهدر متعة القراءة لمن يود الذهاب فى رحلته عبر «قصة أخرى للحياة»، فما أقدمه هنا هو مفتاح ضمن مفاتيح كثيرة يمكن استخدامها فى النظر للرواية من الزاوية الفكرية الفلسفية، أما من ناحية التقنيات السردية وجماليات لغة السرد، فكلاهما مدهش فى هذا النص المحكم، ويحتاج إلى تحليل آخر ضمن دراسة مطولة تتناول أكثر من عمل سردى لافت للنظر، لروائيات وروائيين شباب، يبدو أنهم سيذهبون بالرواية العربية إلى مساحة مختلفة، وهو ما أنوى القيام به قريبًا.

فى هذه الرواية أنت فى حضرة كتابة سردية من نوع خاص لا تشبه كثيرًا مما تقرأ

كيف تتحدث عن كتاب لم تقرأه؟

على الرغم من ذيوع عبارة «الكتاب يبان من عنوانه» واعتبارها مقدمة منطقية يُسلّم بها، فإن تجارب القراءة تثبت أنها لا تصدق إلا فى حالات قليلة، ففى الأغلب الأعم نجد أنفسنا أمام حالتين، فإما أن يكون طموح العنوان أكبر مما صدق على مضمونه، فيأتى المتن أضعف مما وعد به عنوان برّاق، أو يضع العنوانُ الكتابَ فى سياق أقل مما يستحق إلى أن يكشف مضمون الكتاب عن حقيقته، وهذه الحالة الثانية تنطبق على كتاب «كيف تتحدث عن كتاب لم تقرأه».

الكتاب، الذى عُد من الكتب الأكثر مبيعًا فى فرنسا، من تأليف أستاذ الأدب والمحلل النفسى وصاحب الكثير من المؤلفات ذات العناوين المشابهة بيير بايار، ومن ترجمة غسان لطفى، قد ترك انطباعات فى أغلبها سلبية، تشكلت فقط من قراءة عنوانه، وهى مفارقة تستدعى التأمل، فالكتاب الذى يبدو من عنوانه مدافعًا عن اللا قراءة، هو أول ما يُصاب بسهام اللا قراءة السامة، ومع ذلك فالحق يقتضى أن نقول إن الكتاب أهم بكثير مما يشى به عنوانه!

حنان عقيل

هوامش حول «كتاب لا يظهر من عنوانه»

1 إكراهات المثقفين وغاية القراءة

جعلنى الكتاب أستعيد الكثير من هواجسى وأفكارى فيما يخص القراءة وأعيد التفكير بها مرة أخرى. واحد من أبرز المحاور التى توقفت عندها هو ما يمارسه «حزب المثقفين» من إكراهات على الآخرين بحجة القراءة، فما من مجلس إلا ويستدعى أعضاء الحزب عناوين الكتب ليفاخروا بما أنجزوه من قراءات، وليمارسوا التقليل ممن لا يشاركهم القراءات ذاتها، فإن كان حزب المثقفين ذلك لا يكف يوميًا عن انتقاد قناعات البسطاء وأفكارهم الأسطورية وأحيانًا الخرافية باسم نزع القداسة، فهم أيضًا أسرى أوثانهم التى شكلوها بأناملهم. واستدعاء أوثان المثقفين مسألة تقتضى وقفات أخرى، لكن ما يهمنا الآن هو قداسة القراءة فى معادلة تبسيطية لا تخلو من سذاجة؛ أنت تقرأ فمرحبا بك فى حزبنا الذى يعتلى البرج العاجى، وهو لا يقرأ فلا أهلًا به معنا وليبقى متخبطًا فى جهالاته.

بايار يضع يده على تلك المعادلة التبسيطية ليوضح أن هناك الكثير بين القراءة واللا قراءة، ومنها ببساطة تلك الكتب التى قرأناها ثم نسيناها بل ونسينا حتى إننا قرأناها من قبل. ثم ماذا عن الكتب التى قرأنا عنها حتى تشبعنا بفكرتها ومحاورها وحتى السياقات التى ولّدتها دون أن نتعرض للكتب ذاتها؟ والكتب التى تصفحناها سواء من البداية حتى النهاية أو تصفحًا عشوائيًا وكان هذا التصفح كافيًا لتكوين فكرة جيدة عن الكتاب؟ أين يمكن موضعة هذه الحالة، هل هى قراءة أم لا قراءة؟

ولنقف قليلًا هنا عما أثاره الكتاب لدىّ من أفكار حول تلك المعادلة التبسيطية «قراءة مقابل لا قراءة»، ونفكر ما حال الناس الذين يقضون أعمارهم فى قراءة كتب للمتطرفين الحاثين على كل ما ضاد الحياة؟ هل هم إلى «جنة المثقفين» أقرب أم إلى الجهالة؟ وماذا عن المئات من الكتب التجارية التى تُنشر لـ«المؤثرين» أو حتى الكتابات الأدبية الركيكة التى يقرأ المراهقون العشرات منها شهريًا فتظل تنقلهم إلى ما هو على شاكلتها دون أن ترتقى بحسهم الأدبى أو الفكرى أو حتى اللغوى قيد أنملة؟ هل يحق لهؤلاء أن ينعموا بالرضا عن كونهم قراءً فقط لأن ثمة كتابًا بين أيديهم، وقائمة قراءات العام لديهم تضم مئات الكتب!

لطالما أثارت نصيحة «اقرأ كثيرًا» امتعاضى، فمع كثرة الكتب الرديئة فى مقابل القليل من الكتب ذات القيمة، ومع اقتناعى بأن القراءة تجربة ذاتية فى المقام الأول وصاحب يرافقك فى رحلة الحياة وليست غاية بحد ذاتها، كنت أعى أن تلك نصيحة زائفة، فلم تعد الكتب الرديئة، لا سيما بالسنوات الأخيرة خطوة على درب يرتقى بسالكه إلى ما هو أفضل، بل على الأرجح، وفى ظل وفرة الردىء وندرة النافع، سيظل القارئ المختال بالكتب التى يحملها يتخبط فى دروب كتب تفضى إلى الجهل أكثر مما تقود إلى الوعى. ما لم يقله المؤلف ولكن كتابه دفعنى للتفكير فيه أن المهم ليس أن تقرأ، فالقراءة لا ينبغى أن تكون غاية بحد ذاتها، وإنما المهم هو كيف تقرأ؟ هذا هو ما يتجاهل كثير من المثقفين الحديث عنه ربما للحفاظ على هالة القداسة باقية، فالقداسة تقتضى ألا يُناقش المقدس ولا يُمس، وهكذا قدس حزب المثقفين القراءة، وتركوا القراء وغير القراء فى ضلالاتهم يتخبطون.

2 ماذا عن الكتب التى نسيناها؟

يتحدث المؤلف عن الكتب التى نسيناها بعد القراءة باعتبارها مما يقع بين حدى القراءة واللا قراءة فى المعادلة التبسيطية، فذاكرتنا لا تحتفظ بكتب موجدة متجانسة، بل بشذرات ننتزعها من قراءات متفرقة وجزئية ونخلط بعضها ببعض فى أغلب الأحيان ونعدلها تبعًا لاستيهاماتنا. ولكن آفة النسيان كثيرًا ما جعلتنى أتساءل كثيرًا عن الجدوى من القراءة، فإن كان ما نقرأه يُنسى كليًا أو جزئيًا إلى حد قد يبدو لقاؤنا الثانى مع الكتاب وكأنه اللقاء الأول دون أى شبهة معرفة سابقة، فلمَ نقرأ؟ ظل السؤال مؤرقًا إلى أن وصلت إلى قناعة بأن النسيان قد يكون أفضل من «الميموري» المتنقلة من مكان لآخر، فمع النسيان، ثمة عصارة انتقلت إلى العقل والروح من الكتب المختلفة، ولن تظهر سوى بأشكال خفية، ربما فى سلوك أو رؤية للحياة والعالم. أما هؤلاء المثقلة ذاكرتهم بالمئات من الاقتباسات والأسماء فربما لن يقيض لهم أبدًا أن يكونوا أنفسهم، ومن المحتمل أن يظلوا أبواقًا لمن قرأوا لهم، ستحميهم هالة المثقفين المقدسة بالطبع، ولكن هل سيتجاوزون دور «البوق» يومًا ما؟

3 ما الذى تعنيه قراءة الكتاب كاملًا؟

يرى بايار فى الأطروحة المركزية للكتاب أن القراءة الفعالة والمثمرة الكافية للحديث عن كتاب لا تعنى أن يُقرأ الكتاب كاملًا، وأن تصفح الكتاب أو حتى قراءة ما كُتب عنه أو الاستماع إلى حديث الآخرين عنه قد يكون كافيًا لتكوين رأى معقول والحديث عنه بدرجة مقبولة، وهى أطروحة تستحق التفصيل والمناقشة.

أقر بأن شجاعة المؤلف فى مواجهة إكراهات المثقفين بخصوص قداسة القراءة واعترافه باعتماده لأشكال مما يعد «لا قراءة» فى تعاطيه مع الكتب يظل مثيرًا للإعجاب، لا سيما حين نتأمل مشهدنا الثقافى العربى الذى قد ندرك، بقليل من التأمل، اعتماد الكثيرين فيه على أشكال ما يعد لا قراءة كما تعرّض لها المؤلف فى حديثهم عن الكتب، بينما لا يصرح أحدهم أبدًا بذلك، بالتأكيد خوفًا من النظرات الاستهجانية وتجنبًا للخروج عن هالة المثقف القارئ. كثيرًا ما كنت أفكر، كيف لأحدهم أن يخرج علينا بثلاثة مقالات أسبوعيًا عن أعمال أدبية وغير أدبية ضخمة فى أحايين كثيرة؟ وبندوات وأحاديث عن كتب أخرى؟ وربما دلنى كتاب بايار على الإجابة التى لن يعلنها أحد أبدًا؛ إنه التصفح الفعّال والاحتكام إلى ما قيل وكتب من قبل عن الكتاب. وبين الفعل والإخفاء المتعمد يمكن معاينة تلك الحالة من النفاق الاجتماعى والكذب التى تشيع فى أوساطنا الثقافية. يقول بايار: ثقافتنا تقوم على مسلمة ضمنية تقول إنه يجب عليك أن تقرأ الكتاب لكى تتحدث عنه بشىء من الدقة، لكن خبرتى أنبأتنى بأنه من الممكن جدًا أن نخوض نقاشًا محتدمًا عن كتاب لم تقرأه، بل إنه يستحسن أحيانًا إن أردت أن تصيب فى حديثك عن كتاب ألا تقرأه قراءة كاملة أو حتى لا تفتحه بالمرة!. أعترف بأننى أتفق مع المؤلف فى قوله «من الممكن جدًا أن نخوض نقاشًا محتدمًا عن كتاب لم تقرأه»، فقد عاينت ذلك بنفسى؛ عشرات الندوات والأحاديث، التى قد تمتد لساعات، والمقالات التى قد تطول لصفحات، عن كتب لم يقرأها من يتحدثون عنها، فقط قراء الكتاب سيكون بمقدرتهم اكتشاف ألاعيب الحديث المتبعة بإتقان للنقاش حول كُتُب لم تُقرأ. ولكن ما الجدوى من ذلك؟ قد تكون الحيل المذكورة بالكتاب فعالة فى مجرد «الحديث» عن الكتب غير المقروءة، وفى تخفيف الشعور بالذنب أمام كم الكتب الهائل الذى لن تسمح أعمارنا بقراءتها كاملة، وربما هى مفيدة حتى فيما يخص الكتب المقروءة، ولكن قد لا تتجاوز أهمية تطبيق تلك الحيل مجرد «الحديث»، فعلى الأرجح لن يكون بمقدور متبع نصائح بايار، إلى حد جعلها أسلوبًا معممًا فى التعامل مع جميع الكتب، تكوين معرفة حقيقية وعلاقة حميمة مع الكتب الأثيرة، سيظل بإمكانه الحديث عن الكتب بشكل قد يبدو بارعًا، ولكن من المحتمل أن يقوده ذلك النهج إلى خفة فكرية لن ينجو منها.

4 على هامش نصائح المؤلف

يحاجج المؤلف بأنه ليس من المهم أن تقرأ هذا الكتاب أو ذاك، بل أن تنظر إلى مجموع الكتب نظرة شمولية، وهو ما يجعل عدم قراءة الكتاب كاملًا أكثر جدوى برأيه، فيقول: إن من يحشر أنفه فى الكتب فلقد خسرته الثقافة بل والقراءة نفسها، فبسبب عدد الكتب لا بد للمرء من أن يختار بين هذه النظرة الشمولية وكل كتاب، وتكون بذلك كل قراءة مضيعة للجهد.. الثقافة الحقة يجب أن تنزع إلى الاستيعاب الكلى ولا يجوز لها أن تختزل إلى مراكمة للمعارف التفصيلية.. الروابط والصلات هو ما يجب على المثقف أن يتعرف عليه، لا هذا الكتاب أو ذاك على وجه التحديد. لا يمكننا أن ننكر صحة حديث المؤلف عن النظرة الشاملة والاستيعاب الكلى الضروريين للثقافة، ولكن الإقرار بسلامة الغاية لا يعنى بالضرورة الموافقة على السبيل إليها، فالتصفح والاعتماد على الفهارس لن يقود سوى إلى نظرة سطحية لا تدرك من الأشياء سوى قشورها، فلا دس الأنف فى كتاب بعينه وتفصيلة محددة طوال الحياة سيجعل القارئ مثقفًا، ولا الاطلاع المتعجل، فى دقائق على فهارس الكتب ومحتوياتها سيقود إلى الثقافة والاستيعاب الفعال. ينصح بايار كل من وجد نفسه فى موقف المضطر إلى أن يحدث كاتبًا عن كتبه وهو لم يقرأها، أن يمدحها دون الخوض فى التفاصيل، لأن ما يتوقعه الكاتب هو بالأحرى أن نقول له مع الإبقاء على أكبر قدر ممكن من الغموض أننا أحببنا ما كتبه. ولنا أن نتساءل هنا: أليس هذا شكلًا من أشكال النفاق وإكراهًا من الإكراهات التى انتقدها الكاتب؟ فما الذى يعنيه التشديد على ضرورة عدم الخجل بشأن عدم القراءة فيما يدعو من جهة أخرى إلى الكذب على الآخرين بادعاء القراءة!

يمكننا القول بشكل عام إن الكتاب كاشف للكثير من الحيل المتبعة بالفعل فى التعامل مع الكتب غير المقروءة والحديث عنها، فسيجد القارئ الكثير من المواضع التى يمكن أن تحيله إلى مقال قرأه أو ندوة حضرها، وقد يكون مفيدًا فى تخفيف الشعور بالذنب أمام كم الكتب التى سنظل جاهلين بها رغمًا عنا، وجعلنا أكثر جرأة فى مواجهة الإكراهات المحددة سلفًا. ومع ذلك، فإن اتباع الحيل والاعتماد الكامل عليها يهدد بثقافة تبتهج بسطحيتها وضحالتها وتدافع عنها!

بايار

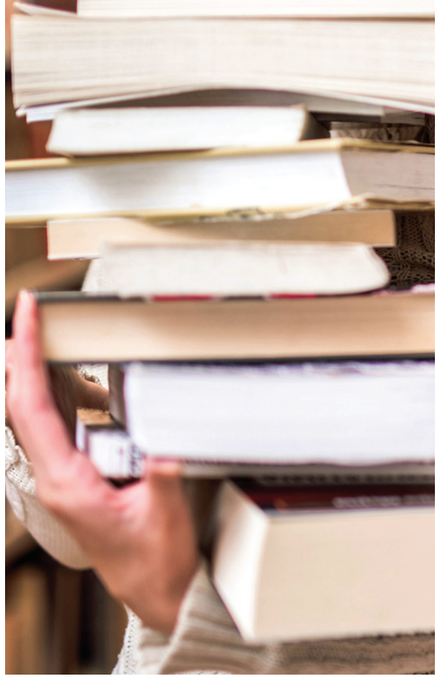

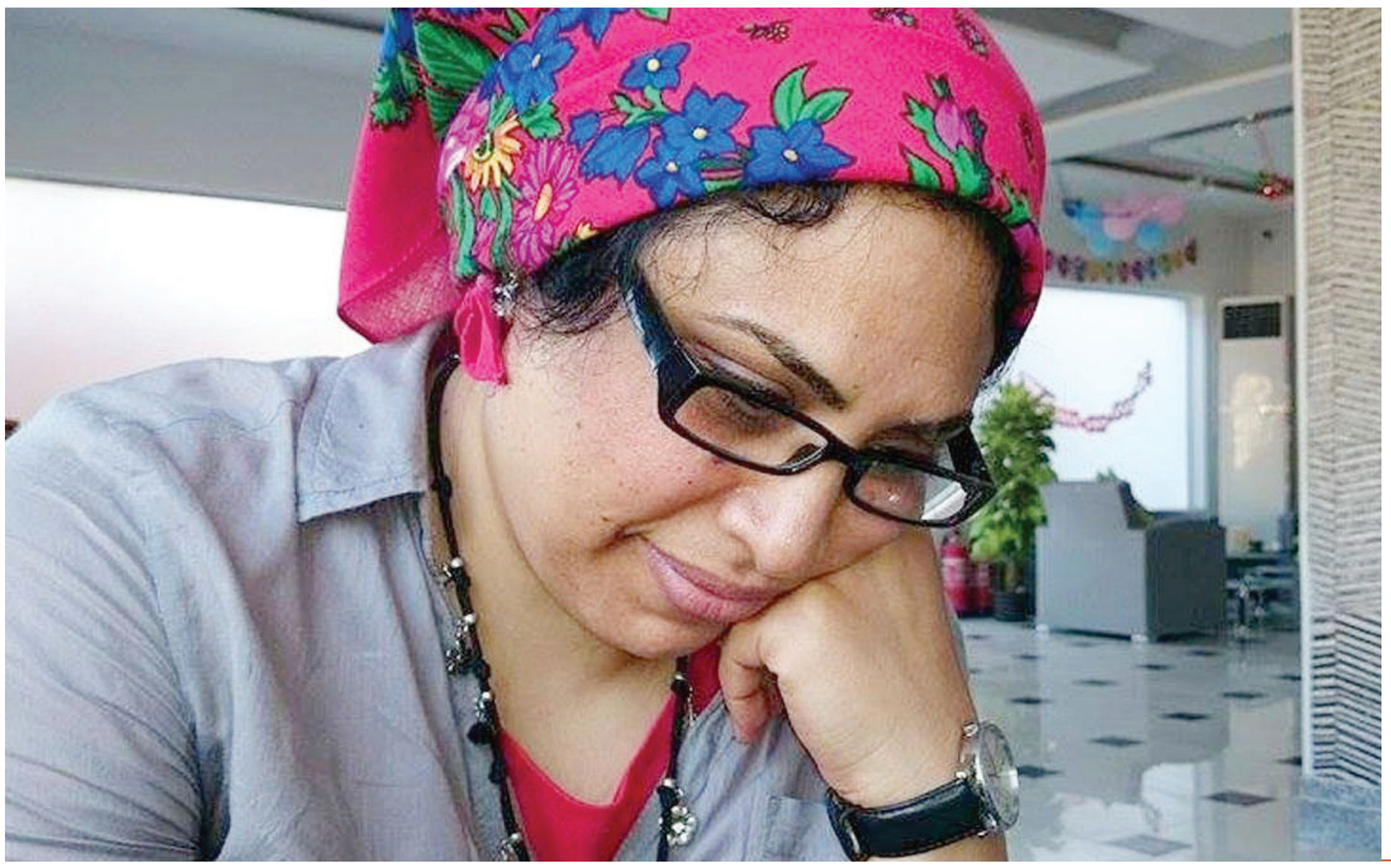

وصلت إلى القائمة الطويلة لجائزة «البوكر» العربية لعام 2015، عن رواية «بحجم حبة عنب»، والتى من خلالها أيضًا حصدت جائزة «ساويرس»، إلى جانب مجموعة من الجوائز المهمة الأخرى، مثل جائزة «كتارا» عن رواية «وطن الجيب الخلفى»، و«الشارقة» عن المجموعة القصصية «وإذا انهمر الضوء»، و«دبى» عن المجموعة القصصية «من خرم إبرة»، و«BBC» عن القصة القصيرة «صليل الأساور».

وفى روايتها الأخيرة «يوسف كمال فى رواية أخرى»، تقدم منى الشيمى، بلغة شغوفة وأحداث مفعمة بالتشويق، وبعد 5 سنوات من البحث والتقصى، مروية مختلفة عن الأمير يوسف كمال، أحد أهم أمراء أسرة محمد على، لا تمت بصلة إلى المروية التاريخية المتناقلة عن هذا الأمير. والأمير يوسف كمال، المولود فى يناير 1882، هو مؤسس «مدرسة الفنون الجميلة»، تلقى تعليمًا راقيًا فى مصر، وبعدها سافر إلى أوروبا، قبل أن يعود من جديد إلى مصر، وكان عاشقًا للفن مولعا بشراء الأعمال الفنية، وربما من هنا تأتى أهمية هذه الرواية، التى نستكشف أهم كواليس وتفاصيل كتابتها، فى الحوار التالى الذى أجرته «حرف» مع منى الشيمى.

إيهاب مصطفى

البحث عن يوسف كمال

منى الشيمى: أنا روائية ولست باحثة.. والتصنيف لا يهمنى

■ لماذا استغرقت ٥ سنوات كاملة من البحث والتقصى لكتابة «يوسف كمال فى رواية أخرى»؟

– ٥ سنوات لم تكن مدة طويلة، فى ظل غياب المصادر، لك أن تتخيل أننى ظللت عامًا ونصف العام فى انتظار موافقة دار الكتب والوثائق للاطلاع على حجج وعقود الأمير يوسف كمال، تذهب وتعود، تستجدى الوساطة من هذا وذاك، ولم أحصل على الموافقة فى النهاية، لم يحدث هذا فى دار الكتب والوثائق فحسب، بل فى مصلحة الضرائب العقارية، ودار المحفوظات بالقلعة، بحجة أن الروائيين ليس من حقهم الاطلاع، أو أن الرواية ليست كالبحث العلمى الأكاديمى.

كما أن أرشيفات جرائد ومجلات هذه الفترة مهترئة وفى حالة يرثى لها، ومعظمها تالف أو مفقود. ويوسف كمال نفسه ليس مذكورًا كثيرا فى المراجع، إلا بشكل عابر، من خلال أخبار عن الصيد والرحلات. لكن كل هذا جعل الأمر أكثر تشويقًا، ودفعنى للإصرار على المضى فى المشروع.

ولم يكن طول فترة البحث سيئًا على كل حال، على العكس، كانت الطرق، فى العام الأخير، تُفتح –من حيث لا أدرى– على المزيد من المعلومات، وأظن، أننى لو تأخرت أكثر، لوجدت المزيد. ولذلك كله، استغرق البحث ٥ سنوات كاملة، لكن الكتابة نفسها لم تستغرق سوى ٤ شهور فقط.

■ خلال الـ٥ سنوات كان هناك الكثير من التوقف والمواصلة.. هل كتبت أعمالًا أخرى فى هذه الفترة ولَم تُنشر؟

– كانت هناك جائحة فيروس «كورونا»، اختطفت عامًا ونصف العام من الزمن، ملأتنا بالذعر والترقب، كتبت خلالها روايتين لليافعين، نشرت إحداهما، ووصلت إلى قائمة جائزة «اتصالات» لأدب الطفل، وبصدد نشر الأخرى الآن، إلى جانب كتاب للرسائل، وضعت فيه جزءًا من تصورى عن العالم فى العزل الإجبارى.

■ بالتأكيد لكل عمل باعث، ما الذى دفعك لكتابة الرواية مع كل هذا الجهد وهذه المشقة؟

– العمل الأدبى غالبًا يحتوى على رؤى قريبة وأخرى بعيدة، تُفهم من مجمل العمل، القريبة كانت سيرة يوسف كمال، «أفندينا نجع حمادى»، حيث ولدت وعشت لمدة تزيد على ٤٥ عامًا، وحيث ورث عن أجداده أبعادية تقدر بـ ١٧ ألف فدان، وقصور وأراض وقيسارية ومحال وشوارع خاصة. كانت أبعاديته هذه مزرعة القصب التى عمل فيها معظم الناس، والباقى عمل فى مصنع السكر الذى بناه وتمتع بخيره الرأسماليون الفرنسيون والبلجيك.

بالطبع شكل يوسف كمال لغزًا محيرًا عند الناس هناك، من كان أجدادهم بمثابة «العبيد» عنده، من كان جدودهم خارج أسوار القصر، يعملون تحت الشمس وأمام الأفران الحامية وقيزانات سبك السكر العملاقة، وأحواض ترسب طين المرشحات.

كلما أوغلت فى العمل تشكلت الرؤى الأشمل، عن أهل نجع حمادى ومصر كلها فى تلك الفترة، صراع الأجنحة على السلطة آنذاك، هل كانت مصر نفسها تهمهم أم لا. ولأنى أكتب من المستقبل «الآنى والمعاصر»، تدخل المقارنة بين ما كان وما هو قائم. ربما نجحت فى ربط الماضى بالحاضر وربما لا، لا أعرف، لقد نشر العمل وانتهى أمره بالنسبة لى، الحكم للقارئ، لكن هذا ما كان يشغلنى وقت الكتابة.

■ «رجل الخير- إعداد الموسوعة الجغرافية- مدرسة الفنون».. كلها أعمال ليوسف كمال أوردتها فى روايتك.. هل ترين أن كل ما وصلنا يحتَاج إلى تنقيب وبحث؟ أن هناك سيرًا غير كاملة أو لها وجهتا نظر؟

– لا أجزم بوجود حقيقة كاملة واضحة وضوح الشمس فى أى شىء، اللهم فى أمور صغيرة لا تحتمل التأويل، كأن تجزم بأنك أكلت لحمًا على الغداء. مثلًا اقتطاع قصص تبرعه للجمعيات الخيرية ولفروع العائلة البعيدة عن الحكم عن سياق الصراع الداخلى لتلك الفروع، لا يمنحنا الحقيقة، انتزاع قصة افتتاح مدرسة للفنون من سياق صراع الأمراء للوصول إلى أريكة الحكم، وتولى الأمير أحمد فؤاد إدارة الجامعة المصرية وقتذاك، لا يمنحنا الحقيقة، حتى الموسوعة الجغرافية، كان يوسف كمال يعرب الكتب الأجنبية، ويؤلف أو يكتب له مسعود أفندى، كاتب ومترجم قلم الداخلية، كتبه عن الرحلات إلى الهند وإفريقيا، باللغة العربية، فلم وضع الموسوعة الجغرافية بالفرنسية؟

ومع جزمى بنقصان الحقيقة دومًا، لا أدعى أننى قدمتها فيما كتبت. السيرة اسمها: «يوسف كمال فى رواية أخرى»، هى رواية تخصنى، لا أكثر ولا أقل، ومع «التخييل الذاتى» الذى لا ينجو منه كاتب، ربما، أكون كتبت نفسى، أو نقلت خبراتى ورؤيتى، وما كان من الممكن أن أفعله لو حللت محل يوسف كمال. ما فعلته اجتهاد لا يخلو من شك، والشك أول مراتب اليقين، أو أول مراتب التفكير، وما أحوجنا للتفكير!

■ مع ذكر الكثير من الهوامش والمصادر، ما الذى جعل فكرة السرد الروائى تخطر ببالك؟ لماذا لم تقدمى العمل فى شكل كتاب بحثى مثلًا؟

– منذ روايتى «بحجم حبة عنب» استهوانى الاستقصاء والتوثيق، رغم أن خط الاستقصاء فيها كان ضئيلًا لا يمثل شيئًا بالنسبة للسرد، أو هو استقصاء عائلى محلى لمعرفة الجذور. وأرى أن كل رواية لا تخلو من الاستقصاء بشكل أو آخر.

فى رواية: «وطن الجيب الخلفى» التزمت الاستقصائية فحسب، المتخيل كان مبنيًا على الوثيقة. وهكذا فعلت مع «يوسف كمال»، لا أنكر ميلى إلى البحث، لكننى لست باحثة، أنا روائية، أقدم البحث فى صورة رواية، والرواية فى صورة بحث، التصنيف لا يهمنى، الشكل نفسه لا يهمنى أيضًا، ما يهمنى أن يكون نسيج العمل متماسكًا، كما أننى أميل إلى التجريب منذ بدأت الكتابة، لأنه ممتع مثل البحث، وفعل الكتابة نفسه.

■ فى السيرة الروائية أحيانًا تكون رؤى الشخوص على عكس راويها.. كيف تتعاملين مع هذا الأمر؟

– لا أستغل شخوصى كأقنعة إلا لضروريات، ربما تتسرب بعض آرائى إلى الشخصيات بلا وعى أحيانا، كما قلت: التخييل الذاتى يجعلنى أنا وشخصياتى كائنًا واحدًا. ما أظنه أننى أترك الحرية لهم فينطلقون بلا كابح، فى بعض الأحيان يدهشوننى نفسى، أنا من كونتهم من العدم. يفاجئنى أحدهم بموته، على الرغم من رغبتى فى استمراره على قيد الحياة، ويفاجئنى آخر بظهوره فى إحدى مراحل تنامى الحدث، على الرغم من اكتفائى بمن اخترته سابقًا.

ثمة لحظات يقودك فيها منطق العمل لا منطقك أنت، تصبح الشخصيات حقيقية أكثر مما تظن، هذه هى أسمى وأجل اللحظات، حتمًا يعرفها الكثير من الكتاب، ترتعش اليد، لأن الأحداث أو الوصف أو الشخصيات، تتشكل أمامك، أنت فقط تكتب الكلمات.

لماذا أوردتِ رحلة منى الشيمى البحثية وسفرها ودراستها ثم ذكرتِ ما حدث لـ«يوسف كمال».. كأنك جزء من الحدث نفسه؟

- كان لابد أن أتواجد فى العمل، ليست «نرجسية» أو تعظيما لرحلة البحث، بل هى مجرد حيلة فنية لوصل الماضى بالحاضر، ونثر رؤيتى الأشمل بين جنبات العمل، فقصة يوسف كمال وحدها لا تمنحنى تلك الرؤية، معرفة حجم الأبعادية قبل حركة الضباط تكتمل بحالها الآن، معرفة مصنع السكر لا تكتمل إلا بما آل إليه، الحكم على الفترة الملكية لا يتضح إلا بمقارنتها بغيرها. مات يوسف كمال فى فبراير 1967، وأنا ولدت بعده بعام واحد، أى أننى حللت محله منذ توفى وإلى الآن!

كما أن ضمير «الأنا» حيلة أيضًا لـ«مخاتلة» القارئ، وكأن يوسف كمال يعترف له وحده، من فراش الموت، وهو أقرب الضمائر إلىّ وإلى كثير من الكتاب، ولك أن تلحظ كم الروايات التى تعتمد على تعدد الأصوات الآن، كل صوت يتحدث بضمير «الأنا».

كمال

استغرقت 5 سنوات من البحث لكتابة «يوسف كمال فى رواية أخرى».. وكتبتها فى 4 شهور

أقدم البحث فى صورة رواية والرواية فى صورة بحث.. وأميل إلى التجريب منذ بدأت الكتابة

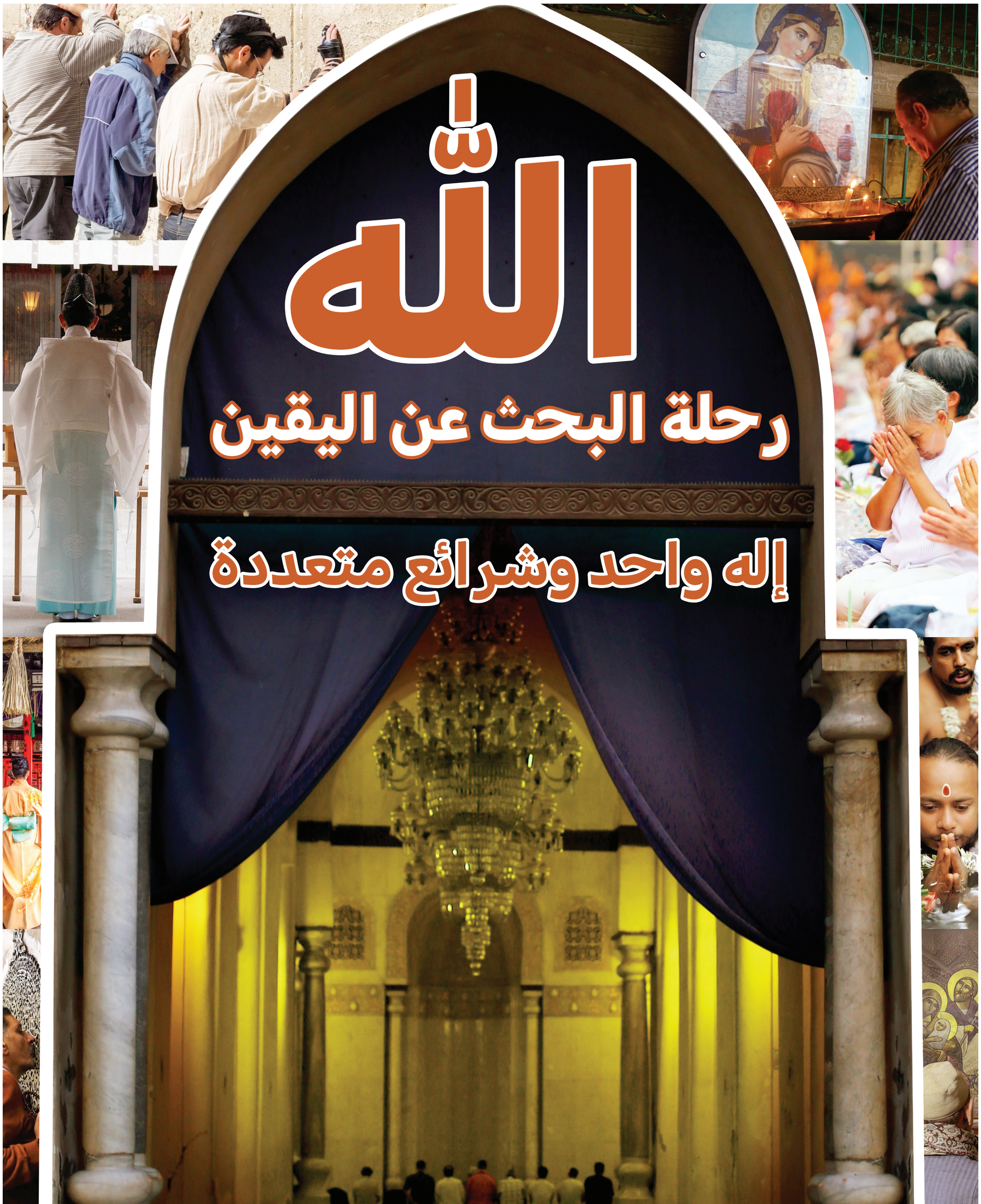

الله

رحلة البحث عن اليقين

إله واحد وشرائع متعددة

بداية دعنا نتفق أن الأسر قد يكون أكثر ألفة من الحرية الغريبة لدى البعض وأن حدود العقل لا تعنى شيئًا أمام طوفان الشغف. الأسر الذى أتحدث عنه هنا هو شرنقة الفكر وسياج العقل الذى يركن إلى كثبان رملية متحركة تقدس المألوف وتأبى أن تتجاوزه؛ خشية السقوط فى فخ المعرفة أو فى نار الحميم.

أما حدود العقل التى يعتصمون بها مجرد خطوط حمراء رسموها سالفًا للتحليل والاستنباط، وشجاعتها لا تتعدى حدود التبرير عوض التفسير، وهى ذاتها التى تجاوزها إبراهيم عليه السلام، حين شرع فى رحلة البحث عن القوة المطلقة التى تصبغ كلّ ما يراه بصبغة المنطق، عن إله يلهمه الإيمان ودفء السكينة التى لطالما فتش عنها.

ألم يكن إبراهيم عليه السلام هو أول من استخدم العقل للوصول إلى الله، والقرآن وثق الرحلة فى سورة الأنعام بقوله تعالى «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

ألا ينتهى العديد من آيات القرآن الكريم بـ«أفلا تفكرون»، «أفلا تتدبرون»، «أفلا تعقلون» بما يعنى ضرورة إعمال العقل والتفكر والتدبر. ألم تكن أولى رسائل السماء للنبى على جناحى جبريل كوحى «اقرأ باسم ربك الذى خلق»؟ ليرسى مبدأ أن أسمى مقاصد العقيدة فتح باب الفكر والنظر.

ألم يقل ابن الجوزى «فى التقليد إبطال لمنفعة العقل»، فلماذا ننكر على الباحثين السؤال ونتهمهم بالضياع، بل والكفر فى أغلب الأحيان. هل ترضى أن يقول إن الحق هو ما ولدت عليه ووجدت آباءك عليه دون أن تتأكد؟ هل ترضى أن تأخذ بقشور الأمور دون أن تختبر جوهرها؟

إن رحلة البحث عن الله لا تعنى بالضرورة عدم الإيمان به، بل ربما هى رحلة البحث عن اليقين الثابت غير المراوغ عن بقعة الضوء التى تنير مسارات الوصول إليه بما يتخللها من الآلام، الضّياع، الخوف، والتّردد، الشّك، واليقين، والبحث، والسّؤال.

إلى كل الحيارى والتائهين الباحثين عن الله.. لقد كنت يومًا مثلكم، كنت أردد أن الشتات قدرى الذى عاندته كثيرًا وهزمنى مرارًا، لم أكن أدرك حينها أن صحراء التيه ليست سوى سبيل الوصول إلى واحة اليقين. أرهقتنى عشرات الأسئلة، صرت أكلم نفسى دائمًا، وأنا ما زلت طالبة بالصف الثالث الثانوى، غير أن السؤال الأهم الذى ظلت أناته تؤرق عقلى الصغير حينها: إذا كان كل أتباع الديانات السماوية، وحتى الوضعية يزعمون أنهم أصحاب الحق المطلق فى الجنة، وأن جزاء ما دونهم الدرك الأسفل من النار.. فما الدليل على أننى على الصواب.. وهل خلق الله كل هؤلاء البشر ليعذبهم؟

ولأن السؤال من زاويتى هو بداية المعرفة، وشهيتى فى طرح الأسئلة لا تفتر مطلقًا، فقد أمضيت سنوات أنقب وأبحث بين مراجع السنة فى محاولة بائسة للوصول إلى إجابات مريحة باردة.. بيد أن محصلتها كانت مزيدًا من التساؤلات العالقة بألسنة اللهب دون إجابات. إذ لم تشفع لى نصف أجزاء القرآن التى حفظتها دون سن العاشرة ولا التيارات الدينية التى تدثرت بالاقتراب منها فى ملء براح عقلى المثقل بعلامات الاستفهام، كنت أريد أن أقبض على البرهان الثابت والحقيقة القاطعة التى لا تقبل الشك، فلن يقف شخص مكانى أمام الله حتى ولو كان شيخ الإسلام، لقد وجدت الله واحدًا فى كل شرائعه وإن اختلفت طقوس التقرب إليه، فسبحانه جل شأنه رحمته وطن المستضعفين وقلوبنا بين يديه ونحن جميعًا من روحه.. ألم يقل «ونفخنا فيه من روحنا».

هبة المنسى

الصابئة أتباع سيدنا يحيى يؤمنون إلى جانبه بأربعة أنبياء آخرين هم آدم وشيت بن آدم «شيتل» وسام بن نوح وزكريا

يجتمع المسلمون واليهود فى شريعة الصيام حيث يبتدئ من قبل غروب الشمس إلى بعد غروب الشمس من اليوم التالى

1 اللّه كما رأيته عند الصابئة

السماء لا تتوقف عن إرسال إشارات إلى الأرض وثمة علامات مهدت مسارات الرحلة إلى الله.. أولى مساقط الغيث كانت من خلال العراب الأول، الدكتور حسن حنفى، رحمه الله، أستاذ الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة، فقد سقطت طواعية وأنا بالسنة الثانية بكلية الإعلام أسيرة لفلسفته حول الأنا والآخر.. اقتفيت آثار أفكاره التى حملتنى إلى الإبحار بكل جرأة لاكتشاف الآخر المخيف وغير المألوف استغرقت حتى الثمالة فى قراءات حول تاريخ الأديان التوحيدية، عرجت خلالها إلى الصابئة باعتبارها أقدم الديانات الإبراهيمية، ومن ثم إلى اليهودية والمسيحية.. فما وجدته بين ثنايا تلك الأديان من خلال ما سطره أتباعها و«شيوخها»- إن جاز التعبير- هو ما يجعلنى أجزم الآن بأن عتبات الحقيقة لا أحد يملكها بشكلها المطلق وسيرتها الأولى وهو ذاته ما يدفعنى لكى أروى لكم أطوار التكوين.

لقد كان تقاطع رسالات الله للأرض على رقعة واحدة تتشابه فيها الطقوس والمناسك هو كلمة السر فى تشكيل رؤيتى الخاصة حول علاقة الإنسان بربه وما تبعه من إيمان راسخ بأن الأديان لم ولن تكون سببًا فى شقاء البشرية.. وأن تداخلات الدين والسياسة كانت حاضرة منذ وطأت أقدام بنى آدم الأرض.

بداية لنمسك بالمصحف الآن ونقرأ فى سورة البقرة، الآية ٦٢: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وَعَمِلَ صَالِحًا فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»، ثم الآية ٦٩ من سورة المائدة؛ حيث يرد ذكرهم ضمن بقوله تعالى «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». سنضع خطًا تحت كلمة الصَّابِئُون ثم نلتقط أنفاسنا لنعرف من هؤلاء الذين وصفهم القرآن بأنه لا خوف عليهم ولاهم يحزنون «بسم الحى العظيم ربى» «بسم الله الحى الأزلى» بهذه الكلمات، والتى لا تتبعد كثيرًا عن البسلمة لدينا نحن- المسلمين- يبدأ المندائيون طقوس الصباغة أو الطهارة بالماء الجارى ثلاث مرات لإزالة النجاسات والجنابة، والصابئة هم أتباع سيدنا يحيى، يؤمنون إلى جانبه بأربعة أنبياء آخرين، هم آدم، شيت بن آدم «شيتل»، سام بن نوح، زكريا، ويعتقدون أن كتابهم «كنزا ربا» نزل على يحيى بشهادة القرآن الكريم «يا يحيى خذ الكتاب بقوة».

وحدانية الله لديهم مطلقة، ومن جملة أسمائه الحسنى عندهم «الحى العظيم، الحى الأزلى، المزكى، المهيمن، الرحيم، الغفور» وترتكز الديانة الصابئية على خمسة أركان أساسية، فإلى جانب التوحيد بالحى الأزلى بالله الواحد الأحد «سهدوثا ادهيى» لا شريك لأحد بسلطانه، والصباغة والتطهر هناك الوضوء والصلاة «ارشاما وابراخا»، فضلًا عن الصوم والصدقة والزكاة

وضوء الصلاة عند الصابئة يشابه إلى حد ما وضوء المسلمين من حيث الأعضاء والتلسلسل، حيث يتكون من ١٣ فرضًا، من بينها غسل الوجه واليدين والقدمين والصلاة هى عماد الدين الصابئى، الذى لا يقوم إلاّ بقيامها. وهى من أول الواجبات من العبادات التى كلف الله بها الإنسان الصابئى، كانت فى الأصل تُقام خمس مرات كل يوم، قبل أن يقللها يحيى إلى ثلاث مرات تؤدى فى وقتها المحدد فلا يجوز الجمع بين صلاتين أو قضاء الفائتة كما هو الحال لدينا، وتكون صلاة الصُبح: من انفلاق الفجر حتى طلوع الشمس فى حين تبدأ صلاة الظهر من زوال الشمس عن وسط السماء أما صلاة العصر فتكون قبل غروب الشمس. حيث يقول كتابهم «كنزا ربا» مع انفلاق الفجر تنهضون* وإلى الصلاة تتوجهون* وثانية فى الظهر تصلّون* ثم صلاة الغروب* فبالصلاة تتطهر القلوب* وبها تغفر الذنوب.

قواعد الصدقة والزكاة لدى الصابئة تقترب من نظيرتها عند المسلمين، حيث يشترط كتابهم السرية وعدم المجاهرة لما يترتب على ذلك من إفساد لثوابها «إن وهبتم صدقة أيها المؤمنون، فلا تجاهروا، إن وهبتم بيمينكم فلا تخبروا شمالكم، وإن وهبتم بشمالكم فلا تخبروا يمينكم، كل من وهب صدقة وتحدث عنها كافر لا ثواب له». وجاء فى كتابهم أيضًا {أعطوا الصدقات للفقراء وأشبعوا الجائعين وأسقوا الظمآن واكسوا العراة؛ لأن من يعطى يستلم ومن يقرض يرجع له القرض} . بيد أن صومهم يعتمد على الامتناع عن أكل اللحوم ومنتجاتها وهو أقرب ما يكون لصوم المسيحيين.

إذن الصابئة المندائية وفق ما ذكر القرآن لا خوف عليهم لأنهم موحدون يؤمنون بالله الواحد الأحد وتتلاقى شعائرهم مع الأديان السماوية الأخرى فضلًا عن كونهم يحرمون الزنا والخمر ويؤمنون بالبعث والحساب. لكن الواقع أن فقهاء الدين لم يعترفوا للصابئة بما شهد لهم به الله فى كتابه كأهل دين وكتاب فى ثلاث سور.

الذاكرة الإسلامية تبدو حبلى بمواقف متناقضة من الصابئة، فتارة تصنف دينهم على أنه دين توحيدى يقبل من أتباعه الجزية، وطورًا آخر تذهب إلى كونه دينًا وثنيًا، إذ عدهم البعض من عبدة الكواكب، لأنهم يعتقدون بوجود حياة وبشر على الكواكب الأخرى ويتجهون فى قبلتهم إلى القطب الشمالى باعتباره رمزًا للجنة ومنه ينبثق النور.

ما انتهيت إليه مع المندائية أن علاقة السلطة بأتباع الديانات الأخرى ومساحات التسامح الدينى مع الآخر أسهمت فى مراوحة النظرة الإسلامية للصابئة، والتى خطت على إثرها الكتب التى تباين مضمونها وفق الحقبة الزمنية، ولعل هذا ما يفسر ويمهد مبدئيًا لقبول التعامل معهم والسماح لهم بالوجود كفرقة كتابية تؤدى الجزية وتمارس شعائرها وطقوسها بقدر من الحرية فى فترات ورفضهم بشكل قاطع فى مراحل أخرى.

الله كما رأيته عند الصابئة هو ذاته عند عموم المسلمين الفرد الصمد الرحمن الرحيم، ولكن لأن الأديان عادة ما تفجر تاريخيًا العلاقات السحرية لتتحول إلى دين خلاص فردى، فقد وجدت نفسى أمام حلقة مفرغة لا تكتفى برفض الآخر فحسب، بل تعمد إلى تشويهه بالكلية.. إذ إن «كنز ربا» -رجل الدين عند الصابئة- لا يختلف كثيرًا عن رجال كل الأديان، فجميعهم يحتكرون الجنة «بسم الله» خالصة لأتباعهم فقط دون أن يتخذوا عند الرحمن عهدًا.. ليبقى السؤال عالقًا حتى إشعار آخر «هل خلق الله الأديان لشقاء البشرية».

> وضوء الصلاة عند الصابئة يشابه إلى حد ما وضوء المسلمين من حيث الأعضاء والتسلسل

2 اللّه فى سفر التكوين

رياح القدر غالبًا ما تقود أشرعة السفن.. وقد كنت من زمن عشقت السفر ونبض البحار.. وكان نصيبى دائمًا الغوص فى أعماق المجهول بجذور حاولت قدر استطاعتى أن تظل قوية.. سافرت بين أروقة الكتب وفى أرض الله الواسعة.. لم أكن أود أن يرسو قاربى على شاطئ جديد أقف وحيدة عليه، بل سعيت فقط للحصول على رؤى مختلفة لتساؤلاتى المرهقة.

ربما لا يقضى السفر على قناعات أى منا، لكنه حتما يفضى إلى تغيير عميق ودائم فى زوايا رؤيتك للحياة.. رأيت شعوبًا تبكى وتضحك، تتألم وتفرح، تأكل وتموت.. تدعو الله على اختلاف مللها وطوائفها فيستجيب لها.. كان الله حاضرًا معهم مثلما هو موجود معنا دائمًا.. فهو أقرب للجميع من حبل الوريد وإن تباينت أو تشابهت الطقوس والمناسك.

سنسبح قليلًا ضد مياه الزمن.. ففى السنة النهائية بكلية الإعلام، حملنى حماسى وجوقة من زملائى بقسم الصحافة إلى التفتيش عن مشروع تخرج يكون جديدًا ومختلفًا وإن شئت يمكن أن تنعته بالمجنون.. فقد قررنا إصدار مجلة تحمل اسم «الآخر» وكان الآخر الذى نعنيه هو «إسرائيل».. كان الرافد الرئيسى لتصورنا أننا نريد أن نعكس المجتمع الإسرائيلى من الداخل نعرف كيف يفكر؟ وكيف يرانا؟

بديهيات الرحلة حينئذ كانت تقتضى مسارًا إجباريًا للتحرر من كل الموروثات لنقرأ ونكتب عن هذا الآخر بموضوعية.. أدركنا من واقع التجربة أنها مجرد حلم مشروع على أرض مستحيلة، حين تعثرت أقدامنا الشابة على عتبات المعبد اليهودى الكائن بشارع عدلى بوسط القاهرة.. شاهدنا الصلوات والمناسك التقينا ببقايا طائفة تنكر نفسها لتتلافى صورة ذهنية فى أغلب فصولها هى نتاج فكر أيديولوجى ساعد على نضجه بكل أسف الإعلام والدراما.

ولأن الأفكار الحالمة تحت سماء زرقاء صافية ترهب مسارح الذهن وتحرك مياهه الراكدة.. فقد كنت على موعد مع ضيف جديد استوطن عقلى حينها بالتزامن مع مشروعى عن «الآخر» ليقودنى إلى البحث عن الله عند اليهود. والأمر هنا لابد فيه من لفتة عابرة، لكنها ضرورية للتفريق والفهم، فما فتشت عنه هو الله فى اليهودية كأنى أقدم الديانات التوحيدية وليس الصهيونية، والتى هى حالة من حالات التماهى بين الدين والسياسة.

اليهود على الرغم من حالة الاشمئزاز التى تجتاح البعض من مجرد ذكر اسمهم، إذ يرتبطون ذهنيًا فى الذاكرة الجمعية للمسلمين بخيانة العهود، فقد أقصى النبى اليهود من المدينة؛ لأنهم واثقوه وعاهدوه ثم خانوا العهود وتحالفوا مع المشركين، كما يرد ذكرهم فى العديد من الآيات الكريمة ضمن سياقات متنوعة، تارة تتراوح بين رواية قصص بنى إسرائيل وأحيانًا تذهب إلى وصفهم بأهل الكتاب والذمة، لكن فى المجمل حمل النص القرآنى الكثير من الانتقادات لليهود. بيد أن الحقيقة الراسخة التى لا تقبل الجدل أو التشكيك هى أن ثمة تشابها واسعًا بين اليهودية والإسلام فى الشعائر والطقوس.

ورد فى «سفر دانيال» أنه كان يصلى ويركع ويشكر الله تعالى ثلاث مرات كل يوم «دانيال ٦:١٠»، وأحيانًا مرتين كل يوم «مزمور ٥٥:١٧»، وشروط الصلاة موجودة فى كتاب الصلاة اليهودى التقليدى «سيدور» حيث، قال الحاخام سعيد الفيومى فى كتابه: «وينبغى أن تُثبت شروط الصلاة التى لا بد منها. أما قبل كل صلاة لا بد من غسل اليدين وحدّ ذلك إلى الزندين والرجلين إلى الكعبين من أيّ صنعة عملية بعد الاستنجاء وغُسل الوجه على هذا الترتيب».

وتبدأ صلاة اليهودى بوضع شال صغير على الكتفين، وفى الصلوات الجماعية يوضع شال كبير حول العنق، ثم يقرأ القارئ مرتديًا ثوبًا أسود وقبعة على رأسه؛ لأنه يجب تغطية الرأس عندهم فى الصلاة، ويعبرون بذلك عن الاحترام لنصوص التوراة. ويتجهون فى صلاتهم إلى بيت المقدس. وخلال فترة التلمود كانوا يركعون ويسجدون فى صلاتهم بشكل كامل هو أقرب لصلاة المسلمين.

ويتقاطع الدين اليهودى والدين الإسلامى عند تفضيل صلاة الجماعة، فهى أفضل من صلاة الفرد وتؤدى ثلاث مرات، صلاة الفجر يسمونها صلاة السحر «شحاريت»، وصلاة نصف النهار أو القيلولة يطلقون عليها منحة، أما صلاة المساء ويسمونها صلاة الغروب «عربيت».

فى حين يجتمع المسلمون واليهود فى شريعة الصيام، حيث يبتدئ من قبل غروب الشمس إلى بعد غروب الشمس من اليوم التالى، ويمتنعون فيه عن الطعام والشراب والجماع، وبعض الأيام يكون صيامهم فيه من شروق الشمس إلى غروبها، ويمتنعون فيه عن الطعام والشراب فقط. فإن ثمة اختلافًا فى الزكاة، بالرغم من كونها فرضًا عند الجانبين، حيث يدفع اليهودى كل عام ١٠٪ من ماله كزكاة، جاء التشريع الإسلامى ليحدد نصابها بـ٢,٥٪.

عند اليهود الحج مفروض ثلاث مرات فى العام، ويتم إلى معبد فى القدس ويعد الطواف حول المعبد لسبع مرات من أركان الحج عندهم، فضلًا عن أن التضحية من مستحباته وليس شروطه الواجبة. والذبيحة عند المسلمين والشحيطة عند اليهود، كلاهما يتضمنان قطع عنق الحيوان بشفرة غير مسننة بمحاولة واحدة نظيفة تضمن قطع الأوعية الدموية الرئيسية، إذ يقوم اليهودى فى البداية بقول «تبارك الله» وتعتبر هذه العبارة ضرورية جدًا، ثم يقوم بنحر عنق الذبيحة ليسيل دمها، وعندها يصبح لحمها حلالًا أو «كوشير»، فضلًا أن أكل لحم الخنزير محرم لديهم، كما هو الحال فى الإسلام.

ويتشارك المسلم واليهودى أيضًا فى التقويم القمرى حساب الأيام من غروب الشمس حتى غروب شمس اليوم اللاحق، وتحريم الخلوة، إلا حال وجود محرم، واللمس والاختلاط إلا للضرورة، كذلك فى منع المرأة خلال النفاس من ملامسة التوراة، ومجامعة زوجه والختان، وإباحة تعدد الزوجات.

طقوس التواصل مع الله التى تصل إلى حد التطابق أغرت أجنحة عقلى المعلقة دائمًا على شفا التساؤلات وحملتها قسرًا إلى فصل آخر فى تجربة، شكل السياق التاريخى والظرفى للآيات القرآنية حول اليهود أهم مفرداتها، ووجدتنى بنهايتها أمام موجة جديدة من امتزاج ما هو دينى بما هو من فعل السياسة.

وإذًا كانت الصهيونية هى حركة سياسية استلهمت وجودها من التفسير التوراتى لـ«أرض الميعاد» واختارت فلسطين لتكون وطنًا قوميًا لسهولة التوظيف الدينى لها، مع أن الوطن المختار كان مقترحًا بمكانين غيرها، هما الأرجنتين وأوغندا. فضلًا عن رفض بعض الطوائف اليهودية المفهوم الصهيونى عن أرض الميعاد ودولة إسرائيل، حيث يعتقدون أنها لا يجب أن تُقام من قبل بنى البشر، بل يجب أن تقام على يد المسيح المنتظر، والذى هو من نسل سيدنا داود.

ففى المقابل هناك التفسير الثورى للآيات القرآنية حول اليهود، والذى حاولت الجماعات المؤدلجة منحه قماطًا دينيًا يلائم مرحلة ما بعد الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين ويبشر بأبناء الصحوة الإسلامية التى ستقضى على الكيان الصهيونى، على نحو يحمل قدرًا كبيرًا من الانهزامية، لاسيما بعد أن ربطوها بأشراط الساعة الكبرى ونزول المسيح عيسى بن مريم.

> يتقاطع الدين اليهودى والدين الإسلامى عند تفضيل صلاة الجماعة فهى أفضل من صلاة الفرد

لو كان المسيحيون كفرة فكيف أحلَّ القرآن طعامهم والزواج منهم بينما حرَّم ذلك بالنسبة للكفرة والمشركين؟!

قدماء المفسرين يؤكدون أن آيات «إن الله ثالث ثلاثة» نزلت فيمن يعتبرون المسيح ابن مريم وأمه إلهين من دون الله

3 التفسير الثورى لآيات القرآن ونهاية اليهود

التجارب ليست مصادفات عبثية.. فالله يتيح للإنسان الدخول فى التجربة، لأنه يعلم تمّاما حاجته للنمو الروحى.. يربط الله على أيدينا ويترفق بنا، يسمح لنا بالتجارب لكى نتدرب على طريق النضوج الروحى.

رحلتى إلى اليمن فى عام ٢٠٠٦ قفزت من تلقاء نفسها تلبية لتلك الحاجة، فعلى جناح السفر التقيت بـ«يهود اليمن» بما يشكلونه من حالة فريدة تتخطى قواعد المألوف.. إذ إنهم منفردون بين يهود العالم، يؤمنون بأن النبى محمد تلقى رسالة السماء ولكنهم يعتبرونه نبيًا «للجوييم» أى القبائل، وليس لبنى إسرائيل فى إشارة للقبائل العربية المحيطة بهم.

التقليد اليهودى اليمنى الذى يعترف بوجود أنبياء غير يهود بعثهم الله لهداية شعوبهم، على غرار بلعام وأيوب اللذين لم يكونا من العبرانيين، وثقه العالم نثنائيل بن الفيومى، وهو من يهود اليمن فى كتابه «بستان العقول» أن الله قد يرسل أنبياء لا تتفق رسالتهم مع المعتقدات التى أتى بها الأنبياء اليهود. ويعتبر الفيومى محمد نبيًا صادقًا غير أن رسالته موجهة إلى العرب بشكل خاص، وليست لليهود، وذلك لتعارضها مع التوراة.

ولأن الخلطة السحرية للأديان بأسرها تتعارض مع هذه الرؤية بما تحويه من انعتاق لقيود الفكر، لم تحظ نظرة اليهود اليمنيين للنبى محمد صلى الله عليه وسلم بقبول وسط أجناس وأمم اليهود فى العالم.. وربما بين من يعرفها من طوائف المسلمين.. لكنها كانت بالنسبة لى براحًا لعقل مثقل، وبقعة ضوء سطعت على مساحة شاسعة ولا متناهية من ظلام اللامعروف.

اتساع مساحة الاحتكاك بالمجهول حملت إرهاصات ترحال جديد بين آيات القرآن الكريم المتعلقة باليهود ظل مشفوعًا بتساؤل واحد: ماذا كان تفسير آيات القرآن حول اليهود قبل وعد بلفور والاجتياح الصهيونى عام ١٩٤٨؟ هل جرى تأويلها على إيقاع السياسة وما أفرزته لبنة التحولات الجيوساسية من مفردات وجودية تلائم واقع قيام دولة إسرائيل بصبغتها الدينية الراهنة.

الذكر العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بيديه ولا من خلفه.. أخبرنا فى سورة الإسراء أن الله قضى على بنى إسرائيل بالإفساد مرتين قال تعالى: «وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا» {الإسراء ٤-٨}.

ودقّة اللفظ القرآنى قطعية فى التقديم والتأخير والمراد من التسميات، لذا يبدو التوقّف مهمًا عند هذه النقطة بشيءٍ من التأمّل لاستيضاح ما إذا كان ثمة فرق دلالى بين مصطلح اليهود الذى ورد ذكره فى القرآن تسع مرّات فى ثمانى آيات، فى سورة البقرة فى آيتين، وفى آل عمران مرّة، وفى المائدة فى أربعة مواضع، وفى سورة التوبة، وبين تعبير «بنى إسرائيل» الذى جاء ٤١ مرة فى مواضع مختلفة.

هنا لا بد أن يخطر فى البال، أنّ القرآن الكريم لم يستخدم مصطلح «بنى إسرائيل» فى مخاطبة اليهود المعاصرين للنبىّ «ص»، بما يعنى أن هناك فارقًا بين التسميتين أو المصطلحين.. والآية الكريمة فى سورة الإسراء وغيرها تكشف أن هناك شخصًا اسمه إسرائيل، وهو بإجماع المفسرين القدماء سيدنا يعقوب عليه السلام. وأبناء يعقوب اثنا عشر منهم يوسف عليه السلام، وبالتالى يمكن القول إن القصة القرآنية حول العلو والإفساد تخص سلالة عرقية محددة، سلالة يعقوب، لذا جاء الوصف القرآنى صريحًا «بنى إسرائيل».

قد يكون اللقاء والدكتور جمال حمدان حتميًا عبر دراساته عن اليهود، إذ لم يكن الاستدلال اللفظى من القرآن الكريم كافيًا، حيث أثبت فى كتابه: «اليهود أنثروبولوجيا» أن «الإجماع بين الأنثروبولوجيين كامل على أن يهود عصر التوراة فى فلسطين هم مجموعة سامية من سلالة البحر المتوسط، بصفاتها التى نعرف ونرى اليوم؛ من سمرة فى الشعر، وتوسط فى القامة، وطول إلى توسط فى الرأس».

ودون الخوض فى إحصاءات تفصيلية فقد خلص حمدان إلى القول: «من هذا المسح السريع نصل إذن إلى أن اليهود يقعون من حيث شكل الرأس فى مجموعتين: عراض رءوس، وطوال رءوس.. تزيد مجموعة عراض الرءوس على ٨٠ إلى ٩٠٪ على الأقل من كل يهود العالم، والأقلية الضئيلة الباقية هى طوال الرءوس، حيث إن يهود عصر التوراة كانوا ككل الساميين طوال الرءوس بإجماع الأنثروبولوجيين «فإذا ما وجدنا رءوسًا غير ذلك بين يهود اليوم؛ فليس ثمة إلا تفسير واحد ووحيد لا سبيل إلى الشك فيه، وهو اختلاط الدم (اليهودى) بعناصر غريبة»، وبالتالى هم ليسوا من سلالة بنى إسرائيل الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم.

لقد انتهى معظم الدارسين لتاريخ وأنثروبولوجيا الجماعات اليهودية إلى ما ذهب إليه حمدان من بينهم جميس فتون وبنيامين فريدمان والعالم البريطانى اليهودى آرثر كيستلر الذى جزم بأن «الدليل التاريخى.. يوضح أن غالبية اليهود الشرقيين- ومن ثم يهود العالم- هم من أصل خزرى تركى، لا من أصل سامىّ... وأن الدليل القائم على علم الأجناس يتفق مع التاريخ فى دحض الاعتقاد.. بوجود جنس يهودى انحدر من قبيلة الأسفار الأولى»، ويهود الخزر يمثلون وحدهم نسبة ٩٢٪ من يهود العصر الحالى، والنسبة المتبقية، وهى ٨٪ يتقاسمها مع الإسرائيليين اليهود من الأجناس الأخرى؛ كاليهود العرب، والأمازيغ، والفلاشا، والتامل، واليهود الصينيين.

فإذا كان المسمى القرآنى بطبيعته الدقيقة يحكى عن سلالة عرقية محددة وعلماء، الأنثروبولوجى دحضوا الاعتقاد بأن هذا العرق متجسد فى يهود اليوم، فكيف يكون الاحتلال اليهودى هو الإفساد الثانى لبنى إسرائيل وفق التفسير المعاصر، والمفسدون فى أرض فلسطين ليسوا من بنى إسرائيل؟

وعلى الرغم مما قرره المفسرون القدماء بمن فيهم القرطبى وابن كثير بوقوع الإفسادين والعقابين معًا فى أزمنة ما قبل الإسلام من تاريخ بنى إسرائيل، مع اختلافهم حول مرتى الإفساد، وتحديد القوم المعنيين بـ أولى البأس الشديد، الذين سلطوا عليهم فى المرتين، حيث رجحوا أن العباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول فى الأرض هم جالوت وجنوده، أما المقصود بالعباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الثانى فى الأرض، فيرى جمهور المفسرين أنهم البابليون بقيادة بختنصر. وهناك رأى آخر بأنهم الرومان بقيادة تيطس.مع أن النظم القرآنى يأبى أن يكون القوم المسلطون عليهم فى المرة الثانية غير المسلطين عليهم فى الأولى.

بيد أن حرب فلسطين التى انتهت بهزيمة الجيوش العربية وإعلان دولة إسرائيل حملت المفسرين المعاصرين إلى القول بأن الآيات الكريمة نبوءة قرآنية حتمية بتدمير المسلمين لـ«دولة اليهود»؛ حيث ذهب أكثرهم إلى أن الإفساد الأول مضى، وأن الإفساد الثانى هو الذى نعيشه الآن مع الاحتلال الصهيونى، وأن المسلمين هم الذين سيسودون وجوه اليهود، وسيدخلون المسجد الأقصى كما دخلوه أول مرة، وسيتبرون ما علا اليهود تتبيرًا.

واستندوا فى ذلك إلى دلالات ضعيفة، أولاها الأسلوب الذى قص به القرآن الإفسادين يدل على الاستقبال، بما يعنى أن الإفسادين لم يقعا بعد، مع تجاهل حقيقة أنهما فى المستقبل بالنسبة لمن أنزل عليهم الكتاب وهم بنو إسرائيل، وأن المراد بالكتاب فى قوله تعالى «{وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ} التوراة وليس القرآن الكريم»، فضلًا عن أن كلمة وعد إذا جاء وعد الآخرة «فإذا جاء وعد» لا تأتى لشىء يسبق الكلام بل لشىء يأتى من بعد. مع أن «إذا» الموجودة أولًا هى ظرف لما يُستقبل من الزمان، أى بعد أن جاء هذا الكلام.

أما الدليل الثانى بكلمة «عبادًا» وإضافتها إلى الله بلام الاختصاص: «لنا»، فتوحى بأن هؤلاء الذين يزيلون إفساد اليهود مؤمنون، وأن بختنصر كان فارسيًا مجوسيًا فهو سند ضعيف، لأن الله قال فى محكم تنزيله فى سورة الفرقان {أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ} بما يؤكد أن وصف العبودية مضافًا إلى ذات الله لا يقتصر على العباد المؤمنين، بل سائر خلقه بغض النظر عن عقيدتهم.

فى حين ذهب التأويل الثالث إلى أن الإفساد الأول حدث من اليهود فى ظل الإسلام، حيث نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن المسلمين دخلوا المسجد الأقصى أول مرة فى عهد عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- وأن ما نعيشه اليوم هو الإفساد الثانى مع بشارة سماوية بنصر موعود. مع أن المسجد الأقصى أيام عمر بن الخطاب لم يكن فى نطاق بنى إسرائيل فكيف يكون دخوله عقابًا لهم، وإشارة انتصار عليهم؟

إذن نحن أمام تفسير ثورى للقرآن ودعاة مؤدلجين قاموا بتوجيه الآيات نحو قصد يتناغم مع أهدافهم. إذ طالما استلهمت جماعات الإسلام السياسى باختلاف مذاهبها بما فيها الإخوان وإيران وحزب الله وجودها من فكرة المقاومة وحساسية القدس.. شعارات المقاومة والوعد المزعوم كانت قبلة الحياة التى منحتهم شرعية الاستمرار وساعدتهم فى استقطاب الأتباع ممن يتوهمون بأنهم هم أبناء الصحوة الإسلامية التى ستنطلق من بينهم كتائب جند الله وستحرر الأقصى.

وشعار «على القدس رايحين شهداء بالملايين» من قبل الإخوان وما يوازيه من هتافات إيرانية مشابهة على غرار «طريق القدس يمر عبر كربلاء» وغيرها، ليس سوى نوع من المتاجرة بالقضية لصالح أيديولوجيتهم، سواء بهدف اختراق التجمعات الشعبية أوجمع الأموال والتبرعات، باسم فلسطين ومن ثم استخدامها لصالح مخططات السياسية. لقد حاول الإخوان أسلمة معركة التحرر الوطنى فى فلسطين التى وصفها حسن البنا بفلسطين المجاهدة، وفق رؤية عنصرية أحادية، حاول بها إخراج المسيحيين من معادلة التحرر الوطنى فى فلسطين، وكذلك بعض المجموعات اليهودية الفلسطينية التى رفضت الصهيونية، مثل جماعة «ناطورى كارتا» «حراس المدينة»، التى أيدت النضال العربى.

فى حين يظل الوعد الإلهى بالنصر بمثابة ستار عبثى يتوارون خلفه لتبرير إخفاقهم على مدار كل تلك العقود فى الانتصار للقضية. فزمن الملحمة الكبرى لم يأت بعد، وبالتالى أية محاولة لدحر الاحتلال المرتبط بأشراط الساعة الكبرى هى مغالبة للقدر.. لذلك لم أندهش كثيرًا حينما وجدتهم يتحفظون فى الكلام عن إسرائيل عقب اعتلائهم للسلطة فى بعض الدول العربية، إذ لم تصدر كلمة إساءة واحدة تجاه إسرائيل، لا على المستوى الشعبى ولا السياسى.

بنهاية المطاف وجدت نفسى بصدد الحقيقة الساطعة، ومفادها بأننى أمام حلقة أخرى من التوظيف السياسى للنصوص المقدسة، الملحمة الكبرى ونهاية العالم بنزول المسيح حاضرة فى الديانات الثلاث، لكن كل منا ينتظر مسيحه الخاص وفقًا لعقيدته. فضلًا عن أن المهدى المنتظر أو المخلص هو بذاته مختلف عليه بين المذاهب الإسلامية.. فلدى الشيعة الجعفرية هو الإمام الغائب وهى فكرة مؤدلجة بحتة، أدخلها العباسيون لإخماد ثورات الشيعة، وعند الزيدية قبل أن تتماهى على فضاء الإثنى عشرية، ليس هناك مهدى، بل الله يبعث على رأس الأمة كل ١٠٠ عام من يجدد دينها. أما عندنا نحن السنة هو من نسل النبى محمد صلى الله عليه وسلم ويحمل نفس اسمه.

لا أدرى لمَ لم أركن إلى كل تلك التأويلات بالرغم من أنها متفق عليها على اختلاف صورها من دين لآخر؟.. أفتانى قلبى وطاوعنى عقلى بأنها ربما مجرد تهويمات لبنى آدم، وما من دليل دامغ على صحتها، فالجميع يرسم سيناريو الخلاص على طريقته وعلى نحو يحمل قدرًا كبيرًا من الانهزامية والاتكالية، والأمر يتطلَّب من وجهة نظرى معالجات واقعيّة عمليّة، وليست معالجات غيبية.. فما يعنينى أننى أعيش اليوم وليس كيف ستكون نهاية العالم.

> القرآن الكريم لم يستخدم مصطلح «بنى إسرائيل» فى مخاطبة اليهود المعاصرين للنبىّ «ص»

4 التثليث المسيحى فى روح القرآن

يقولون إن «القرآن حمال أوجه» ويذهب المتصوفة إلى أن هناك أربعة مستويات لفهم القرآن الكريم، يتمثل المستوى الأول فى المعنى الظاهرى وهو المعنى الذى يقتنع به معظم الناس، ثم يأتى المستوى الباطنى. وفى المستوى الثالث يأتى باطن الباطن، أما المستوى الرابع فهو العمق. وأن القراءة بآياته دون تدبر ربما تتسب فى البعد عن الغاية الحقيقية منها، والتى هى روح القرآن.

يقول الله فى سورة آل عمران « هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ»، أما المحكم فهو قطعى الدلالة على غرار آيات الأحكام والعبادات والتشريع البعث والجزاء، فى حين تتعلق المتشابهات بالآيات التى تتطلب قدرًا من التدبر لإزالة التناقض أو ربما القصور فى فهم المعنى الظاهر.

درجات الفهم القرآنى كانت الإشكالية الكبرى لدى فيما يخص ذكر الله حول المسيحيين، فقد اصطدمت أمواج عقلى الثائر بالتساؤلات مع نصوص الآيات الحكيمة. فكما جاء فى سورة المائدة ٧٣: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». وفى موضع آخر «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». وفى المائدة ٧٢: «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ».

إذن وفق تأويل المفسرين فى الثقافة الإسلامية لمسألة الألوهية والمعنى الظاهر بالآيات سنجد أنفسنا بصدد مسلمات لا ينبغى أن يطرقها التشغيب، أبسطها أن التثليث شرك، وأن المسيحيين كفار بالنص القرآنى، لكن كيف يكون التثليث شرك والله تعالى يقول فى سورة البقرة « وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ»، وقد تزوج سيدنا محمد بماريا القبطية وتزوج سيدنا عثمان بن عفان بيهودية؟ ولو كان المسيحيون كفرة فكيف أحلَّ القرآن طعامهم والزواج منهم بينما حرَّم ذلك بالنسبة للكفرة والمشركين.

يحتج الفقهاء على ذلك بأن الآية الخاصة بالتحريم فى سورة البقرة وهى «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ» منسوخة بالآية رقم ٥ بسورة المائدة «اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان»، وذلك على أساس أن «المائدة» نزلت بعد «البقرة»، وأن الله قد استثنى أهل الكتاب من الكفار والمشركين.

ثمة ضرورة هنا للتدبر قليلًا، فإذا كان الله قد استثناهم ونزع عنهم هنا صفة الكفر أو الشرك وأحل طعامهم وأباح نكاح المحصنات منهم فماذا عن قولهم إن «الله ثالث ثلاثة»، والأمر شبه محسوم، لا سيما وأن الآية الكريمة بدأت بـ لقد»، وهى فى اللغة حرف يفيد التوكيد والتشديد والثبوت.

إن أصح الطرق للتفسير- كما يقولون- أن يفسر القرآن بالقرآن، وتفسير التثليث باعتباره شركًا قد لا يقبل الجدل أو التأويل أو أى تفسير آخر عند استقطاع أو تجاهل السياق القرآنى وربط حدى الآيات.. تمامًا كما يستند البعض إلى قوله تعالى فى سورة الكهف «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا «١٠٣» الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» للتدليل على فساد العمل، ويتجاهل ارتباط الآية بما جاء بعدها والذى يكشف سبب ذلك وهو «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا».

قدماء المفسرين وفى مقدمتهم ابن تيمية يؤكدون أن آيات «إن الله ثالث ثلاثة» نزلت فيمن يعتبرون المسيح ابن مريم وأمه إلهين من دون الله، حيث يقول ابن تيمية فى معرض كلامه عن الآيات: «فقوله تعالى: ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة [المائدة: ٧٥] عقب قوله: لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة [المائدة: ٧٣]: يدل على أن التثليث الذى ذكره الله عنهم: اتخاذ المسيح والسيدة العذراء إلهين».

ويتفق الفخر الرازى فيما ملخصه: «أنهم أرادوا بذلك أن الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة. والذى يؤكد ذلك قوله- تعالى- للمسيح: أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ فقوله: ثالِثُ ثَلاثَةٍ أى: أحد ثلاثة آلهة، أو واحد من ثلاثة آلهة».

الرأى الثالث للسدى حيث يقول: «نزلت فى جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار»، قال السدى: «وهى كقوله تعالى: فى آخر السورة: «وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك» [المائدة: ١١٦]».

التساؤل البديهى: هل يؤمن المسيحيون بأن عيسى ابن مريم وأمه إلهين، أم أن الآيات نزلت فى طائفة بعينها منهم؟

لو حاولنا البحث والتقصى حول سبب نزول تلك الآيات سنكتشف أنها نزلت بإيجاز شديد فى الطائفة المريمية، وهى حركة هرقطة نشأت فى القرون الأولى للمسيحية، آمن بها مجموعة من المصريين يؤمنون بعقيدة التثليث فى إطار ثلاثة آلهة، ونادوا بأن مريم هى إلهة عوضًا عن كوكب الزهرة التى هى ملكة السماء، فكانوا يعبدونها، ولهذا أطلقوا على أنفسهم الـ«مريميين» أو «الكوليريديانيين» نسبة إلى الفطير الذى كانوا يقدمونه إلى العذراء. وقد لجأوا إلى الجزيرة العربية عقب طردهم من الكنيسة المصرية. وعاشوا بها على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومن ثم نزلت بهم الآيات.

وفقًا لكل ما سبق وعند ربط الآيات يتضح أن القرآن الكريم لا يهاجم التثليث بالمعنى المتعارف عليه فى المسيحية، وهو ما سأعرضه لاحقًا، لكنه يكفر الطائفة المريمية وهرطقات دخيلة على المسيحية الحقيقية، يرفضها المسيحيون أنفسهم. إذ لا يوجد مسيحى واحد على اختلاف طوائفهم يؤمن بتلك الفكرة، بل يكفرون من يعتقد فيها، ويعدونها إهانة فى حق الله والعذراء مريم.

ومع ذلك تظل مصطلحات التثليث بالفكر المسيحى غامضة، وتبقى مفرداته التى هى الأب والابن وروح القدس تقتضى استيعاب المجاز اللغوى وليس الحرفى، والغوص أعمق من سطح الأدبيّات التى نألفها.. فالذكر العزيز يقول «وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا»، وكذلك «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ» «وَيَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ»، وغير ذلك من الصفات الواردة فى النصوص.. فهل فى ذلك تشبيه للخالق جلا وعلا بالخلق، أم أنه من الرمزية وسعة اللغة وطرق مخاطبتها لتقريب الصورة الذهنية بالخطاب القرآنى؟

الأمر ذاته ينطبق على النظرة المسيحية التى تشرح الثالوث على أنه واحد بثلاثة أقانيم، أى ثلاث صفات ذاتية غير منفصلة إحداها عن الأخرى، كما أن للإنسان الحى كيانًا «ذات»، وعقلًا و«نفس»، و«روحًا» لا تنفصل أثناء الحياة.. وكالشمس التى تعطى الضوء والحرارة والطاقة، وهى لا تتجزأ إلى ثلاث حين قيامها بهذا العطاء.

وكما نؤمن بأن لله تسعة وتسعين اسمًا مشتملة على صفات له سبحانه تليق به وتناسب كماله، ولا يشبهه فيها شىء، مثل: الحكيم والعليم والسميع، كذلك المسيحية تصف الله بثلاث صفات لكيان واحد، لأن الله وكلمته وروحه ليس ثلاثة آلهة منفصلة من دون الله، إنما هى صفات ذاتية لله الواحد نفسه، كالوجود والحياة والعلم، وسموها الأب والابن والروح القدس.

القاضى أبوبكر الباقلانى الملقب بشيخ السنة، وأحد كبار علماء عصره، حيث انتهت إليه رئاسة المذهب الأشعرى، يقول بالصفحة ١٦٨ من كتابه «الطمس فى القواعد الخمس»: «إذا أمعنا النظر فى قول النصارى، أن الله جوهر واحد وثلاثة أقانيم، لا نجد بيننا وبينهم اختلافًا إلاّ فى اللفظ فقط، فهم «المسيحيون» يقولون إنه جوهر واحد، ولكن ليس كالجواهر المخلوقة، ويرون بذلك أنه قائم بذاته والمعنى صحيح، ولكن العبارة فاسدة.

أما الشهرستانى فيرى فى موسوعته الملل والنحل أن الله فى المسيحية هو واحد بالجوهرية، والأقانيم مثل الصفات الإلهية، وإذا كانت الأقانيم ثلاثة فإن الصفات الإلهية أكثر، بل ويذهب إلى أن وصفهم المسيح بأنه ابن الله من مجاز اللغة، كما يقال لطلاب الدنيا أبناء الدنيا، ولطلاب الآخرة أبناء الآخرة.

التوحيد المسيحى فى جوهره هو التوحيد القرآنى، والإسلام والمسيحية تعترفان بأن المسيح هو كلمة الله، وكما جاء بسورة العنكبوت -٤٦ «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا، آمنّا بالذى أنزل إلينا، وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون».. إلهنا وإلهكم واحد. وليس ثلاثة.

إن العلاقة التى طبعت الإسلام والمسيحية منذ فجر التاريخ، هى التقارب، ليس على صعيد العقيدة فحسب، بل على مستويات من تلامس المشاعر والمودة، وقد تجلى ذلك فى سورة المائدة، وهى ذاتها التى ورد بها إنكار التثليث فى الخطاب الإلهى لرسولنا الكريم {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}.

بنهاية المطاف لو كان القرآن كله قطعى الدلالة لما كانت هناك حاجة للتفكر والتدبر بغية إزالة أى شبه للتناقض أو الانفصال.. فالمعضلة الحقيقية فى قصور الفهم البشرى الذى طالما استعذت الله منه كلما قرأت آيات التثليث.. كان يقينى بأن روح القرآن أعمق من كل التفاسير هو ما اعتصمت به بمواجهة تعرجات النهر الهدامة التى من دونها كنت سأسقط فى فخ الشبهات.

> القرآن الكريم لا يهاجم التثليث بالمعنى المتعارف عليه فى المسيحية

مراكش أرض الله

5 أيام فى مدينة التاريخ والمبانى الحمراء و«الرجال السبعة»

مراكش كلمة اختلف صداها على أُذنىَّ، منذ خطت قدماى خطواتها الأولى بمطار «الملك محمد الخامس» فى كازابلانكا «الدار البيضاء». كنتُ أتوق إلى رؤيتها من فرط محبة الناس لها وحكاياتهم التى دومًا تتردد حولى.

قبل أن أسافر إلى مراكش، كنت أعرف أننى ذاهبة إلى مدينة عاش فيها عددٌ من كبار الشُّعراء والكُتَّاب من العالم وسينمائييه، حيث اختاروا مدينةً كانت مركز اهتمام أفلامٍ سينمائيةٍ عالمية، وكتب عنها من قبل إلياس كانيتى، الحائز على جائزة «نوبل» فى الآداب عام ١٩٨١، كتاب عنوانه «أصوات مراكش».

وقد عرفت مراكش بأنها مكان التقاء الفنانين والشعراء والمثقفين من جميع أنحاء العالم، وفيها يُعقد واحد من أكبر المهرجانات السينمائية العالمية، كما صور فيها الكثير من الأفلام الأجنبية الشهيرة، بداية من فيلم «Le Chevrier Marocain» عام 1897.

د. سارة حامد حواس
مدرس الأدب الإنجليزى بكلية الآداب
جامعة المنصورة

الكاتبة فى مراكش

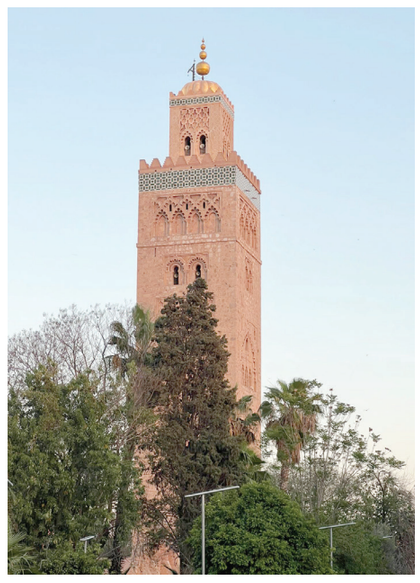

1 مدينة المشاهير

من الأسماء الشهيرة التى عاشت فترات من حياتها فى مراكش: خوان جويتسللو، وهو كاتب وشاعر إسبانى عاش ودُفن فى المدينة المغربية وزار القاهرة كثيرًا، والشاعر جاك كيروك، والروائى الأمريكى ويليام بورز، صاحب «المأدبة العارية»، والروائى الفرنسى الشهير چان چينيه.

هناك أيضًا شارلى شابلن، والممثلة ريتا هيوارث، بطلة فيلم «كازابلانكا» الشهير، وغاندى ويستون، فنان الجاز الأمريكى، ومارلين مونرو، وليوناردو دى كابريو، بطل فيلم «تيتانك» الشهير، وونستون تشرشل، رئيس الوزراء البريطانى، وشارل آزنافور، المغنى الفرنسى الشهير، وبيل كلينتون، رئيس الولايات المتحدة الأسبق، والمذيعة الأمريكية أوبرا وينفرى، والممثل روبرت دونيرو، واللاعب كليان مبابى، وغيرهم الكثير.

ويوجد فى مراكش متحف «إيف سان لوران»، مصمم الأزياء الفرنسى الشهير، والذى يرى مراكش مسقط قلبه وبهجة روحه، وعاش فيها أكثر من أربعين عامًا، واختارها مرقدًا لجثمانه، بعد أن ابتاع بيتًا عام ١٩٦٦، ثم فيلا سماها «دار السعادة» فى حى جليز عام ١٩٧٢.

كما أن مراكش مدينة يعرفها المصريون، فقد كانت مكانًا للقاء رشدى أباظة بسعاد حسنى فى فيلم «الحب الضائع» عام ١٩٧٠، تحديدًا فى ساحة «الفنا»، وهو الفيلم الذى أخرجه هنرى بركات، ومأخوذ عن رواية طه حسين التى تحمل الاسم نفسه.

ويرجع اسم «مراكش» إلى الكلمة الأمازيغية «أمور- واكوش» أى «بلاد الله» أو «أرض الله». كما أنها تُلقب أيضا بـ«أرض النخيل»، لاحتوائها على عدد كبير من أشجار النخيل.

2 اليوم الأول

منذ أن خرجت من منزلى، فى الثانية والنصف بعد منتصف الليل، لأتجه إلى مطار القاهرة الدولى، وقلبى ملىء بمشاعر مختلطة، فرح وسعادة ورهبة من مخالطة أناس من ثقافة وعادات وتقاليد مختلفة، حتى إن لهجتهم تختلف تمامًا عن أى لهجة عربية أخرى.

شاركنى فى رحلتى الشاعر والكاتب الكبير أحمد الشهاوى، وهذا من حُسن حظى، فأنا أعتبره مدرسة مستقلة بذاتها، نتعلم فيها كبارًا وصغارًا، لنتبادل الكثير من الأحاديث حول المغرب والعمل والحياة، وتبدأ رحلة ثرية بالأفكار والمشاهد الطبيعية الخلابة التى استمتعت بها طوال تحليقى فى السماوات.

بعد أن وصلنا إلى المطار التقينا بـ«أمنية» و«حمزة»، واللذين لم يفارقانا لحظة واحدة منذ وصولنا إلى مراكش وحتى غادرناها. «أمنية» تلك الفتاة الجميلة الخلوق التى كانت تهتم بى، وتبحث عنى إذا تأخرت عن موعدى، وعندما كانت تشاهدنى ألتقط لنفسى بعض الصور «السيلفى»، كانت تأتى إلىَّ وتلتقط لى أروع الصور، فهى مصورة محترفة تهوى التصوير. أحببت كثيرًا هذه الروح البريئة، وأهديتها كتابى: «ثقب المفتاح لا يرى: عشرون شاعرة أمريكية حائزات على جائزتى نوبل وبوليتزر» الصادر عن «بيت الحكمة للثقافة»، ففرِحَتْ كثيرًا وقالت لى إنها ستقرؤه أثناء إجازتها فى باريس.

استغرقت الرحلة من كازابلانكا إلى مراكش حوالى ساعتين ونصف الساعة، كنت منهكة، فشاهدت نصف الطريق، واستغرقت فى نومى النصف الآخر منه، حتى وصلنا إلى الفندق الذى يقع فى مدخل مدينة مراكش تقريبًا، وهو فندق رائع فى بساطته، وكانت الطواويس تسير بجانبنا ونحن فى الفطور، ولم تخف من البشر كأنها اعتادتهم وألفتهم وصارت منهم، حتى كنت أراها «تتدلع» و«تتغندر» كأنها إناث فى أوجها، استمتعت بألوانها الرائعة، وشاهدت عظمة الخالق فى مزج اللونين الأخضر والأزرق معًا، كما كانت المساحات الخضراء الواسعة حولى فى كل مكان.

فى اليوم الأول، استضافنى أنا والشاعر الكبير أحمد الشهاوى، الشاعر المغربى الكبير ياسين عدنان وزوجته، فى منزلهما الجميل القريب من الفندق المُحاط بحديقة جميلة كقلبيهما، كانت زيارة ثرية تبادلنا فيها الأفكار والآراء وبعض الكتب، فقد أهدانى كتابًا شعريًا له، وأهديته كتابى.

كما استضافنا لرؤية مكتبتة الخاصة المليئة بالكتب المهمة فى المجالات كافة، وقدم لنا أنواعًا كثيرة من الحلوى المغربية، التى كنت أتذوقها للمرة الأولى فى حياتى، خاصة «المحنّشة» اللذيذة، وحينما سألته عن معنى اسمها قال لى إن الاسم يرجع إلى «الحنش» أو الثعبان، لأن هذه الحلوى تشبه شكل «الحنش» فى لفّته وليونته.. التقطنا العديد من الصور الرائعة، وكانت زيارة طيبة استمتعت بكل لحظة فيها، وعرفت منها أن أهل المغرب حقًا هم أهل الكرم والجود، فى ظل ما لاقيته من حسن استقبال وضيافة.

وفى المساء التقينا بالشاعر الدكتور مراد القادرى، رئيس «بيت الشعر»، الذى تشرفتُ بدعوته لى لحضور مهرجان مراكش العالمى للشِّعْر، واستقبلنا بحفاوةٍ بالغة. والتقينا أيضا بابنه «أحمد»، والشاعرة الآذرية نيچار حسن زاده، حيث تناولنا العشاء معًا، وتحدثنا عن أشياء كثيرة، كان من بينها: ماذا سنذهب غدًا؟ خاصة أننا وصلنا إلى مراكش قبل موعد بدء المهرجان بيوم، وكانت هذه فرصة عظيمة لى للتعرف على المدينة والتجول فيها.

وقد لفت انتباهى وأنا أتجول فى شوارع المدينة أن اللافتات مكتوبةً بالعربية والأمازيغية والفرنسية، بعد أن أقر الدستور المغربى الأمازيغية كلغة وطنية رسمية، إلى جانب العربية.

3 اليوم الثانى

فى اليوم الثانى، تناولنا الفطور وذهبنا إلى ساحة جامع «الفنا» بصحبة الناقد والفيلسوف المغربى الكبير عبدالعزيز بومسهولى، وهى ساحة كبيرة للترفيه والشراء، مليئة بالسكان المحليين والسياح من شتّى بقاع الأرض، وتعتبر من أشهر الأماكن فى مراكش، ونقطة التقاء بين شعب المغرب والشعوب الأخرى من مختلف أنحاء العالم.

استمتعنا بمشاهدة بعض العروض من بعد، فهذه المنطقة تشتهر بعروض الأفاعى والقرود، إلى جانب الحكائين ورُواة القصص، إلى جانب عروض لفرقة غنائية شهيرة فى المغرب تسمى بـ «الجناوة»، وهى فى الأساس موسيقى صوفية تمتزج بكلمات ذات محتوى دينى، مارستها فى البداية مجموعات وأفراد ينحدرون من العبودية وتجارة الرقيق، التى يعود تاريخها إلى القرن السادس عشر الميلادى، ويعتبرون منذ فترة جزءًا من تكوين ثقافة المغرب، وتتم استضافتهم فى العديد من مناسباتهم الرسمية وغير الرسمية، كما أن ملابسهم تمتاز بالألوان المتعددة المبهجة كالبرتقالى والأصفر والأبيض والأحمر.

بعد أن تجولنا فى أسواق ساحة «الفنا»، وشاهدنا محال المصنوعات الجلدية والحقائب المصنوعة من الصدف، والعطّارين، والعديد من المحال التى تعرض القفاطين المغربية المعروفة بتطريزاتها المتميزة وألوانها المبهجة، اصطحبنا عبدالعزيز بومسهولى إلى منزله، حيث استقبلتنا زوجته الرائعة «فوزية» بترحاب كبير وحفاوة بالغة، قبل أن نتناول الغداء، والذى كان عبارة عن طبق «كسكسى» كبير ملىء باللحم والخضروات، واستمتعنا بهذه الأكلة الطيبة.

وفى المساء ذهبنا إلى ساحة جامع «الفنا» للمرة الثانية، وتجولنا فى جنباتها وشوارعها، وذهبنا إلى أشهر عطّار فى مراكش، فى منطقة «المَلّاح»، حيث اشتريت زيت «الأرجان»، وطلبت أن يُعصر أمامى، ويتحول من حبوب إلى زيت. ورغم بساطة المشهد، استمتعت بمرحلة التحول هذه، وقضينا ساعات عند هذا العطار، واشترينا العديد من البهارات المختلفة.

4 اليوم الثالث

فى اليوم الثالث، كانت بداية فعاليات مهرجان مراكش العالمى للشعر، والذى ضم العديد من الشعراء والشاعرات من مختلف أنحاء العالم، مثل مصر والمغرب ومالى وتركيا وأذربيجان وجيبوتى والسنغال وبنجلاديش واليمن والبحرين وفلسطين والعراق والسعودية.

وأُقيمت ضمن فعاليات اليوم الأول من المهرجان ندوة عن «الشعر والتصوف»، وكان مشاركًا فيها الشاعر والكاتب الكبير أحمد الشهاوى، الذى أمتعنا بحديثه عن الشعر والتصوف، من خلال ورقة بحثية بعنوان «تحت سقيفةٍ من الرموز والإشارات يعيشُ الشَّاعر الصوفى».

وضرب «الشهاوى» مثالًا على تأثر الغرب بالتصوف بالشاعرة الأمريكية مارى أوليفر، التى ترجمتُ لها وكتبتُ عنها فى كتابى «ثُقب المِفتاح لا يرى»، وقرأ ترجمتى لقصيدتها «جلال الدين الرومى»، وفرحت كثيرًا بإلقائه لترجمتى، وفرحت أكثر عندما سمعت الجمهور يقول «الله»، بعد انتهائه من قراءة ترجمتى، وشعرتُ بأننى أمشى فى الطريق الصحيح، وأن ترجماتى ذات أثر على مسامع الجمهور.

وكان مشاركًا فى الندوة أيضًا، التى أقيمت فى كلية اللغة العربية بجامعة القاضى عيّاض، العديد من الأكاديميين، بينهم الدكتور عبدالإله بنعرفة، والدكتورة ثريا إقبال، والدكتورة لطيفة المسكينى، والدكتور خالد بلقاسم، والدكتور منصف عبدالحق، من تقديم الدكتور أحمد قادم، عميد الكلية.

وفى مساء اليوم الأول للمهرجان ذهبنا إلى قصر «الباهية» فى مراكش، حيث حضرنا أمسية شعرية بهية، ألقى فيها الشاعر الكبير أحمد الشهاوى ٣ قصائد هى: «هكذا قبرى» و«ماذا لو متُّ وحيدًا فى الليل» و«كأنكِ شامةٌ بين الناس»، وذلك إلى جانب العديد من الشعراء الكبار، مثل غسان زقطان من فلسطين، وفاتيماتا من مالى، وغيرهما الكثير.

ذهبنا بعدها إلى مطعم «كل شىء زين»، فى إحدى مناطق مراكش، واستمتعنا بأكل لحم الضأن اللذيذ، وشربت حساء «الحريرة» اللذيذ، الذى يمتاز به المغرب، وضحكنا وتحدثنا كثيرًا فى أمور شتّى.

المبانى الحمراء فى كل مكان والطواويس تحاوط زوار الفنادق

الكاتبة والشاعر أحمد الشهاوى

اللافتات فى الشوارع مكتوبةً بـ«العربية» و«الأمازيغية» و«الفرنسية»

5 اليوم الرابع

فى اليوم الرابع للزيارة، وهو اليوم الثانى للمهرجان، ذهبنا إلى كلية اللغة العربية بجامعة القاضى عياض، لحضور ندوة عن «المعتمِد بن عبّاد»، والتى كانت ندوة ثرية تعرفنا من خلالها على هذه الشخصية المؤثرة التى انتهت حياتها نهاية مأساوية.

فى اليوم ذاته التقينا الشاعر المغربى الكبير الدكتور حسن نجمى، وأهديته كتابى وفرحتُ كثيرا بلقائه، فكنت طوال الوقت أسمع عن ثقافته وتواضعه وموهبته الشعرية.

فى المساء ذهبنا لحضور أمسية شعرية فى قصر «الباهية»، وألقى العديد من شعراء العالم قصائدهم، ومنهم الشاعر البنغالى الشهير أمينور رحمن، والذى كنت قد ترجمت له ١٠ قصائد، وقدمته فى معرض القاهرة الدولى للكتاب فى دورته الـ٥٥.

ألقى ٣ قصائد من ترجمتى، وكنت قد انتويت قراءتها بالعربية، لكنى تراجعت وطلبتُ من الشاعر أحمد الشهاوى أن يلقى ترجمتى بنفسه، لأنالَ شرف قراءته لترجمتى فى مكان عظيم مثل قصر «الباهية» فى المغرب، أمام العديد من كبار شعراء العالم.. شعرتُ بالفخر والفرح وأنا أشاهد أصداء ترجماتى على الجمهور، لحظة مهمة فى حياتى لن أنساها ما حييت.

بعد الأمسية الشعرية ذهبنا إلى مطعم شهير فى المغرب، وأكلنا «طنچية باللحم»، وشربت حساء «الحريرة» التى اعتدتها وأصبحت كأننى أشربها منذ المهد!

6 اليوم الخامس

فى اليوم الخامس والأخير للمهرجان ذهبنا إلى «طواف روحى» لـ٧ رجال من المتصوفة والفقهاء والقضاة، تقع أضرحتهم فى مدينة مراكش، وهم يوسف بن على الصنهاجى، والقاضى عياض، وأبو القاسم السهيلى، وأبوالعباس السبتى، ومحمد بن سليمان الجزولى، وسيدى عبدالعزيز التباع، وسيدى عبدالله الغزوانى، وهى الأضرحة التى جعلت مراكش تُسمى «مدينة الرجال السبعة»، إلى جانب «مراكش الحمراء»، لأن تربتها ومبانيها حمراء.

استمتعت كثيرًا بهذا «الطواف الروحى»، ومشاهدة الأضرحة المصممة على الطراز المغربى، والمليئة بالزخارف البيضاء والزرقاء والسماوية، وشاهدت المكان الذى دُفن فيه ابن رُشد. كما زُرنا بيت بديع كالجنة، هو بيت المستشرقة الفرنسية دونيز ماسون، التى اشتهرت بترجمة القرآن إلى اللغة الفرنسية، ويمتاز بيتها بالبساطة والجمال والمساحات الخضراء الواسعة، وشاهدت دراجتها ومكتبتها الخاصة ومكتبها وحذاءها وصورتها.

وفى عصر اليوم ذهبنا إلى قبر «المعتمد بن عباد» فى أغمات، والذى يبعد حوالى ساعة عن مراكش، حيث أُقيمت فيه أمسية شعرية، ثم ذهبنا إلى قصر «البديع»، وهو قصر بُنى فى نهاية القرن السادس عشر الميلادى، وأيضًا أقيمت فيه أمسية شعرية، إلى جانب حفل الختام، الذى احتوى على عروض موسيقية يشتهر بها أهل المغرب.

بعدها ذهبنا لتناول العشاء فى المطعم ذاته «كل شىء زين»، وأكلت أيضًا «طنچية دجاج» بعصير الليمون وزيت الزيتون، ولاحظت أن المغاربة لا يعرفون الأرز، وأن الخبز يتصدر المائدة فى الوجبات الثلاث، مع شهرة كبيرة لـ«الكسكسى».

7 وداعًا مراكش

لقد حان الآن موعد الرحيل من هذه المدينة الساحرة، والعودة إلى أرض الوطن مصر، وقبل أن نغادر فى السابعة مساءً، اصطحبنا فى صباح هذا اليوم الشاعر الكبير جمال أمّاش، أنا والشاعر الكبير أحمد الشهاوى، إلى أسواق ساحة «الفنا»، لشراء بعض الأغراض، ومن ضمنها «الأملو»، وهى أكلة مغربية شهيرة عبارة عن مزيج من زيت اللوز وزيت الزيتون والعسل.

وبعد الانتهاء من التسوق، ذهبنا إلى مقهى شهير فى الساحة يدعى «Cafe de France»، وهو مقهى يلتقى فيه كبار الأدباء والمثقفين من مختلف أنحاء العالم، وهناك شربنا القهوة اللذيذة، قبل أن نعود إلى الفندق، منتظرين الشاعر المغربى الدكتور مصطفى غلمان، لتسجيل حلقة مع الشاعر أحمد الشهاوى.

وفى المساء توجهنا إلى مطار الملك محمد الخامس فى كازبلانكا، حاملةً مع حقائبى حقيبة خاصة جدًا، مليئة بالذكريات الجميلة والمعارف الرائعة التى تشرفتُ بلقائها ومعرفتها، مع وعدٍ لهذه المدينة بأننى سأعود إليها فى القريب العاجل، لأننى ارتبطت بها ارتباطًا روحيًا غير عادى.

مراكش لا يُكتب عنها مقالٌ واحدٌ بل يُكْتب عنها كُتب، لكن لم يسعفنى الوقت لأكتبَ عنها أكثر من ذلك.

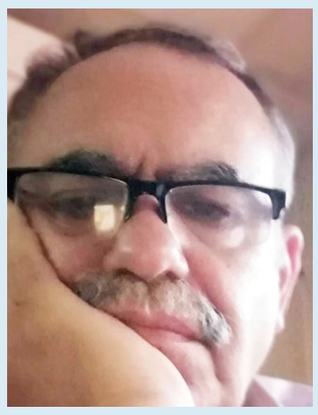

يرويها:
حسين دعسة
كاتب وناقد من الأردن

نص روائى
خاص لـ حرف

الحلم
جائحة الجدار

3_1

هَبَطَ سرُّ الشَّمس على هدوء. اليوم الثالث من أيام الحظْر. كنتُ مثل أىّ كائن أحمق، أقفُ فى غرفتى أنتظرُها. غاب ظهر النَّهار، يوم الإثنين ٢٣ مارس، قلبى يضجُّ، فقد حلَّت فى البيت أجواء مشحونة بالتشويش والتوقّع حول ويلات ما يحدث مع العزلة. تعرَّيتُ، جسمى يتشوَّق إلى حرارة اللّقاء، كأنه الشَّغف «....». تموء قطط ابنتى، تسرق لذة الوقت، تكشف عن مواء فى شاشات الأجهزة الزرقاء، التى تبث من حولى.

شبق حيوانى يحرِّضنى، أصابعنى غثيان، فقد شاهدتُ صورتى فى المرآة، خرائط وأثلام من لحم بشرى موزَّعة بين الصدر واليد اليمنى، وسحجات غائرة على قدمى اللتين تزدادان بشاعة.

غاب النَّهار. لم تأت.

خطواتى ماتت فى ظلِّ جسدٍ مشوَّه. عاريًا أقف وسط الغرفة، مجنون إلا ربع!

تتوارد الأخبار على شاشة التليفزيون، عن حظر التجوُّل المفروض فى كل أحياء المدينة. انتبهَتْ القطة الأم إلى جَرَس الإنذار، تلفَّتت، بدَتْ قلقة على مواليدها الجُدُد.

.. أتذكر ذلك وقد وصلتنى رسائل الأصدقاء من غزة، هناك من كتب لى:

– أنت بعدك عايش، الموت يتمدد، احذر

ضحكتُ، فقد نثرتُ بعض الأشياء.. وأوراقى، وحدى رأيتُ الهديّة المؤجَّلة.

لمْلَمَ صاحبُنا، بالمناسبة أنا أعرفه جيدًا، عشرات الهدايا، اختارَها، نظر إلى سقف غرفته، هناك مساحة بيضاء، «ماذا عن تلك العين التى ستُبهرها هديّة عيد الميلاد؟».

يراها تتراقص بين نحرها اللؤلؤىّ، ورجرجة يمام يستغيث.

قالت لى، ذات طيف، إنَّها تخاف التعرّى أمام الغيم، تضحك، تدلُّك جسدها بماء الورد، وأملاح الهملايا، وطين نقى من قاع النيل.

لامتنى على موعد غياب القمر، وراء الجدار، ذكَّرتنى، بأنها تختفى إذا أغضبتُها.

أصبحتُ أخاف الجدار، فأنا مَن رسم فى ظلِّه تلك الخطوط التى تتعريش عليها عارية، تنام على رطوبة حضنى.

وحده...

تذكّر، أنَّ العالم يقف جدارًا خبيثًا؛ خليطًا من كتل الأسمنت الصلدة والدموع، بريقًا يخطف الحلم، يمسّد عنق حرير الروح، يتناثر برقّة غرائبيّة، فالعيد مجرَّد لحظة، والبكاء ليل يطول ولا ينتهى.

يتوقَّف طيف العاشق على ساق الياسمين، يدنو من براعم تخجل من بياض القمر.

.. صعقت عندما ركبنا المراكب النيلية، نتجه إلى شاشة متحف دارنا، كانت غزة هناك، تترقب حكايتنا عن جديلة الشعر التى تتأرجح فى المزاد، دعمًا لطريق سريالية، يدعو لإيقاف الحرب.

قالت: – كل الحروب تقف، إلا حربنا «..» حرب الحرية.

مثل أى مرارة تحاصركَ، حصاركَ أنْ تمُرَّ من يومك وحظر صورتك.

ما يتشابه مع الحلم...

يمُرُّ إبهامى المشاغب على قلق وتأوُّهات تشهق من نظرتى. قلتُ فى سرّى: هذه علبة تزداد جمالًا، تخطُّ نبضها، تنفلت، تنتفض، على سطحها زخرف الغياب، وتلك المخطوطات عن مقامات الحائر الأبدى، فقد اعتزلت زمان طيفك الذى غسل روحى، جاوز قلقى إلى صحن السيرج الدافئ، كنّا؛ صدرى العارى، وصدرك الغنيّ، نشرح عن تلك الوصفة التى تريح عناقنا؛ فقد دلّكتنى، جادلت بشرتى بسيرج حرير الروح، من بردِ أصاب الحكاية.

رهيب جدل الباقى من شهوة أصابت ظهرها، كانت مدن الصفيح تخفى الألم.

...

وحدى.. أركب بساط السندباد، توقَّف الحلم فجأة.

رأيت فى الحلم السريالية، أنى التقط هوية أبى، التى ضاعت فى المنافى، بدت عبر الشاشة تحت ركان مخيم الشاطئ، كيف ذلك؟.

قالت، شقيقة الروح:

هنا سر الكبير.

عينى تترقَّب خروج الطيف المجهول من نقوش الجدار، يدنو من الهواء، يرتقى حُرًا، يمسك يدى، جسدى يشتهى سماع حكاية عن فيض حار، وحدث أن رافَقَتْ كركرة الأرجيلة، بانت إلى جوار تلك الشجرة التى تخفى أسرارًا.. يتعرَّق، يتعطر، يذكّرنى بالخطّة السريّة التى جعلت اليمام ينام.

يأخذنى نوم الأصدقاء إلى البيت القديم، نتبادل قبلات ساخنة على غير عادة، تتناثر دفاترى، تنحنى على وتر من ملاك، نتلاقى، تذوب عيون غاشية.

قالت، وقد تناثر الطيف بين الورق والصور: «نحتاج إلى بساط من عناق»، فنبش الورق المزنَّر بالبهجة يذبحُ ليلكَ اللّيل، يترك مواعيد السفر بين الصور، نرى صورنا الجائعة، بدأنا نتذكّر لحظة تمام تلك الإشارات والتنبيهات التى خطّ أثلامها الطفل الذى يغيب، يدخل الجدار بعد خروجك الأسطورى.

كانت أم الطفل، تخفى سرعة الرّحم، بعد أن فشلت فى دفن الموءودة.

مرة أخرى!

لأنَّنى أتذكَّر ولا أنسى.

جاءت الجائحة، كنتُ أدوِّن طريقة لفهم كل هذا الدّواء..

ضحك صديقى طبيب القلب، وضعنى على جهاز «الإيكو»، اضطرب ذاك الشريان العنيد. رنينُ الأصوات فى العيادة يُطلقُ صدى طيفكِ المدهش، عدَّة أصوات، بكاء، نحيب، تؤشّرين على فجوات فى «إيكو» القلب تتَّسع لنغيب داخلها، يهدهدنى الصديق بيد تحمل سمّاعة كلاسيكية، ويتضاحك قائلًا:

– أين قلبك؟

«فى السقف». نظرتُ، نظر رافعًا سمّاعته، الممرضة تهمس، تحاول إخفاء غنج سيئ، انتبه صديقى الطبيب، يتتبّع حركة بؤبؤ عينى، يصمت، يوجع الممرضة بضربة على مؤخرة تعجّ بطبقات من الملابس الخفيّة، تتضاحك بغنج سكير، تخرج من غرفة الفحص، كنتِ تتأهّلين لإنقاذى...

وحدى، تعرَّيتُ على عشب من خيال، يتَّسع سرير صديقى طبيب القلب، فجأة، بدت الهديّة تتراقص، وهجها يخفى تلك الحلمات، حاولتِ إخفاء اللون الوردى المثير، كنتِ مثل حرير الجنّة، يحرق ولا يحترق.

شىء ما يرتقى كاهلى، قد يكون أنتِ، وقد يبتعد، لكنَّه بساط الريح واقفٌ حدّ بساط تنير أطرافه شرانق الحرير، تغلّف سورة كل الناس، فقد كشفوا سرّ الهدية، شهوة مؤجَّلة تؤرِّخ للضّائع من الصور والدفاتر التى قلّبتها بغنج حرير الروح، ووجدت ما فيها من حكايات ورسوم وزخارف، أثارتها تلك المذكّرات التى تتبادل سرديّات كانت تردِّدها قبل الوطء.

اختلفنا على تلك الجسور التى تمتد بين اتفاق سرية، كنت فى عاقر، وركبت البغال مع بيادر الريح، غيبتها الطرق وصلنا مخاضة نهر الأردن، عادت شقيقتى إلى غزة تبحث عن أبى، الكبير الذى ترك عصاه تتدحرج بين الزيتون والبرتقال والدم.

على وتر العزلة، كُنّا نستمع إلى فوضى الأخبار... جائحة يا قلبى المتعب!

فى التقرير، تنمَّر طبيبى، رسَمَ علامات، كشَّر عن تجعيدات وثنيّة فى الجبين، كأنَّها لثغة فلتت من مخطوط يتبارز مع أحبار تخرُجُ راقصةً من جهاز رسم القلب.

قلتُ لصديقى الذى يستمع لى، يحاول فهم سلوتى، لوعتى، مراتب قلقى:

– ما زال قلبى، يهيم مع سيدة الحرير.

– لكنَّك متوتِّر؟

– لأنّى مُحبط، لا أستطيع إيجاد حلٍّ لهذا التَّباعد القسرى، ودائمًا أشعر بالخوف على حبيبتى، فالعزلة دمار شامل، هى تغلى وسط قارعى الطبول الأفارقة، تصطك أسنانها على وتر الغياب والوحدة والحياة بين جدران تعذِّب كائنات الطّيف.

تناوبنا على شفاه معذَّبة، قلتُ لها أعطِنى دفق الحياة. أغفو، أسمع حكاية عن عيادة صديقى، فى زمن تعب القلب، تهدّدنى، تضغط على شعر صدرى الخائف، تترك الروح فى غوص أبدىّ، وتكمل حكاية الطيف الذى مرَّ فى يوم العزلة، يخترق جدار الحظر، غنَّت تلك الترنيمة، لتبكى مع الحلوة.

.. فى الصباح سمعت صرخة تنفجر من شاشة عملاقة داخل لوحة صبرا وشاتيلا، كانت المسيرات تجتاح نوافذ الغرباء، حملت العلم الذى تاه من يدى، عندما التقت عينى المجنونة حرير الروح، هتفنا معا، كانت الشوارع تنتصر لحلم مثير اسمه غزة.

همس الحرير، قالت:

– لن تنتهى رواية غزة، طالما الجائحة تنال منا، نحن نخاف أن نقول وداعًا للحرية، نحن نعبث فى طريق الصبى الذى يبحث عن يده التى أصابها الصاروخ الصهيونى.. قالت بحدة:

– عن أى صهيونى، أنا، أنت، المقهى الجريدة، لوحة غرنيكا بيكاسو، أو، لنحلق بصمت.

مسَّ ملائكى.

بعد مغادرة صديقى الطبيب، حاولتُ لملمة جسدى العارى، مسَّت أصابعك شعر رأسى، صدرى، باطن ما بان من مثلّث أعضائى المنفلتة، تصرخين، تعتصرين أرقًا امتدَّ إلى خارج الغرفة.

وحدكِ الطيف، وحدى الجسد المتعب.

فى الصّفوف، ساعة الهتاف، بعثر الطّيف كومة الورق، كنتُ أحترق، إلى أن غيَّبتنى الريح، حملتنى يدكِ كريشة طاووس ملوَّن، دخلنا ممرّ العشاق، حافة السلسلة تناديني، قلتِ لى: استر نفسك!

وحدكِ غلبت خيط الغروب، فبانَ شعركِ الأسود، مالت الريح، ستَرَنى فَيضٌ من حرير ونور، وكنّا نقلّب بعض الكتب.

نقرأ معًا عن صاحب الحلم، نتذكّر حرافيش نجيب، أخاف من رغوة علاء الأسوانى، تدخل حمّى الصيف ونعود للحديث عن قصص المساء والرقص على أنغام ماجدة الرومى. تقول لى إنَّها شاهدت مرايا سوداء، فأرجوها أن تختفى من أمام البطل، فهو زعيم العصابة الذى يدمِّر كل المرايا. وحدها مرايا العالم السرّى لحرير الروح، تتجلّى فى بحثها عن ثلوج تتغطى بها الأسماك. وحدنا كتبنا مسرحية عن تلك الأسماك التى عاشت على الرغم من تسرُّب مياه حوض الزينة، تقول القصة إنَّ سمكة ذهبيّة تمَّردت، فقدت شهيَّتها للحب، قادت فكرة الخروج من طَرْقِ الرُّءوس على جدران الحوض، تسرَّبت المياه.. ها أنا أرقص مع الأسماك.

.. تاهت أسماك الشاطئ، دخل عليها الجنود، بحرية كل العالم تنافق سيدات غزة، كانت تودع شقيقة الروح إلى عريسها الأنيق، عتال الطحين، الذى يوزع فى مراكز الأونروا، يتعفر بالدقيق، وينثر الملح على حراس المتاهة، لكنه قالى لى:

زرعت شتلة ليمون فى المخيم، هل ستعيش بعد الطوفان..

.. قرأت له عن كيف تنمو الدمامل فى وقت الحرب، كيف كتب نجيب محفوظ فى الحرافيش، أن القدر، يغتالنا إذا رفعنا يد الحق.

عفرنى بما على يديه من طحين، مسحت هذا الأثر، قلت لعله يعود، قال وقال، فهو فيلسوف، ذكرنى أننا فى زمن الموت والجماعات لا الحقوق الحريات.. تسلقت أطراف اللوحة، معى سكين، قطعت الأجزاء التى تناثر منها الدم.. مسحت لون الأحمر بالأبيض الآتى من تناثر الطحين، كانت خضرة المحمد تجرش القمح وتدعو للدجاجات بطول البيض.

تحدَّثنا..

أنا وحرير الروح عن الهدايا، قالت لى من خلف شالها المزخرف:

❖عيناكَ هديَّتى.

غامَتْ ذاكرتى، ركزتُ يدى على كتف من خيال، تمايَلَتْ على خوف، نظرَتْ حزينةً إلى شهقات السمك المتوتر، حرَّكت ما ظهر من تلك المرايا المتموِّجة، قامت تئنّ، تناولت الفأس الحجرى، طرقت رأس السيد، بكت إلى أن غاب ظِلّ بساط الريح «...» نزل البرد، هالنى أنَّنا نغيب فى ندف غَيم، لمحتُ أنَّها تقرأ ما يقول لى برجى، ذاك الجدى الناطح العليم:

❖تتمكَّن من مساعدة الشريك وطمأنته وتقديم النصائح له عند الحاجة. حضورك وحده يكون كافيًا لتجديد الثقة!

تتكفَّل الكواكب «البطيئة» بتقوية علاقاتك. تتَّخذ تبادلاتك مع المحيطين بك منحىً سلسًا تحت تأثير كوكب نبتون. تفتح حوارًا معهم وتُعيد إطلاقه حين تشعر بوجود مشكلة فى الأفق. يستقرُّ وضعك المادى تحت تأثير ثنائى زحل وبلوتو.

فى المنزل، تطلق مشاريع جديدة بدءًا من شهر... ثم يدخل كوكب أورانوس إلى برج... فى كل أوقات الشهر، ويضفى طابعًا حالمًا على سرياليّة حياتك.

جادلت صديقى عن معنى أن تزول مرارة اليوم السابع عشر من حظْر...

.. ما زلت احس بحرارة تكبلنى، لبست ثوب الشغف، حرمتنى زيوت السمسم والشى وأعشاب البحر.

من خلال الهاتف قال ابن خالى، الذى يقيم فى بورسعيد، وأمه فى مخيم النصيرات بغزة:

– نحن أبناء الريح، لكنها خدعتنا وحملتنا نحو وقت دالى الرسام، تعرفينا أصبحنا نعد الشهداء، وهم معنا يقرأ كل منهم كم من القتلى أصابهم الوقت.

–يا ابن الخال، الأب، غزة وعاقر، كن أنت تزدد جمالًا.

– لكننى فى طور الموت.

– عليك بالبحث عن قبر.

– سأترك وصيتى.

– لمن يا غالى.

– أولاد المرحوم.

– كن بخير أولًا، ثم مت.

العالم يقف جدارًا خبيثًا خليطًا من كتل الأسمنت الصلدة والدموع بريقًا يخطف الحلم يمسّد عنق حرير الروح

أدباء سيناء 2

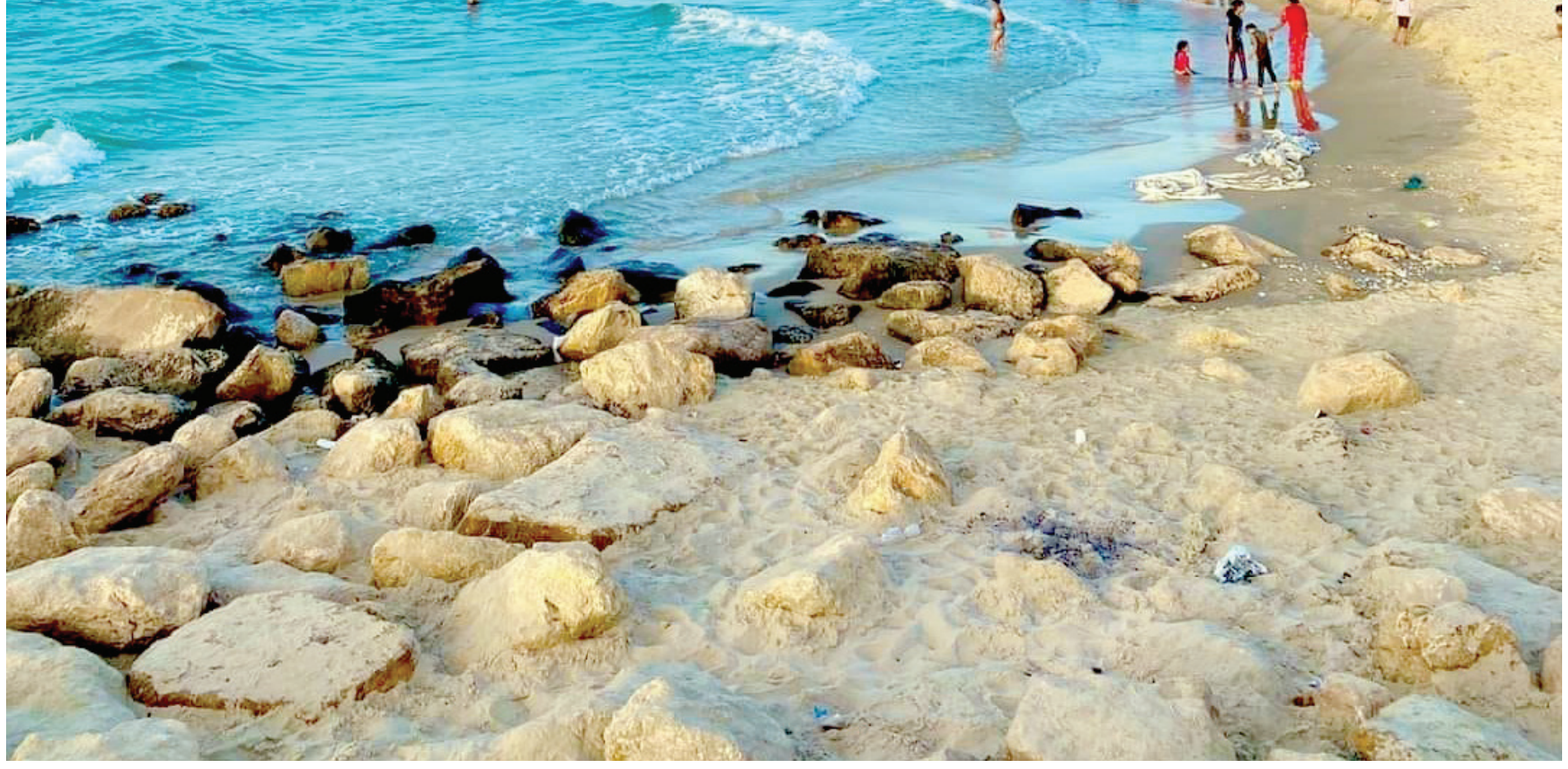

سامى سعد

ظنون

أظن أننى أتألمُ،
أنَّ العالمَ يَفْسَد بغيابكِ
الأرض تدورُ
النجوم تسطعُ،
الأسواق عامرة.
لكن فى الليل
تنزُّ صراصيرٌ فى الحقول
أقول: إنها تتألمُ.
تتشققُ الأرضُ فى القيظ
حوريات يبكين..
عجائز يسردن الدموع
وعلى قدم وساق
يرتفع الوقت وينهدمُ..
أظنُ أننى أتألمُ
أبحثُ فى الرُكام
عن بيضةٍ لاقحةٍ، تفقسُ تحت
الشعاع..
أظنُ أننى أتألمُ
كفى يُدمى
وأنا أقرعُ باب الحب.
أظنُ أنَّ تلك الغيوم البيضاء
فى بادية السماء
هى قبور ملائكة..
وقد يظن أحدٌ أن القبور تمشى؛
ذلك صحيح..
فكل ما لا يطمره الرمل
يمكنه أن يتحرك.
أظن أن تلك الجزائر فى البحر
هى أرواح غرقى
نَسيَتِ الشمسُ
أن تُجفِّفَ أرواحهم
فصارت غنيمة للملح والرمل.
أظن أنه بدونِ وخزٍ ما
سيظل القلبُ غارقًا فى السُبات
وأن وخزًا مُضاعفًا
سيجلب للقلب الخرس.
أظن أنى لن أفلح أبدًا كناقدٍ
فأنا لا أجيد تمزيق أحدٍ..
سواى.
أظنُّ أنَّ كلَّ حقيقةٍ
هى محضُ ظنٍّ..
كَفَّ عن ممارسة الشكوك.

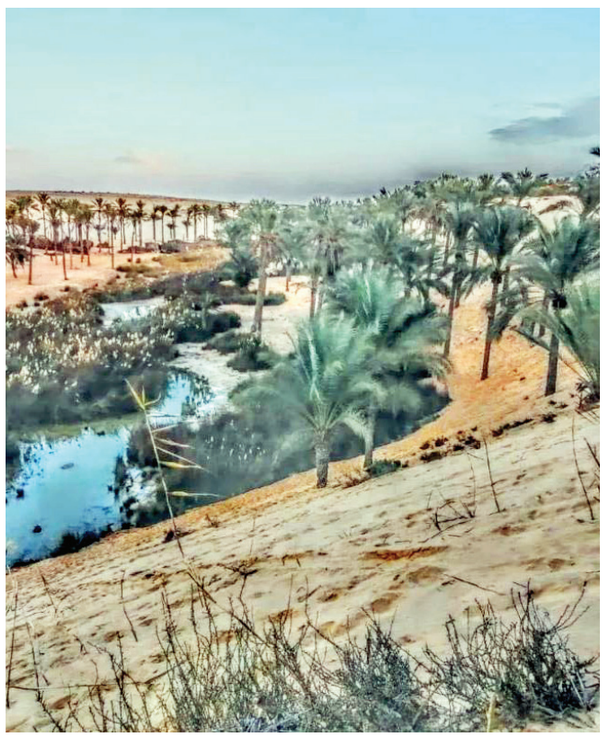

ابتهال محمد نبيل

إيدين قصيرة

قلت أيوا الصبر طيب
بكره هين.. جاى قريب
طيف نهوض أحلام كتيرةْ
بس عجز المادة مرعب..
العيون لـ«الألفةْ» طالبه
والصعود بإيدين قصيرةْ..
إمتى غيم الفقر يهرب
بالتناسب والتوازى
الصراحةُ تقودها قُدرةْ
بالآمال إنجازنا يرسى..
المواهب والجدارةْ
تلقى رابط فجر عِزةْ
يشتعل لكفاحنا شمعةْ..
يتفتل لوئامنا قفزةْ
تتنصب أوتار مُنانا
يبقى ناقص ليها هزةْ
لو بـ«لَمَ» الشمل نصفى..
نصحى بالإفصاح نصرَّح
راح نعيش بسعادةْ غامرةْ
وبأمانى ناقصها همزةْ
ليه الجميع ع المادةْ وَقَع
ليه الطمع منهج أرارى
بانتهاز وياه تنمر
ليه الحِيَل تصرفها جارى
منهج التكويش مربَّع
والخضوع أمر اضطرارى!

عبدالله السلايمة

سكتة قلمية

كعقاب على رفضى القاطع طباعة كتاب مشترك بيننا، دأب «صالح» على استفزازى حتى فاض بى الكيل، ودفعنى غضبى منه ذات مرة لتوبيخه ووصفه بالغبى، فما كان منه إلا أن رد فى تحد: لنرَ أى منّا يفوق الآخر ذكاءً.

أبت نعرة البداوة بداخلى قبول ما اعتبرته إهانة، فكيف لمثله أن يعلن عن تحديه بشكل سافر لرجل صحراوى مثلى، الأمر الذى دفع بى لقبول تحديه.

وكأنه وجدها فرصة لمعاقبتى على طريقته الخاصة، فاجأنى قائلًا فى ثقة أثارت دهشتى:

. لا أريده تحديًا

. ماذا تريد إذًا؟!

أجاب بنفس نبرة الثقة، مؤكدًا:

. بل رهانًا..

أشعرتنى ثقته الزائدة بشىء من الارتباك، حاولت السيطرة عليه بافتعالى ابتسامة استخفاف، من خلفها تساءلت:

. علام؟

نظر فى عينىّ مباشرة، وبدا على وجهه سمات التحدى، وهو يجيب:

. على أن أشاركك طباعة كتاب، إذا ما فزت بالرِّهان.

. وإذا ما خسرت؟!

. لك أن تحكم علىّ بما تراه.

ولما أجهض البدوى داخلى أى محاولة للانسحاب، قبلت الرِّهان على مضض.

لو كان قد اكتفى لاحقًا بإقرارى له بخسارتى، لما دفعنى للعض على نواجذى ندمًا كلما تذكرت ذلك اليوم المشئوم الذى وافقت فيه على قبول مراهنته، وإحساسى الدائم بالعار للحد الذى جعلنى أفكر بشكل جدى فى أن أترك له البلدة بكاملها.

لم يبدُ عليه أنه ذكى، فقد كان بسيطًا وثرثارًا للحد الذى جعلنى أحكم عليه بالسطحية، تصورى الخاطئ عنه واستهانتى بقدراته، هما ما دفعا بى لأن أحكم عليه من الخارج، وأغفل عن حقيقة أنه من ذلك النوع من الرجال الذى يصعب معرفة ما بداخله، حكم تسرعت فى اتخاذه، وكلفنى ثمنًا باهظًا.

لم يكتفِ بما سببه لى من إنهاك على مدى أيام، قضيتها فى تخمين ما قد يتبعه من أساليب غير نزيهة ليس لضمان خروجه من المعركة منتصرًا، بل خسارتى لخطيبتى التى وصل إليها بطريقة أوقفت شعر رأسى دهشة وغيظًا.

بعد أن تأكد له استنفادى كل أساليبى الوقائية، وربما نسيانى الأمر برمته، فاجأنى ذات يوم برفقة شاب فى المقهى، عرّفه كأحد المعجبين بكتاباتى، غمرتنى لحظة انتشاء، تحت تأثيرها ابتسمت بشكل ينم عن امتنانى لتقديرهما لى، أخذت أفتش فى حقيبتى علنى أجد كتابًا يخصنى، ويرقى لمستوى توقعات الشاب بى. ولحسن حظى، وربما لتعثره، تصادف أن وجدت واحدًا.

ولكى تكون المؤامرة أكثر إحكامًا أخذ «صالح» يثنى على ذوق الشاب الرفيع ورُقيه، مستشهدًا باختياره لمثل أعمالى، ولم يفته امتداحى بشكل أشعرنى كما لو كنت أسدى للشاب جميلًا وأنا أكتب له إهداءً بخط يدى، وأناوله الكتاب.

ولم يُضع اللئيم وقتًا، وشرح للشاب ما عليه فعله.

أمام باب منزل خطيبتى الذى كنت سأعقد قرانى عليها قريبًا، وتصادف وقوفها بالشرفة تسلى وحدتها بالفرجة على المارة، تظاهر الشاب بسقوطه إثر تعثره بحجر، أمسك بقدمه متظاهرًا بالألم، ما دعا خطيبتى الساذجة للإشفاق عليه، ومحاولة مساعدته.

دعته للجلوس فى مدخل البيت، وعرضت عليه أن تمده ببعض الإسعافات الأولية، إذا ما كانت حالته تستدعى ذلك.

شكرها على اهتمامها، واعتذر على إزعاجه لها، فاستأذنته ألا يبرح مكانه حتى تحضر له مشروبًا، لم يمانع متظاهرًا بالامتنان لها، وما أن استدارت داخلة حتى أسرع بالمغادرة تاركًا الكتاب الذى أهديته له صباحًا خلفه على سلم المنزل.

فى المساء ذهبت لأصحب خطيبتى فى نزهة، وفيما كنت جالسًا بانتظار انتهائها من زينتها، رحت أمرر نظرى فى أرجاء الصالون، لمحت كتابى ملقيًا على الأريكة، همست فى ارتياح: «ربما كانت تقرأه»، لكننى ما أن قلبت غلافه حتى صدمنى ما لم أكن أتوقعه. همست مأخوذًا: «يا الله إنه نفس الكتاب الذى أهديته للشاب فى الصباح».

عقدت ذراعىَ فوق صدرى فى توتر، جلست ساهمًا، حاولت طرد الأفكار السيئة من مخيلتى، لكنها أبت المغادرة قبل أن تخلّف وراءها فكرة أن خطيبتى تخوننى.

وكدليل دامغ على خيانتها لى ما أن دخلت حتى تساءلت وأنا أرفع الكتاب أمام ناظريها: من أين لكِ بهذا؟

وفيما كانت تحاول شرح ما حدث، رحت أتفحصها بنظرات مرتابة، وتشى بعدم تصديقى لها، ما زاد من حدة تصاعد التوتر وشُقة الخلاف بيننا، وما دفع بى فى النهاية لأن أتركها وأغادر شاقًا طريق عودتى كثور هائج، لاعنًا «صالح» واليوم الذى تعرفت فيه إليه.

هشام المالح

قيثار الشاعر

هاغنى
بس جيتارى مش معايا
هو وحده اللى بيفهمنى
هو اللى بيردد آهاتى
هو اللى بيفهم حكاياتى
تاه فى الزحمة
ضاع ويا اللى راحوا منى
كان بيهون على قلبى
كل أنين العمر
أيوه جيتارى عامل زى الفرس الحر
لو ما نفعشى
عمره ما يوم يضر
بلاغته فى هيبته.. بكاه فى أفراحه
شموخه صهيله.. دموعه نواحه
يلمع بالسهر والنجمة والقمر
بالبحر وبالشجر بالشوق وبالسفر
وصباحه بيحكى حكاية عشق
حملها العمر على جناحه
أول ما بدأت طفولتى
رجليا عرفت شيلتى
سرحت على البتارين
أنزق شمال ويمين
وإشارة حابسة قلوبنا
فى الزفة كما المجانين
والمارة مش صابرين
وتحل لجام فيسبا
تكسر إشارات وكمين
وكأنها غربة طويلة
رجعت ويا السنين
تختار منا الفقير إلى الله
المسكين
وتاخدنى فى حضن جامد
ولا أحضان العاشقين
من كتر الشوق بنطير لفوق
حسيتنى كأننى طاير.. وباحلق بالجناحين
وخيالى سرح لعنان
ولاقتنى بقيت باتمان
أو إنى بقيت طيار.. هربان من التيار
أو عربية جبارة.. بتغير المسار
وفى وسط الناس والزحمة
انحدرت لليسار
وهبوطى أصبح حتمى
مربوط على الاضطرار
واحد شايل على كتفه
أحلى وأجمل جيتار
ولاقتنى على طول باتشعلق
بحلمى فى الأوتار
مى.. سى.. صول.. رى.. لا.. مى
يا لعبة الأقدار.. يا محاسن الصدف
المشهد اتوقف؛
هنا اللحن اتعزف.. هنا الجرح اتنزف
هنا خلاص اتعرف.. صداقتى مع الجيتار.

طارق أبوجبل

أنت الجانى

واستنيتك ترجع تانى
يمكن.. جايز كنت أنا بحلم
بس اتصور..
حتى ف حلمى طلعت أنانى
شفتك شارد وسط همومك
شفت دموعك مش نسيانى
ياما ضحكنا كتير أنا وأنت
وياما بكينا
ياما غرقت ف بحر آلامك
وأنت غرقت ف بحر حنانى
واستنيتك ترجع تانى
أنا مش هنكر إنى عشانك
كانت ليا آمال وأمانى
أتمنيتك أسعد واحد
وأنى أشوفك إنسان تانى
كنت أنا بفرح.. لما تنادى عليا بـ
اسمى
واما تنادى أقولك.. تانى
تـضـحـك.. وأسـمـع ضحك
عيونك
أصل عيونك بيتى.. مكانى
إوعـا تـصدق إنـى بقـلبك كنت
هضحى
وإنى أخونك ولا أسيبك لحظة
تعانى
إستنيتك لجل أقولك
عمرى ما كنت فى حقك مذنب..
أنت المذنب وأنت الجانى.

حاتم عبدالهادى

امرأة المعنى

ماذا لو احتويت العالم بصدرك الحانى،
وتركت ذاتك تتجاذبها رياح عاتية، وعواصف
ممتدة؟!
ماذا لو فرت من عينيك دمعة وحيدة،
وأنت تقف أمام المروج عاريًا إلا من حياء يمتد؟!
تطبطب على الآخرين كل مساء،
وتهدهد أحلامًا مؤجلة،
تسكن صحراء الجراح،
ولا تستطيع أن تقضم قطعة تفاحتها الأشهى!
مـاذا ستـفـعـل حـين تـقـابـلـك الـريـح، وتـدوس
عريشة روحك الأمطار،
وأنت تهريق اللذة خلف برارى العالم،
وتصرخُ.. تصرخُ
ثم لا يسمعك سوى الصمت والجبل،
والوحوش الهائمة فى صحارى الدنيا الممتدة؟
أسألُك: متى تحط رحالك على أرض المعنى
حيث الحقيقة واليقين يصنعان برهانًا
لعروجك الأثير؟!
ترتعشُ وتتكورُ وتتزمل بالحنطة،
وتتجاسرُ
لتهرول خلف ردهات السراب
المنبجس من مخاتلة المعنى..
ستعود بلا مأوى، ولا وسادة،
ولا سنبلة تؤطر لرحلتك الأخيرة،
فقط أنت واقف هناك؛ بلا ظل، ولا دفء لمشتهى
روحك المضيئة شرفات العالم..
تـقـولُ: الـوقـتُ داهـمـك، والمشـتـهـى حـاد عن
طريقك، فسرت كالمجذوب؛
تعاقر الوحدة والصمت، وتضحك فى وجوه
الخلق صباحًا،
ولا تشكو إلا إلى الأنين..
حسبتك تلبسُ خرقة البرهان،
وتدلق فوق روحك الصغيرة حلمًا،
وهيوليا ممتدًا، وتصوح فى غابة العابرين،
غير عابئ بذاتك القلقة.. الحزينة
تستحلب الكلام،
وتخدش حياءك بطلعتها،
وهى هناك سابحة فى غرود الضباب؛
حيث الطين يشكل عجينة أبديته الأولى،
ولا مكان لعابر مثلى..
سأخش الآن إلى كهف الوحدة،
وسأجدها، إن شاء الله.

محمد المصرى

عرق البلح

ومال النخل ف العالى
بيطرح كل يوم تمرة
بتتقسم على المحتاج
وع السائل وع المسكين
وع الساكن رصيف الليل
وع النايم مع النايمين
وع الندمان وع الزعلان وع الغفلان
وع القادر وع الفاجر وع المطحون
وع الخايف من الدنيا وعمايلها
وع العايش سنين عمره يحايلها
يا مالك نخلك العالي
وحاصد كل خيراته
بسمَّانه وزغلوله وعيشة كمان مع رُطبه
سايبلى بس من نخلَك.. يادوب عرقه
عشان نشرب ونتسلطن
ونتكيف على الآخر
ده حتى نواته مش لينا
شايلها وسط كوم خيرَك
عشان الدنيا لو لفت
بتسند بيها يوم زيرَك
وأنا وأنتى بقينا أغراب
بتدّينى ولا يكفى
وبوْفيكى ولا يوفى
كأن القلب ما عشقك
ولا كنا ف يوم أحباب
لا عُودت ياسين ف أحلامك
ولا عودتى بهية كمان
وواخدة الغُرب بالأحضان
وقافلة ف وشى أبوابك
ولكن قلبى من طيبته ومن خيبته
ومن حبُه اللى ماله حدود
هيفضل من محاسيبك
وحالف عمره ما يسيبك
ويبقى ضمن خُدَّامك
ما أنا وقت العجاف خلفك.. بكون زقة
وأنا وقت العدا عبدك.. ما أقول لأه
فيا ريتك تجيبى النخل م العالى وتدينى
وترويني بمية روحك العذبة.. وتحيينى
تعبت كتير من العرقى
ومن عرقى رويت أرضك
فما يصحش أعيش العمر مستنى..
أدوق تمْرك.

محمد ناجى حبيشة

ليلةُ الإسراء

ذاك عيدٌ بليلةِ الإسراءِ
فى ضياءٍ من سيد الأنبياءِ
واحتفالٌ فيه البشائرُ تزهو
بأريج الملائك السُفراءِ
فوجوهٌ قد أشرقت فى بهاءٍ
وقلوبٌ قد نوَّرت بوفاءِ
هو لُمْحٌ من نور خير رسولٍ
وابتهاجٌ بليلة الإسراءِ
يا رسولا يطيبُ فيه ثنائي
أنت فوق الأشعار فى علياءِ
كيف أُثنى عليك يا أشرفَ
الخلق
جميعًا.. ويا نزيل السماءِ
فاقتدارى أهدى إليك سلامًا
قُدسيًا يا صفوةَ الأنبياءِ
بينما مكةُ العنيدةُ تطفو
فى ثبات بغلظةٍ وجفاءِ
وقلوبٌ للمؤمنين أضاءت
وقلوبُ الكفار فى الظلماءِ
وقريشُ تؤذى الرسولَ وصَحْبَهُ
وتغالوا فى شرعة الإيذاءِ
لا تقولوا بعقلكم كيف يحيا
أحمدٌ فى طباق هذى الجواءِ
وهو إنس من جنسنا كيف هذا؟
كيف يحيا بالجسم دون هواءِ
لا تراعوا فإن عيسى قديمًا
بعث الميت من تراب الفناءِ
إن موسى قد حول البحر طُرقًا
بعصاه وسار فى الدماءِ
إن إبراهيم الخليل رموه
فى جحيم فعاد جمَّ البهاءِ
عللوها لعقلنا إن قدَّرتُم
أنها المعجزات فوق الذكاء.
وتغالوا فى شرعة الإيذاء
كلُ حقٍ بين الضلال يُعادى
سوف يعلو كالكوكب الوضَّاءِ
إذ أتاه البشيرُ جبريل بُشرى
فى ركاب الملائك السفراء
ثم حَفّوا حول النبى كبدرٍ
يتهادى فى الليلة الغرَّاءِ
واتوا بالبراق هام اشتياقًا
فى حنانٍ ورقّةٍ واستحياءِ
يشتهى قُربَ الحبيب إليه
يمتطيه.. يا عز ذا الامتطاء
وسرى لمحة فكان بأرض
قدَّستها رسالةُ الأنبياءِ
وأتاه الأمينُ جبريل حُبًا
بإناءٍ من اللبان وماء
فاحتسى المصطفى لبانَ خلودٍ
فى اختيار الملة السمحاء
قد جفاك الجُهَّالُ يا خيرَ هادٍ
ورعاك الإله فى العلياءِ.

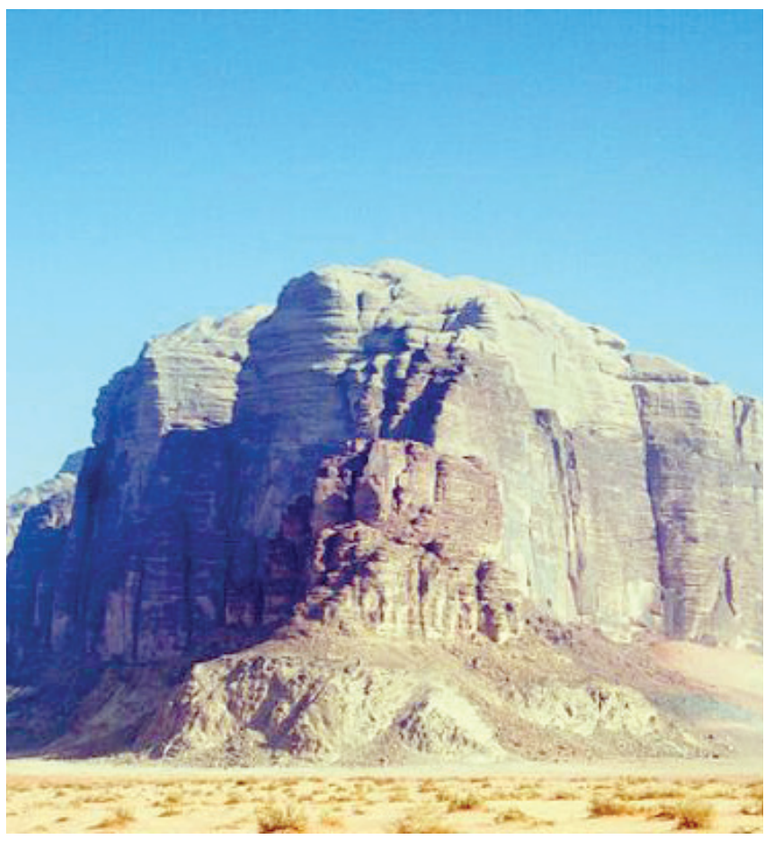

د. سمير محسن

تعويذة شهب

رقَصَ جمالُ الوجه
بروحى اللا محدود مداها
من أوجدكِ بحاجب سيف؟
أو جمَّلكِ بزيف؟
أىُ مداد خط رموشك؟
عنون قلبى عبر خدودك؟
كيف لشعرك أن ينسل بوجهى كالشلال؟
فأغرق أغرق كالموال
فى أغنية من تأبينى
حذار منكِ ومن وسوسة الغيب
على تلقينى
بين براثن ثغرك
حين الغوص خلف عرينى
من يسعفنى؟
وأنت النشوة.. أنتِ يقينى
فلا أنساب تصهل هذا الكون
ولا إعراب يستثنينى
قومى فى خديك عشائر ملك
من يعفينى؟
من تلويع أو تعويذة شُهب
مـن يشـجـينـى إذا أدمـنـت الـقـهـر بين
عيونك
فوق جبينك تحت جبينى
آه منك..
قد غيرت سفينى نحو غرام
قد يسقينى ما لا أعلم
هل تحنانك أم تسبينى؟
يا للوعة
كيف دخلت إلى أعماقى؟
رغم الغربة والتلوين
كيف نجوت
رغم السهر وعنف القدر
رغم جنونى؟

كيف لشعرك أن ينسل بوجهى كالشلال؟

عطا الله الجداوى

مشاعر متقاطعة

أتناقشُ مع مشاعرى
ماذا تعنيك ضجة الشارع؟
وسفر فلان وعودة فلان؟
ماذا تعنيك رسوم جدارية
تحوَّلت ألوانُها إلى نظراتٍ مريبة
وزحمةٍ وجوهٍ عابرة كأنها وجه واحد.

يتلاطمُ موجُ الأصواتِ فى الردهات
والمكاتب المكتظة بالروتين
وبقايا أكواب القهوة الباردة
ومنفضة سجائرٍ حُبلى بالأعقاب
ثمة وعود بأن كلَ الأمور تمام.

أشعرُ بالبرد
لأنى ألبسُ قميصَ فكرٍ ممزق
وتحملنى حافلة ركاب شباكها مكسور
أقف متشبثًا بالمقاعد المجاورة
وكأننى واقف على طللٍ تقادم عهدُه
وفى احتياج لنوبة
من مُسكِّنِ البكاء.

أتوقف عن ترتيب أفكارى
فبعض الكلام له عبء ثقيل
وبعض الإحساس له ملمسٌ مؤلم
وحدى أُقنعُ وحدى
بأن ملامح وجهى مساحة مربعة
لمشاعر متقاطعة
وكلمةُ سرٍ تائهةٍ
ومحاولةٌ إيجادها
بداية متاهة.

حرف

الدستور الثقافى

إصدار إلكترونى يصدر عن مؤسسة «الدستور» للطباعة والنشر

المحرر العام: محمد الباز

الأربعاء
8 مايو 2024
29 شوال 1445
30 برمودة 1740

«كأن على رءوسهم الطير».. هكذا حال السميعة أو قُل مُريدى «الشيخ الطبلاوى» ابن منطقة ميت عقبة بمحافظة الجيزة، الآلاف مِنْ كلِّ حَدبٍ وصَوْب جاءوا ليحلقوا فى السماوات السبع، يبحثون عن عقار إلهى يمنحهم السكينة والهدوء، عقار يمنحه لهما الشيخ محمود الطبلاوى الذى منحه الله نعمة الصوت وملكة التلاوة.

«إذاعة القرآن الكريم من القاهرة».. جملة اعتادت الآذان سماعها آناء الليل وأطراف النهار، جملة تنطلق عبر أثير الراديو بمثابة فاتح للشهية لوليمة دسمة تُعد على نار هادئة، وليمة من شأنها أن تُصرف شتات العقل والتفكير وتطمئن بها القلوب، جملة تُمهد لتلاوة آيات من كتاب الذكر الحكيم، كرم بها الله عز وجل عبدًا من عباده وهو «محمد محمود الطبلاوى»، ليكون دليلًا ونبراسًا على مقولة «نزل القرآن فى مكة وقُرئ فى مصر». قالت له كوكب الشرق «أم كلثوم»: الفرامل بتاعتك مظبوطة يا شيخ محمد، وتقصد بها «القفلة»، وقال عنه صديقه الكاتب محمود السعدنى: هو آخر حبة فى سبحة المقرئين العظام، وعرض عليه موسيقار الأجيال محمد عبدالوهاب أن يعلمه المقامات والنغم الموسيقى، فقال له: أنا حابب أكون على سجيتى وبعبلى.

«إبراهيم الطبلاوى» أكبر أبناء رجل من عتاولة وفتوات دولة التلاوة، يكشف فى ذكرى وفاته الرابعة عن كواليس فى حياة المقرئ الراحل فى حواره مع «حرف».

محمد نصر

فتوة القراء

ابن الطبلاوى: زملكاوى يهوى المصارعة ويعشق صوت أم كلثوم

إبراهيم الطبلاوى

حفظ كتاب الله فى سن الثالثة عشرة ونُعد عُمر الطبلاوى ليُكمل المسيرة

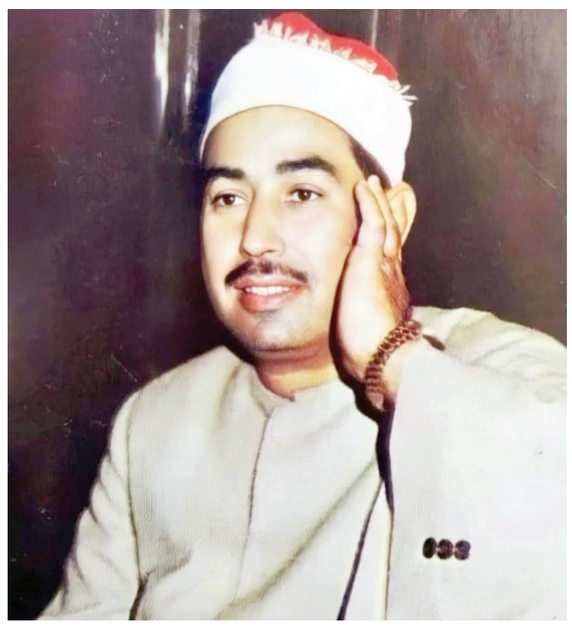

■ **نحن نحتفى بذكرى وفاة رجل من أعلام التلاوة.. كيف بدأت مسيرة الشيخ الطبلاوى؟**

– الشيخ الطبلاوى عليه رحمة الله نشأ فى حى ميت عقبة بالجيزة منذ ميلاده وحتى وفاته، وتعود أصوله إلى مركز تلا فى محافظة المنوفية، ويعتبر والده صاحب الفضل بعد الله فى إجادته للقرآن الكريم سواء على مستوى الحفظ أو التلاوة، حيث أصر على ذهابه لكُتاب الشيخ غنيم بمنطقة الجيزة فى سن صغيرة ليحفظ كتاب الله كاملًا فى سن الثالثة عشرة من عمره ويحصل بعدها على العديد من الإجازات على يد كبار المشايخ وأشهرهم.

■ **بصفتك أكبر أبناء الشيخ الطبلاوى.. كم لديه رحمه الله من الأبناء وهل فيهم من سار على نهجه؟**

– لدىّ من الأشقاء ١٣ أنا أكبرهم بالفعل، حيث تزوج والدى ثلاث مرات، وتمكن «محمود» شقيقى عليه رحمة الله- قبطان بحرى- من حفظ أجزاء عديدة من كتاب الله، وكان والدى حريصًا على أن يكون «محمود» امتدادًا له ولمسيرته حتى إنه كان يوفر له سائقًا وسيارة خاصة لتقله إلى الجامع الأزهر لحفظ القرآن وتجويده، حتى توفاه الله العام الماضى، كما أن شقيقى «محمد» قارئ جيد لكتاب الله ويحفظ تجويده وأحكامه، ويمتلك صوتًا قريبًا للغاية من والدى عليه رحمة الله، وحاليًا نُعد شقيقى الأصغر «عُمر» ابن الـ١٢ عامًا ليُكمل مسيرة الوالد ويكون خير خلف لخير سلف، حيث يمتلك صوتًا عذبًا به جودة وإتقان والده.

■ **الطبلاوى المقرئ كان يجلس أمامه المستمعون دون تحريك هامس.. كيف كان يتعامل مع أبنائه؟**

– والدى كان شخصًا حاسمًا للغاية، كان دائمًا يوصينا بحفظ كتاب الله وعدم التقصير فى ذلك، علاوة على الانتظام فى الصلاة والصوم، وإن كانت وصيته الأكبر هى «الدين المعاملة»، حيث كان يعتبر تقوى الله تتمثل فى الأخلاق والمعاملات اليومية مع الناس وليس المظاهر فحسب، وأكثر ما يثير غضبه تأخر أحد أبنائه فى دراسته وتقصيره فيها.

■ **وماذا عن طقوسه اليومية فى المنزل؟**

– كان حريصًا على الاستيقاظ مبكرًا لصلاة الفجر وتناول وجبة الإفطار، ثم يجلس يقرأ أجزاء من كتاب الله ويبدأ مراجعتها يوميًا، وهى عادة ظل حريصًا عليها حتى وفاته، ثم يخلُد للنوم قليلًا قبل صلاة الظهر، ليكمل بعدها نشاطه وعمله اليومى.

■ **حفظ كتاب الله وتلاوته هما النصيب الأكبر من يومه.. هل كانت له هوايات يمارسها كمشاهدة التلفاز مثلًا؟**

– بالفعل، حيث كان يهوى مشاهدة مباريات كرة القدم وبالتحديد التى يكون نادى الزمالك طرفًا فيها، كان زملكاويًا أصيلًا بحكم تربيته ونشأته فى حى ميت عقبة على بُعد أمتار من نادى الزمالك، كما أن العائلة بالكامل كانت تنتمى لنادى الزمالك وتشجعه، وبجانب حرصه على مشاهدة مباريات كرة القدم كان يتابع حلقات المصارعة الحرة.

■ **بجانب تعلقه بمشاهدة المباريات.. هل كان للفن والدراما نصيب من وقته؟**

– كان حريصًا على متابعة بعض الأعمال الدرامية الدينية، خاصة أعمال الفنان الراحل حمدى غيث، وبعض الأعمال الشهيرة الأخرى فى تلك الفترة.

■ **بحكم عذوبة صوته وبراعته فى التلاوة.. هل أثنى يومًا على صوت مطرب ما؟**

– الشيخ رحمه الله كان يستمع للسيدة أم كلثوم وبالتحديد أغانيها الدينية، وكان صديقه المقرب الشيخ سيد مكاوى، وكنت أرد على اتصالاته الهاتفية يوميًا فى منزلنا حيث كان دائم السؤال عن والدى.

■ **يستمع لأم كلثوم وصديقه سيد مكاوى.. هل تراه تصرفًا عفويًا يُعد ردًا على من يُحرم الفن؟**

– كان دائمًا يردد أن الحلال بين والحرام بين، الحرام لا يحتاج إلى توجيه أو إشارة، نفس الأمر بالنسبة للحلال حيث يمكن التفرقة بسهولة بينهما فى الفن، ما دام العمل يقدم رسالة لا تتعارض مع أصول الدين.

■ **صوتك هادئ ورزين كصوت الراحل.. فكيف كان يستعد الشيخ الطبلاوى للتسجيلات والحفلات؟**

– لم تُكن له طقوس محددة قبل التسجيل أو الذهاب إلى الحفلات، بل كان يكتفى بالنوم المناسب فقط والاسترخاء، وتناول بعض المشروبات العادية مثل الشاى واليانسون، حتى أن المقربين منه كانوا يتعجبون من قوة صوته ويسألون عن طقوسه أو المشروبات التى يستعين بها للحفاظ على هذا الصوت، كما أنه كان حريصًا على التلاوة بشكل هادئ دون جهد شديد يتسبب له فى إرهاق أحباله الصوتية.

■ **مناسبات عديدة كان الراحل أحد أعمدة فعالياتها بتلاوة آيات الذكر الحكيم.. ما المناسبة التى كان ينتظرها من العام للعام؟**

– حفلات عيد العلم، حيث كان الشيخ الطبلاوى ضيفًا دائمًا فيها لتلاوة كتاب الله، وكانت تتم دعوته كل عام وتكريمه سنويًا فيها، وكان يعتز كثيرًا باحتفالات ليلة السابع والعشرين من رمضان ودعوات الجمعيات الخيرية له لحضور فعالياتها.

■ **قرأ القرآن بالكامل وأجاد تلاوته.. هل كانت هُناك سور بعينها يتجلى فيها بصوته؟**

– سورة الأعراف، خاصة أنها أول سورة تلاها فى الإذاعة المصرية، وكان يتجلى فيها بصوته، كذلك هناك العديد من السور التى كان يحب قراءتها فى الاحتفاءات الكبرى مثل الأحزاب والقصص وهود، وأذكر أنه خلال زيارتنا فى إحدى المرات لمحافظة الشرقية خرج خلفنا أطفال إحدى القرى يرددون فى صوت واضح آيات من سورة الأحزاب بنفس الأسلوب الذى كان يقرأ به الشيخ الطبلاوى.

■ **شهدت الساحة وقت ظهوره وتألقه كوكبة من المقرئين الكبار.. كيف كان يرى شكل المنافسة بينهم؟**

– لم تكن هنالك منافسة على الإطلاق بين هؤلاء الكبار من المقرئين، بل على العكس شهدت العلاقة ودًا وتآخيًا لا مثيل له، حيث كان الشيخ عبدالباسط عبدالصمد والشيخ محمود خليل الحصرى والشيخ شعبان الصياد من أقرب أصدقائه، ولكل منهم مدرسته الخاصة فى التلاوة ولها روادها من شتى أنحاء العالم، وكل منهما كان يعرف قيمة نفسه جيدًا ولم تعرف الغيرة أو الأحقاد لعلاقتهم طريق.

■ **مَن القارئ الذى كان يستمع إليه الطبلاوى؟ وهل كان يستمع لتسجيلاته؟**

– هناك العديد من المقرئين مثل الحصرى والمنشاوى وكامل البهتيمى وشعبان الصياد وعبدالعظيم زاهر والشيخ محمد رفعت، ولكنه أغلب الوقت كان يُشجع الأصوات الشابة والجديدة على الساحة، ولم يكُن يستمع لنفسه نهائيًا بعد الحفلة أو التسجيل.

■ **تردد أن الشيخ الطبلاوى كان على صداقة بمالك شركة تسجيلات «مسيحى الديانة».. حدثنا عن تفاصيل تلك العلاقة؟**

– بالفعل، حيث كان يرتبط بعلاقة صداقة بـ«موريس إسكندر» مالك إحدى شركات التسجيلات القريبة من مكان سكنه فى منطقة العجوزة، وفى إحدى المرات كان الشيخ فى زيارة لصديقه موريس ووجده مهمومًا للغاية، وعرف منه أن سبب الأزمة تأخر الشيخ نصر الدين طوبار فى إرسال عدد من الابتهالات المُتفق على تسجيلها لشركة موريس، ليقرر والدى حل أزمة موريس بالاتفاق معه على تسجيل عدد من الابتهالات بصوته، وبالفعل سجل الشيخ حوالى ١١ ساعة من التسجيلات النادرة.

■ **هل اقتصرت صداقاته على أبناء دولة التلاوة أو زملاء المهنة فحسب؟**

– على الإطلاق، بل كان على علاقة ود وصداقة بعدد كبير من خارج محيط دولة التلاوة، مثل الكاتب الكبير محمود السعدنى والإعلاميين محمود سعد وأحمد المسلمانى، وكانوا جميعًا على تواصل دائم معه ويتبادلون الزيارات من حين لآخر.

■ **كيف قضى الطبلاوى أيامه الأخيرة قبل أن ينتقل لجوار ربه؟**

– الشيخ رحمه الله عانى من آثار المرض فى آخر أيامه، وفضّل حينها العيش فى قريته بالمنوفية فى بيت العائلة، حتى يبقى بين أهله وناسه حتى توفاه الله راضيًا عن مسيرته التى قدمها فى رحاب كتاب الله وتلاوة كلامه.

حرص على متابعة المسلسلات الدينية وسيد مكاوى صديقه الأقرب

أم كلثوم

مكاوى

احتفالات عيد العلم وليلة القدر الأقرب إلى قلبه.. وامتلك ذكريات مع سورة «الأعراف»

أطفال قرية بالشرقية خرجوا وراءنا يرددون سورة الأحزاب.. والحصرى وعبدالباسط أقرب أصدقائه